مآذن ونخيل

في تاريخ وتراث البحرين الثقافي



وسام عباس السبع

مآذن ونخيل
في تاريخ وتراث البحرين الثقافي
وسام عباس السبع

مآذن ونخيل

في تاريخ وتراث البحرين الثقافي

وسام عباس السبع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى شعب البحرين الأبيّ

الى العلماء المخلصين

الى العبقرية الفذة الفقيه المحدث الرجالي الشيخ سليمان بن عبدالله الماحوزي

الى روح باعث النهضة الفقهية في البحرين الشيخ يوسف بن احمد العصفور

أهدي هذا الجهد المتواضع

المؤلف

للتواصل مع المؤلف

Wessamabbas@gmail.com

٠٠٩٧٣٣٩٦٤٠٠٥٨

تمهيد

حدث أن صنّف عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) كتاباً من كتبه "وبثه في الناس، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: ياهذا إن المصنف كالمصور، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلمتهما، صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك".

ذكرتني قصة الجاحظ هذه بمحاولات بعض الهواة نبش التاريخ والتفتيش عن ما يوافق هواه السياسي وغرضه المذهبي، فيخسر التاريخ ولا يربح السياسة في غالب الاحيان.

الملاحظ أن التاريخ يأتي اليوم في المقدمة من اهتمامات البحرينين، ويحتل أولوية بالغة عند الطبقة "القارئة" بل ويتعداه الى عامة الجمهور العريض الذي وجد نفسه فجأة مسكوناً بسؤال الهوية وتحدّياتها، هذا الجمهور الذي يشعر في أعماقه بأن تاريخه بعد أن كان متناثراً على "هوامش" دفتر التاريخ الرسمي، باتت حتى هذه الهوامش أيضا عرضة للتزوير والانكار والتشكيك في

بديهيات إسلامها وعروبتها، فضلاً عن مفاخرها وأمجادها الأخرى.

ولأن التاريخ الرسمي مرتبط دائماً بمشروع السلطة السياسي، فإن تاريخه يمثل تاريخ "سلطة" في مقابل "تاريخ الناس" .. البشر الذين كانوا يسكنون هذا المدى الجغرافي الضئيل. إذاً، تاريخ "السلطة" في مقابل "تاريخ الناس"، وتاريخ "المحنة" في مقابل تاريخ "الفتح"، وتاريخ "السُنة" في مقابل تاريخ "الشيعة" وهكذا دائماً هناك إرادات تتصارع فيما بينها في كتابة التاريخ لتروي القصة من زاويتها.

التاريخ وإعادة كتابته مسئولية علمية وليست صرعة سياسية، التاريخ حقل علمي وليس "أماني طيبة" و"طموحات وحدوية" هدفها رفع حالة "الاحتقان المذهبي" التي يرزح تحت وطأتها ويترنح بسببها مجتمعنا اليوم، وفي المقابل، فان التاريخ ليس مشروع إدانة لاحد، ولا منشور سياسي للتعبأة الثورية.

على أنه لم يُكتب لتاريخ إمارة خليجية أن يتعرض للتشويه والدس والتحريف بمثل ما تعرض له تاريخ البحرين وإرثها الثقافي من إهمال بعضه يمارس بشكل عفوي جهلاً او تقاعساً عن أداء المسئولية، لكن كثيراً منه منهجيٌ ومقصود بل ومدبّر.

يضم هذا الكتاب في قسمه الأول بعض المقالات ذات الصبغة التاريخية التي كنت قد نشرتها بشكل اسبوعي في صحيفة الوسط البحرينية في الفترة من يونيو ٢٠١٢ حتى ابريل ٢٠١٤، وهي مقالات تلتقي عند نقطة ارتكاز واحدة مجالها التاريخ وموضوعها البحرين. وقد لاقت هذه المقالات حين نشرها

ارتياحاً من القراء الكرام وكثرت المقترحات الحاثة الى جمعها في كتاب يعم نفعه ويسهل الوصول اليه وتداوله.

وبعد تردد وتسويف ومماطلة وتكاسل عزمت على الأخذ بالنصائح المتكررة من أستاذنا الشيخ محمد عيسى المكباس حفظه الله حول ضرورة إعادة نشر هذه النصوص في كتاب يحفظها من الضياع ويتيح للقراء والمهتمين فرصة الاستفادة منها ربما.

لقد ضم القسم الثاني من الكتاب أربعة أبحاث، نشر منهما بحثين (مظاهر الحياة العلميّة في البحرين في العصر الصفويّ) و (قراءة في ″لؤلؤة البحرين″ للشيخ يوسف العصفور) في مجلة الواحة الفصلية التي تعنى بشئون التراث والادب في الخليج العربي، أما موضوع (إضاءات حول مكانة السيدة الزهراءعليها السلام في التراث البحراني) فهو عن ورقة مقدمة لمؤتمر (السيدة فاطمة الزهراء عنوان الوحدة الاسلامية) والذي أقيم في مدينة النجف الاشرف في الفترة من ١ لغاية ٣ مايو/ أيار ٢٠١٣ برعاية السيد مقتدى الصدر. أما البحث المعنون بـ (عاشوراء في الوجدان الاسلامي) فهو عبارة عن ورقة عمل مقدمة لمؤتمر عاشوراء ٨ تحت شعار ″عاشوراء والوحده الاسلامية″ الذي يقيمه بشكل سنوي المجلس الاسلامي العلمائي في البحرين.

في هذه الصفحات القليلة محاولة للكشف عن تاريخ شخصيات وأحداث ومنعطفات لم يقدّر لها أن تتداول في فضاء ثقافي واجتماعي مريح. وبسبب الجو الثقافي والاجتماعي الملبّد بسحب الكراهية والازعاج المذهبي، تصبح المعلومة التاريخية الحقيقية مُدانة ومطاردة، مُتهة ومحاصرة. ولعلنا بهذه المساهمة المتواضعة نساهم في وضع بعض الحقائق المغيبة في موضعها الطبيعي ومكانها اللائق وسط زحام الأكاذيب وضجيج المعلومات المُظلّلة

وصخب الإدعاءات الفارغة؛ فإن وفقنا لأداء هذه المهمة فذلك بتوفيق من الله تعالى وإلا فإن لنا شرف المحاولة وطموح المبتدئين من عشاق المعرفة ومحبي العلوم.

وسام السبع

البحرين

أبو البحر الخطي وزمانه

من الملاحظ أن قامة أدبية بوزن الشيخ جعفر الخطي (ت ١٠٢٨ هـ/ ١٦١٨م) لم تحظ بالتعريف اللائق لا في مناهجنا الدراسية ولا في موروثنا الاجتماعي الذي يفترض أن يكون متحرراً من إكراهات السياسة وأحقادها.

ومن الثابت أن السياسة عندما تدس أنفها في كل شيء، فإنها تسلب المحاسن أو تمنحها طبقاً لمقاييس ضمن شروط بات الجميع يعرفها.

قيمة شعر الخطي بالنسبة للبحرين لا تقتصر على الناحية الفنية، بل تتعداه لتضيف قيمةً تاريخيةً بالغة؛ فقد وردت في شعره أسماء للقرى والمنازل تزيد عن ٢٢ موضعاً، وبعضها غير متداول كثيراً اليوم مثل: فاران (اسم جبل) بربغي، وكتكان، ومري، وماثنا، وأم الشيف...إلخ.

كما تضمن شعره عدداً من الحوادث العامة والمناسبات الاجتماعية وأحوال مجتمع البحرين في عصره، وهي ناحية تنبه لها كثير من دارسي التاريخ العربي الذين وجدوا في الشعر القديم مرآة عاكسة لطبيعة الحياة الاجتماعية السائدة وقتذاك.

عاصر أبو البحر (ت ١٠٢٨ هـ/ ١٦١٨م) فترة انتقالية صعبة في حياة

البحرين السياسة، اتسمت بالكثير من الاضطراب والقلق، فقد عاصر مرحلتين، مرحلة انتهاء الحكم البرتغالي (٩٨٢ - ١٠٣٢ هـ / ١٥٢١-١٦٢٢م)، ومرحلة الحكم الصفوي التي تبدأ في ١٠١١ هـ/ ١٦٠٢م وتستمر حتى ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م تقريباً، والتي تتسم بـ«الغموض والضبابية.

وفي العصر الحديث اضطلعت جزر «البحرين» بدور مهم على صعيد الحياة الفكرية، وأصبحت مركزاً من مراكز العلم، ويذكر أنها منذ القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي غدت هي والديار الهَجَرية محط رجال علماء الإمامية.

وعلق الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ /١٦٩٢م) وهو معاصر للخطي إثر زيارته للبحرين، بأنه غرق في بحرين: «بحر العلم وبحر الأدب». وقال محسن الأمين (ت ١٩٥١): «خرج من البحرين جماعة كثيرون من علماء الشيعة وأفاضلهم قديماً وحديثاً»، وأرّخ لحياة العشرات منهم.

يشير تقي البحارنة في دراسته عن الخطي أن «بعضاً ممن يؤرخون للأدب والشعر حديثاً قد استبعدوا أبا البحر الخطي من قائمة شعراء البحرين وألحقوه بالقطيف، على أساس أنه وُلد فيها ولم تشفع لديهم في ذلك حقيقة كونه عاش في البحرين طيلة حياته، ونظم في حبّها قلائد الشعر، وخالط مجتمعها حتى أصبح واحداً منهم. فبخلوا عليه بالانتساب إلى جزيرة البحرين حباً وانتماءً رغم ولادته في القطيف.

وينبّه إلى أن أكثر شعره قد قاله أثناء وجوده في البحرين أو في خارجها موجّها خطابه لأهله وأصحابه وخلصائه في البحرين. فالقصائد التي

قالها أثناء وجوده في القطيف لا تتعدى الأربع أو الخمس، ربما وهي قطع صغيرة، والقصائد التي وجّهها للقطيف من البحرين لا تتجاوز العدد نفسه تقريباً. أما باقي قصائده من أصل ١٣٣ فكلها نظمت في البحرين أو خارج البحرين موجّهة إلى من فيها.

لقد تفاعل الخطي مع مجتمع البحرين، وشارك أهله فتعلق بهم وتعلقوا به، ووظّف فنّه للإشادة بأشرافهم وتقريظ أخلاقهم، وصار قطباً فاعلاً في هذا المجتمع. وكان له دوره في إثراء الجو الأدبي وتحريك الفضاء الشعري.

أخذ أبو البحر يتردّد على إيران بدءاً من العام ١٠١٠هـ/١٦٠١م، وعلى مدينة شيراز تحديداً، ويبدو أن تلك الزيارة تمّت لغرض سياسي، وكان شاعرنا «أبو حسان» ضمن الوفد الذي رافق القائد الإيراني الذي فتح البحرين وأجلى عنها البرتغاليين.

ويبدو أن الكثير من أعضاء الوفد، وعلى رأسهم أبو البحر، طابت له الإقامة هناك، فاستقر هناك مدة عام أو عامين، وبعث في هذه المرحلة بأرق وأعذب رسائل الحنين إلى أهله، فيما كان يتنقل بين مدن إيران الكبرى وحواضرها العلمية، خراسان، أصفهان وشيراز.

وفي أصفهان، في العام ١٠٦١هـ/١٦٠٧م تحديداً، التقى بالشيخ البهائي، وحضر مجلسه حيث طلب الأخير من «أبي حسان» معارضة قصيدته في مدح صاحب الزمان وأمهله شهراً، إلا أن شاعرنا أبى أن ينظمها في الوقت نفسه، وأنشدها راويته وجامع ديوانه الحسن بن محمد الغنوي في

قصة يذكر تفاصيلها صاحب «أنوار البدرين».

ومن نماذج شعره قوله في وصف اللوز:

ولما اكتسى اللوز الحسين مطارفاً جدائد من أوراقه السندسية
أشار بأغصانٍ كأن فروعها أكفٌّ تصدّت للدعاء ومُدّت

ونراه يمدح من هو رفيع المنزلة محافظ على الود، أو علوي شريف النسب وذلك حسب قوله:

كلا طرفيه حين تنسبه إلى علي وخير المرسلين محمدِ

ولقد اعتاد الخطي أن يراسل أهله في البحرين بقصائد يبعثها إليهم من شيراز وغيرها من البلدان التي كان يتنقل إليها، وكان يبعث بخطاباته مرفقةً بالقصائد الشعرية ومن ذلك قوله:

فارقتكم فجرعت زقومَ الأسى زاداً وغسّاقَ الدموعِ شرابا
أكذاك كل مفارق أم لم يكن قبلي محبٌّ فارق الأحبابا

إلى أن يقول:

يا هل ترون لنازحٍ قذفت به أيدي البعاد لجدحفص إيابا
لا تحسب البحرين أني بعدها مستوطنٌ داراً ولا أصحابا
ما أصبحت شيراز وهي حبيبة عندي بأبهج من أوال جنابا
ما كنت بالمبتاع دارة سروها يوماً بفاران ولا بمقابا
لكم وإن طال المدى ما رقّ من محض الثناء وطابا

توفي الخطي في شيراز، ودفن هناك عند ضريح السيد أحمد بن

الإمام موسى الكاظم. ولأبي حسان عقب في القطيف، فصاحب الأنوار يذكر أن له ذريةً في قرية «التُوبي» حتى زمنه. ويذكر آخرون أنه ترك ثلاثة أولاد في البحرين وجلّهم علماء وهم الشيخ عبدالله والشيخ أحمد والشيخ حسان.

ولقد قدّم الأستاذ تقي محمد البحارنة دراسةً مفيدةً جداً لشعر الخطي وحياته ضمّنها كتابه الرائق «أحاديث وسير»، كما حظي ديوان الخطي مؤخراً بدراسة وتحقيق وشرح في عملين، الأول صدر الديوان في طبعتين محققتين، الأولى صدرت عن مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، قدّمها الأكاديميان أنيسة أحمد المنصور وعبدالجليل منصور العريض (٢٠٠٢)، والعمل الثاني جاء بجهد استثنائي للباحث القطيفي عدنان السيد محمد العوامي (٢٠٠٥) الذي بذل جهداً كبيراً في إخراج ديوان الخطي في جزئين بشكل يليق بمكانة الخطي الأدبية ويبين موقعه من بين شعراء عصره.

السيد علي الوداعي سيرة السماحة

ظل السيد علي بن سيد يوسف الوداعي (١٨٦٧ – ١٩٥٥م) بعيداً عن الأضواء طيلة حياته العريضة التي ناهزت الـ ٨٨ عاماً، وقد أعرض عن الدنيا عندما أقبلت عليه، زاهداً في المناصب ومواقع الصدارة، منصرفاً إلى العلم والنشاط التبليغي والديني.

أخذ السيد علي بن السيد يوسف الوداعي مقدمات العلوم في البحرين، وهاجر بعدها إلى النجف الأشرف وحضر بحوث الخارج على كبار علمائها، ومن أبرز أساتذته السيد ناصر بن السيد هاشم الاحسائي (ت ١٩٣٩)، والشيخ محسن الجواهري (ت ١٩٣٦).

ومن زملائه في الدراسة الشيخ عبدالله محمد صالح آل طعان (ت ١٩٦١) والشيخ حسين بن علي البلادي القديحي، ورجع إلى البحرين وأقام في رأس الرمان إماماً وواعظاً، وكان ذا نفوذ اجتماعي كبير. وكانت له مراسلات مع المرجع الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت ١٩٥٤) حول بعض قضايا الأمة والمجتمع.

ليس في حوزة آل الوداعي ووثائقهم المحفوظة ما يشير إلى وجود

شجرة نسب للعائلة التي قيل أنها ضاعت منذ سنوات مديدة، على ما نقل عن عميد العائلة وعلمها السيد علي بن السيد يوسف الوداعي، ولعل كون أسرة آل الوداعي من غير الأسر العلمية ذات التاريخ العلمي العريق كأسرتي «آل عصفور» و»آل الغريفي» اللتين يرجع تاريخهما العلمي إلى عدة قرون، قد ساهم في ضياع شجرة نسب الأسرة، فمن المعلوم أن وجود سلسلة طويلة من العلماء في الأسرة – أي أسرة - يُسهّل من عملية حفظ تاريخها سواء عبر تناقل المرويات الشفهية عبر الأجيال أو بواسطة التوثيق الكتابي لشجرة النسب؛ فقد كان السيد علي الوداعي أول شخصية علمية في الأسرة في مطلع القرن الماضي، ولم يُعرف عن تاريخ الأسرة أنها أنجبت قبل ذلك أي شخصية علمية وإن كان أفرادها من السادة الأشراف المعروفين في المجتمع البحراني ومنطقة الخليج بالورع والتدين.

غير أن سيد فضل محمد الوداعي يؤكد أنه ومن خلال ما توفر في يده من وثائق قديمة تضمنتها مكتبة جده السيد علي الوداعي أمكن التوصل إلى أن السلسلة النسبية للسادة الوداعيين تنتهي إلى سيد يوسف بن سيد محمد بن سيد يوسف بن سيد محمد الوداعي الموسوي الحسيني الارباري الجدّحاجّي الجدحفصي.

ويؤكد السيد فضل أن السلسة النسبية للعائلة تنقصها حلقة مفقودة مُشكلة من ثلاثة أو أربعة أجداد، وهذه الحلقة هي الحلقة التي استوطنت منطقة «جد الحاج»، وهي فترة لا نعرف عن رجالات العائلة فيها أي معلومات وافية، غير أن المؤكد أن العائلة تتصل بالسيد عبدالرؤوف

الجدحفصي بن السيد حسين المجتهد الكبير المعروف والـذي ينتهـي نـسبه إلى الشريف المرتضى شقيق الشريف الرضي.

وبحسب ما ينقـل الـسيد فـضل أن «آل الـوداعي وآل كامـل يلتقـون بأكثر مـن ٣٠٠ عـام عنـد جـدهم الأكبـر الـسيد عبـدالرؤوف الجدحفـصي، لذلك فآل الوداعي وآل كامل «أبناء عمومة». ولقد كان السيد عبـدالرؤوف بن الـسيد حـسين الجدحفـصي شـيخ الإسـلام وقاضـي القـضاة إبـان كانـت البحرين خاضعة لهرمز (بلاد فارس) وكان الفقهاء يُعينون مـن قبـل حكومـة هرمز.

وعلى رغم غياب معلومات تاريخية دقيقة عن الفترة التي أقامت فيهـا العائلة في قرية «جد الحاج» فترة تصل إلى نحو ٨٠ سـنة، إلا أن المعلومـات المتاحة من كبار السن المعمّرين تشير إلى أن الجد الـسيد يوسـف بـن سـيد محمد الوداعي هاجر من «جد الحاج» مع عائلته إلى قرية باربار تاركاً وراءه كل أملاكه بسبب قسوة الظروف. وفيما يختـار الـسيد يوسـف الهجـرة إلـى قرية باربار؛ يختار شقيقه مغادرة البلاد متجهـاً إلـى البـصرة بـالعراق علـى مـا يؤكد السيد فضل.

ارتبط لقب «الوداعي» بالعائلـة علـى الأرجـح بعـد جـد العائلـة الـسيد عبدالرؤوف الجدحفصي الثاني، وثمة اعتقاد بـأن الـسيد عبـدالرؤوف نفـسه هو من لقب أولاده الثلاثة: أحدهم «الكامل»، والثاني «الـوداعي» والثالـث لا يزال مجهولاً. إلا أن مثل هذه الروايـات تعوزهـا الأدلـة القطعيـة التـي تـسند

وجاهتها. ولفظ الوداعي يأتي من الوداعة أي الهدوء والسكينة.

انخرط السيد الوداعي في العمل التبليغي منذ نعومة أظفاره في مجتمع بسيط، وكان يتنقل على ظهر دابته قبل ظهور السيارات ويقصد قرى البلاد، وكانت زياراته تمتد لأيام وربما أسابيع. ويبدو أن للسيد علي الوداعي مكانة كبيرة بين علماء عصره، حيث كان موصوفاً بالورع والتقوى، حتى أوصى الشيخ محسن بن محمد العريبي (ت ١٩٤٤)، وهو من أساتذة الشيخ إبراهيم المبارك، أن يصلي عليه السيد علي بعد موته. كما كان له دوره الارشادي والتوجيهي في المجتمع، وكان يكتب الأوقاف بيده، ومن ضمن الوثائق التي تملكها إدارة الأوقاف الجعفرية اليوم، وقفيتان شرعيتان كتبهما السيد علي الوداعي بخطه، إحداهما وقف «مأتم الأدرج» بالمنامة.

ويشيد كل من محمد علي التاجر والشيخ إبراهيم المبارك بالسيد علي الوداعي بما يستحق، فهو «العالم العامل، الفقيه الفاضل، الورع الصالح التقي.«

سألت سماحة السيد جواد الوداعي حول موقف جدّه السيد علي الوداعي من تولّي القضاء فقال لي: «لقد حاول الشيخ عبدالله محمد صالح الطعان أن يقنع صديقه السيد علي الوداعي بتولي القضاء غير مرة، إلا أن أياً من هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح، وذات يوم قائظ استمر الشيخ عبدالله في محاولة إقناعه بتسلم القضاء ولو لبعض الوقت لحين توفر البديل، إلا أن جهود الشيخ الطعان باءت بالفشل، فقد كان السيد علي متمسكاً

بموقفه الرافض لتولي المنصب القضائي، وكان يقول: «لم أنفع أمي وأبي في حياتهم، فأرجو أن لا ينالهم مني ما يسوؤهم وهم في جوار الله».

لم يعرف عن السيد علي الوداعي أنه ترك مصنفات علمية، لكن مكتبة حفيده السيد جواد الوداعي تضم ضمن مجموعة الكتب الخطية نسخة خطية من الكتاب الفقهي المعروف (معتمد السائل) للفقيه المحدث الشيخ عبدالله بن عباس الستري البحراني (ت ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م).

وقد جاء في خاتمة الكتاب المستنسخ بخط السيد علي الوداعي النص التالي: «قلمه نوّر الله تربته وأعلا في العليين رتبته (...) الراجي لعفو ربه السبحاني علي بن يوسف بن محمد بن يوسف الوداعي الموسوي البحراني البارباري ولادة ومنشأ والرأس الرماني مسكناً عفى الله عنه وعن والديه..".

انتهى السيد الوداعي من نسخ الكتاب في ١١ شوال ١٣٣٩هـ (١٣ سبتمبر ١٩١٣)، ومن الغريب أن يكون شروع السيد الوداعي في نسخ كتاب معتمد السائل وله من العمر ٤٦ عاماً، أي قبل وفاته بـ ٤٥ عاماً، ومن غير المستبعد عدم اضطلاعه بنسخ كتب أخرى غير كتاب المعتمد.

وفي أواخر أيام حياته، أقعده المرض، حتى توفي في ١٠ ربيع الأول ١٣٧٥هـ/ ٢٥ ديسمبر ١٩٥٥. وعقّب السيد علي الوداعي من الأبناء واحداً هو السيد يوسف، وكان «كأبيه عزوفاً عن مغريات الحياة، واشتهر باطلاعه الواسع على الأنساب». ومن البنات أنجب السيد الوداعي السيدة «حسينية» والسيدة «هاشمية» وهي أم سماحة العلامة السيد جواد الوداعي.

الشيخ الحلي ثمانية عشر عاماً بحرينية

ثمانية عشر عاماً كان الفقيه النجفي المعروف الشيخ عبدالحسين الحلي (ت ١٩٥٦) قد عاشها في البحرين قاضياً للتمييز الشرعي الجعفري في المحاكم الشرعية بطلب من الحكومة وبترشيح من المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم (ت ١٩٧٠)، ولكن كيف عاش هذا الشاعر الفذ في البحرين؟ وكيف كانت صلاته بشعراء وأدباء البحرين؟ وما النشاطات التي قام بها خلال القسم الثاني من حياته الطويلة في البحرين؟

كانت للشيخ الحلي مواقف وطنية كثيرة منها اشتراكه في الثورة العراقية الكبرى والنداء الذي وُجّه لإعلان الجهاد المقدس حيث اشترك فعلاً في حمل السلاح مع المقاتلين والذود عن حمى الوطن، وستظل قصيدته التي تحمل عنوان «الحنين إلى الوطن» شاهداً على ذلك. وهي القصيدة التي نالت الجائزة الأولى في مسابقة إذاعة لندن الشعرية أوائل الأربعينيات.

حفلت حياة الحلي منذ قدومه إلى البحرين العام ١٩٣٦ وحتى يوم رحيله العام ١٩٥٦، بالكثير من المبادرات والجهود، فعمل على وضع الأسس القويمة للتمييز الشرعي أو فتح مدرسة لتعليم الفقه، تخرّج منها عددٌ

من علماء البحرين الفضلاء، منهم الخطيب السيد محمد صالح السيد عدنان الموسوي والسيد علي بن إبراهيم كمال الدين، والشيخ محمد علي بن زين الدين الدرازي.

ومن تلك الجهود مساهماته الأدبية في نادي العروبة، وحضوره المستمر لمواسم الأدب والثقافة والشعر ، بالإضافة إلى خطاباته ومساهماته بعد ذلك في مجلة «صوت البحرين» وإذاعة لندن العربية وغير ذلك.

وقد استغربت خلو الكتاب الجميل الذي أصدرته جمعية العاصمة للثقافة الإسلامية قبل أسابيع (ملامح: وجوه المنامة) من ذكرٍ لشخصية الشيخ الحلي الذي ملأ حياة المنامة صخباً ونشاطاً وعلماً وشعراً، وهو وإن كان عراقي المولد، إلا أن دوره في النهضة الثقافية والأدبية في البحرين غير منكور.

كما إن مجالسه في منزله كانت عامرةً بالزوار من علماء وأدباء ورجال الفكر كإبراهيم العريض ومحمد دويغر وحسن الجشي، وأساتذة المدارس حيث كان يأنس بمجالسة الشباب المتعلّم، بالإضافة إلى مشايخ العلم وطلابه.

وقد نقل لي سماحة السيد جواد الوداعي أنهم كانوا يتردّدون على مجلس الشيخ عبدالحسين الحلي (قاضي محكمة التمييز) كل جمعة من كل أسبوع في داره بالمنامة، وأكد أن الفضل يرجع للحلي في تنظيم أمور القضاء وحفظ «هيبة القضاء» والنأي به عن الأهواء الاجتماعية وإيقاف

مسلسل «العزل» الذي كان فاشياً قبل نزول الشيخ الحلي إلى البحرين، كما حدث مع عزل الشيخ خلف العصفور والشيخ عبدالله الطعان والشيخ علي بن جعفر الستري التغلبي.

ولقد نسج الحلي مع أقطاب الحركة الثقافية والأدبية في البحرين روابط صداقة عميقة، فقد كتب في جريدة «البحرين» لصاحبها عبدالله الزايد (ت ١٩٤٥) مقالةً فيها فتوى عن «إباحة الغوص في رمضان»، كما كان الحلي يراسل مجلة «صوت البحرين» التي كان معجباً بها وقريباً من أعضاء التحرير فيها، ونشر بعض قصائده فيها.

وقد بسط تقي محمد البحارنة (زوج ابنة الشيخ الحلي) في محاضرةٍ له ألقيت في جمعية التاريخ بمملكة البحرين في أبريل/ نيسان ٢٠٠٣، تحدّث فيها بإفاضة عن كتابات ومخطوطات الشيخ عبد الحسين الحلي، ضمنها كتابه الشيق «أحاديث وسير». ومما أشار له البحارنة في مقالته المطوّلة عن الحلي؛ أن للحلي أبحاثاً ومقالات عديدة نشرتها الصحف والمجلات العربية، فقد كان له ظهور متميّز على صفحات المجلات في العراق خصوصاً، كالبحث الذي نشرته مجلة «الاعتدال» النجفية الصادرة في يوليو/ تموز ١٩٣٥، يصحّح فيها أخطاء تاريخية وردت في محاضرة للمستشرق الفرنسي ماسنيون عن الكوفة، والتي نشر خلاصتها الدكتور زكي مبارك في مجلة «الحديث» الحلبية، فيما يتعلق بتمصير الكوفة وأنساب العرب.

يذكر تقي البحارنة أن عدد العناوين التي تركها الحلي كمخطوطات بلغت ١٥ عنواناً بعضها في حكم المفقود، ولكن يبقى تحقيقه لنسخة مشوّهة من ديوان «مهيار الديلمي» وإكمال ما نقص منها وتصحيح على ما وقع فيها من أغلاط محل تقدير وإشادة من الباحثين. وقد وصف الأديب جعفر الخليلي صبر الحلي على معاناته في تحقيق هذا الديوان قائلاً: «إن ملكاته في التحقيق والبحث كانت موضوع إعجاب الجميع، بحيث عرف أكبر العلماء والمؤلفين من معارفه قيامهم بعرض مؤلفاتهم عليه قبل دفعها للطبع سواءً كان موضوعها في علم الفقه، أو علم الأصول أو في التاريخ الإسلامي أو علم الرجال، وقد ورد في الأخبار من هذا القبيل بشهادة من أقرباء المجتهد والمرجع الديني السيد محسن الحكيم أن الشيخ الحلي كان مكلّفاً بإعداد الرسالة العلمية للسيد محسن وكتابتها نيابةً عن السيد محسن الحكيم.

ومخطوطات الحلي التي كتبها بيده وربما قرأها شفاهاً على تلامذته، معظمها في الفقه الشرعي، إذا استثنينا مخطوطة ديوان الشعر وبعض الأبحاث الاجتماعية والأدبية. وللشيخ الحلي مؤلفات ومصنفات كثيرة منها ما هو موجود ومنها ما فُقد أو تفرّق، وكلها مخطوطة لم تطبع. وسبب عدم نشر كتب الحلي قدومه إلى البحرين وتركها لدى من لم يعرف لها مقداراً فتلف منها وتبعثر الشيء الكثير.

وقد كتب الحلي ترجمة لحياته بخط يده، وكما يؤكد أكبر أولاد الشيخ في البحرين (محمد هادي الحلي) أنه أرسل ديوان والده بخط يد

الشيخ مع ما أرسله من مؤلفات في الفقه الشرعي إلى إخوانه في الحلة بعد أن نقلها بخط يده.

وحين تحدثت مع (أبي أسامة) تقي محمد البحارنة عن الشيخ الحلي، صمت برهةً وقال: «الشيخ الحلي لم يأخذ حقه من التكريم والاهتمام الذي يستحقه كفقيه لامع». لقد انغمس الحلي في الحياة الاجتماعية في البحرين، وأسس له أسرةً فتزوّج وأعقب ولدين (محمد هادي وفائق) وثلاث بنات، تزوّجن بعد وفاة والدهن، فواحدة اقترنت بالأستاذ البحارنة، وأخرى بالوزير الأسبق ماجد الجشي، والأخيرة بمستشار رئيس الوزراء محمّد المطوع.

توفي الشيخ عبد الحسين في منزله بالمنامة إثر مرض عضال، وتم تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير في مقبرة المنامة في يوم ١٥ مارس/ آذار ١٩٥٦ بعد حياة حافلة بالعلم والأدب والشعر والكتب والطموح العالي. رحل الحلّي بصمتٍ لكن حياته لازالت دفتراً لم تُجمع أوراقه المبعثرة بعد.

الحويزي البحراني كاتب الدولة الآفراسيابية

قبل أسبوعين*، أهداني الصديق المحقّق أحمد الحلي من العراق كتاباً يحمل عنوان «تأريخ الدولة الآفراسيابية». الكتاب استوقفني موضوعه ومؤلفه، وفتح عليّ جانباً كان مجهولاً، وعلى كثرة اهتمامي بملاحقة كل ما يصدر من وعن البحرين من كتب ودراسات، إلا أن هذه الهدية من صديقي «النجفي» كانت إضافةً جديدةً على وعيي التاريخي الذي يتشكل بكثير من الدهشة والانبهار.

الكتاب دراسةٌ وتحقيقٌ لمخطوطة رقدت ما يزيد عن ٣٥٠ عاماً في مخازن الكتب والقماطر العراقية القديمة، ووجدت أخيراً من ينفض عنها غبار الإهمال ويبث فيها الحياة، فقد قام الباحث سعدون جاسم محمد الجزائري بدراسة وتحقيق هذا المخطوط المهم وقدّمه للقارئ، ولكن من هو مؤلف هذا الكتاب؟ وما قصة الكتاب وموضوعه؟

المؤلف هو العلامة الأديب الشيخ عبدعلي بن رحمة الحويزي البحراني الشهير بـ«ابن رحمة الحويزي» (ت ١٦٦٤م/ ١٠٧٥هـ)، أحد

* نشرت هذه المقالة في صحيفة الوسط البحرينية، الثلثاء ٠٣ ديسمبر ٢٠١٣م

جهابذة العلم والأدب في الحويزة عاصمة الدولة المشعشعية التي ظهرت في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي /التاسع الهجري، واستمر حكمها قرابة ثلاثة قرون ونصف القرن.

وشخصية ابن رحمة تمثل قصة من قصص النجاح، وتجسّد الطموح العالي والتوثب المغامر لواحد من أهل البحرين في القرن السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري، الذي كان مترعاً بنبوغ عشرات العلماء والمفكّرين والأدباء والشعراء، الذين تباروا في إحياء تراث أمتهم العريق، ولاسيما في البصرة والجزائر (في جنوب العراق) والحويزة.

تضمن كتاب الحويزي البحراني معلومات مهمة شهدتها هذه المنطقة، وهو مصدرٌ مهمٌ جداً للمعنيين بالتاريخ والسير، لأنه يؤرّخ حقبةً لم يتطرق إليها غيره في كثير من أحداثها في نواحي الحياة المختلفة.

اختلف المؤرخون في اسم وألقاب بن رحمة الحويزي، فقال اسماعيل باشا البغدادي (ت ١٩٢٠): «اسمه عبدالعلي بن ناصر بن رحمة البحراني الحويزي»؛ وقال البلادي البحراني (ت ١٩٢٢): "الشيخ عبدعلي بن ناصر بن رحمة البحراني ساكن البصرة"؛ وذكره عباس العزاوي (ت ١٩٧١) بقوله: "أصله من البحرين، سكن الحويزة، ومدح أمراءها، كما أقام في البصرة، ومدح آل آفراسياب".

لم تذكر المصادر سنة ولادته، ولا تُعرف البدايات الأولى من حياته ومسقط رأسه؛ ولكن محقّق الكتاب يستظهر أن ولادته كانت في بداية القرن السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري.

قضى الطفولة والشباب في الحويزة وتعلّم في مدارسها، وتتلمذ على أساتذتها وشيوخها، ووثّق صلته بأمرائها، ولاسيما الأمير خلف بن مطلب المشعشعي (ت ١٦٦٣م/ ١٠٧٤هـ).

ويبدو من بعض الإشارات في مؤلفه، أنه كان ميسور الحال، وبحكم ملازمته للأمير آفراسياب باشا وولده الأمير علي باشا؛ كانت علاقته الاجتماعية واسعة؛ فهو يجالس العلماء والأمراء والأعيان وعليّة القوم، وكانت حياته موزّعةً بين الحويزة والبصرة.

درس ابن رحمة على يد الشيخ البهائي (ت ١٦٢٢م/ ١٠٣١ هـ)، والشيخ عبداللطيف بن أبي جامع الحارثي الهمداني (ت ١٦٤٠م/ ١٠٥٠هـ)، الذي تصدّى للتدريس، وتخرّج عليه عددٌ من الأعلام، وانتقل إلى الحويزة وتقلّد منصب شيخ الإسلام في الدولة المشعشعية، وامتدت مشيخته إلى تستر (شوشتر) التي كانت يومئذٍ تابعةً للدولة المشعشعية.

نشأ ابن رحمة في مقتبل عمره في الحويزة عاصمة الدول المشعشعية، وأمضى بقية حياته في البصرة، عاصمة الدولة الأفراسيابية، المجاورة للدولة المشعشعية، اللتين شهدتا أحداثاً سياسيةً متزامنة، فاستعرض الأحوال السياسية في البصرة قبل هذه الدولة، والتي مهّدت لنشوئها.

كان تاريخ البصرة الثقافي في زمن بن رحمة وثيق الصلة بما يجري في العراق الذي خضع لغزو مغولي، وتعاقبت عليه الحكومات الأجنبية، وكثرت على أرضه الحروب والكوارث والأمراض.

أمضى بن رحمة الشطر الأول من عمره في الحويزة، ينهل من منابعها العلمية ويتعلم من شيوخها ويجالس أساتذتها ويرتاد مدارسها ومكتباتها، ثم وفي العقد الرابع من عمره توجّه نحو البصرة، لينخرط في الحياة الثقافية ويتصل بأمراء الدولة المشعشية، الذين أولوا العلم والأدب عنايةً فائقةً، وفتحوا أبوابهم للمفكرين والشعراء، حيث لم تكن هناك حدود ولا فواصل بين الحويزة والبصرة في المجال الثقافي آنذاك، فأجزلوا لهم العطاء وبالغوا في إكرامهم. وكان بن رحمة أحد من التحق بحاشيتهم، إلى أن أصبح شاعرهم الأثير، حيث استأثر بهذه المنزلة منذ التحاقه حتى وفاته.

وبعد أن نضج تحصيل بن رحمة، ووجد مدن الدولة المشعشعية مزدهرة بالثقافة، حيث كثُر فيها التأليف وزاد عدد العلماء والأدباء، إلا أن التقدير الذي حصل عليه مبدع مثله لم يكن يتناسب مع موهبته، فجاب أرض العراق والتقى عدداً من الوجهاء وزعماء القبائل، وعبّر عن هذه الحالة شعراً فقال:

في كل أرض إن أردت رأيتني ... كالريح إما داخل أو خارجُ

لا يستقر لي المقام فها أنا ... غادٍ الى طلب العلى أو دالجُ

كلِفٌ بضربِ الأرضِ أحسب أنها ... كرةٌ لها أيدي المطي صوالجُ

دخل ابن رحمة بغداد واتصل بأعيانها وأدبائها، كما قصد شبه الجزيرة العربية وجاور مكة المكرمة، وحصلت له مطارحات ومدح أميرها الشريف راشد بعدة قصائد. ولكي يجد ما يرضي طموحه، قصد البصرة (عاصمة الدولة الافراسيابية يومها)، فوجد ترحيباً بالغاً من أمرائها، ولا سيما

ثانيهم (علي باشا بن افراسياب) الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه.

ويبدو أن دخوله ضمن حاشية الأمير علي باشا، مثل المرحلة المهمة من حياته، فألّف معظم مصنفاته، وبذل جهوداً مثمرةً لرفع المستوى الثقافي لبناء الدولة بتشجيع من أمرائها. ويذكر بن معصوم (ت ١٧٠٨م/ ١١٢٠هـ) أنه «اتصل بحكام البصرة وولاتها، فوصلته بأسنى أفضالها وأهنأ صلاتها، وهبت عليه من قبلهم رخاء الإقبال وعاش في كنفهم بين نضرة العيش ورخاء البال.

قال عنه الشيخ فتح الله الكعبي: «كان نادرة زمانه في جميع العلوم، وله من سرعة الخاطر ما لا يوجد لغيره إلا ما يحكى عن البديع الهمداني".

ويبدو أن تألقه في مجتمع البصرة، واستئثاره بمنصب كاتب الدولة الافراسيابية وشاعرها، وتمتعه بحالة الاستقرار ونعومة العيش، أتاح له فرصاً مهّدت له التفرغ للتأليف والكتابة والتعليم، وقد كان قبل وصوله إلى البصرة يتبرّم من عيشه ويشكو مصائب الزمان وتكالب الأحزان.

تركت لنا عبقرية بن رحمة الحويزي وموسوعيته، العديد من المؤلفات تزيد عن الثلاثين وصل إلينا أغلبها؛ فقد ألّف في الفقه والحديث والتفسير والمنطق والأصول والنحو وعلم الكلام والفلك والطب والفلسفة والبلاغة والموسيقى والتصوف والآداب، شعراً ونثراً. أما عن شاعريته، فهو من البارزين من شعراء عصره وله ديوان شعر وكتابان شعريان آخران، وكتابه «قطر الغمام في شرح كلام الملوك، ملوك الكلام» يحوي الكثير من قصائده المتناثرة في مؤلفاته النثرية والمصادر التي ترجمت له.

إن الأمة التي لا تقرأ تموت قبل أوانها، وفي وقت ما، في مكانٍ ما بعيداً عن هذه الأرض، كان البحرينيون يزرعون أسباب الحياة... والحقيقة.

مسجد الخميس ذاكرة تحت ائلة السطو

خلال الايام القليلة الماضية* كثر الحديث عن مسجد الخميس أو «المشهد ذي المنارتين»، وراحت بعض الاقلام التي تتعامل مع حقائق التاريخ من منطلق المغالبة السياسية تروج لبعض المغالطات التاريخية ساعيةً الى استبدال ذاكرة بأخرى «جديدة كلياً»، بحثاً عن أدلة لجذور أعمق في تربة لا تملك عليه تاريخاً عريقاً ولا ماضياً بعيداً.

مناسبة هذا الجدل الناشئ حول هذا المعلم العريق، تصريح لرئيس الأوقاف الجعفرية الشيخ محسن العصفور، بشأن رفع الأذان قريباً في مسجد الخميس والصلاة فيه، تلاه تصريح لوزيرة الثقافة ردّت فيه على التصريح السابق، بأنّ الحفاظ على المكونات التاريخية والإنسانية لمسجد الخميس، لن يتضمن إحياء «الطقوس الدينية» من قلب المكان الأثري.

مسجد الخميس أبرز المعالم التاريخية الشهيرة في البحرين، وتاريخ بنائه قديم، وهو لم يشيّد في فترة واحدة بل على فترات، وقد تغيرت أدواره عبر التاريخ، ففي فترة من الفترات بني ليكون مركزاً دينياً وسياسياً حيث

---

*نشرت المقالة في صحيفة الوسط، الثلثاء ٢٤ سبتمبر ٢٠١٣م.

انطلقت منه ثورة ضد القرامطة لم تهدأ إلا بزوالهم من البحرين. ثم تمر السنوات ويعاد بناء المسجد ليتحول بعدها لما يشبه مقر حكم ومدرسة تعليمية تزايدت أهميته على الخصوص في فترة الدولة العيونية.

الحي الذي يوجد فيه هذا المسجد يعرف باسم الخميس نسبة الى السوق التي كانت تقام هناك كل خميس حتى عهد ليس ببعيد، ومن خلال المراجع والنقوشات التي عثر عليها في مسجد الخميس فإنه لا يعلم لهذا المسجد قبل العام ١٥٨٢م أي اسم. وفي عام ١٥٨٢م أشير للمسجد في احد النقوشات باسم «المشهد الشريف ذي المنارتين» وذكر في مخطوط ابي البحر الخطي (ت ١٦١٨م) باسم «المشهد ذي المنارتين» وحتى المؤرخ النبهاني أشار له في بداية القرن العشرين باسم «المشهد» وعرف ايضا بالمسجد ذي المنارتين، ومما لاشك فيه أن اسم «مشهد» له دلالات تاريخية مهمة لمن يقرأ التاريخ بعينين مفتوحتين وعقل منصف.

وقد ورد ذكر المسجد في العديد من المصادر التاريخية، لكن أول من صرح بوجود جامع آهل في جزيرة اوال هو الادريسي (ت ١٢٣٣م) في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) أما ثاني أقدم ذكر له فقد ورد في مخطوط ديوان ابن مقرب العيوني (ت ١٢٣٣م) حيث ذكر في أكثر من موضع باسم «المشهد ذي المنارتين».

كما ذكر المسجد في تقارير الرحالة والمستكشفين الذين زاروا البحرين في أوائل القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، منهم (ثيودرت بنت) الذي أعطى في العام ١٨٨٩م وصفاً للمسجد بقوله: «يمثل هذا

المسجد معلماً للسفن التي تقترب من السواحل المنخفضة لهذه الجزر. وعلى جدران المسجد تمتد نقوش جميلة كتبت بخط كوفي واضح ومن حقيقة اقتران اسم (الإمام) علي باسم النبي يمكننا استنتاج أنه مسجد شيعي ربما بني في إحدى فترات السيطرة الفارسية». واللافت أن عبدالرحمن مسامح في ترجمته لتقرير بنت التي نشرها عام ٢٠٠١ في البحرين الثقافية يطمس حقيقة هوية المسجد الشيعية!وفي عام ١٩١٤ وصل الشيخ النبهاني الى البحرين وزار البلاد القديم فوصف «أطلال المشهد» لكنه قال انه عجز عن قراءة النقوش الموجودة في المسجد وبعدها ساق استنتاجه الخاطئ «وهذا المسجد والمدرسة مع المنارتين الجميع من بناء عمر بن عبدالعزيز الأموي»! وهو كلام عاري عن الصحة وقد رد على هذا الزعم ناصر الخيري (ت ١٩٢٥م) فقال في (قلائد النحرين): «وأشهرها المشهد الشريف ذو المنارتين المبني في عصر الوزير الشهير محمود في سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) وقد ذهب بعضهم (أي النبهاني) الى انه مبني زمن عمر بن عبدالعزيز فذاك زعم باطل لا دليل عليه ولا برهان وتاريخ بناء هذا المشهد صريح منقوش على صخرة كبيرة بأحرف واضحة على واجهة المحراب الداخلي ولاتزال باقية حيث هي لم تمس بسوء».

أما النقوشات التي زعم النبهاني أنه عجر عن قراءتها توثق بناء كل جزء من أجزاء المسجد بالتواريخ وأسماء البناة والمرممين وتعكس بجلاء هوية المسجد المذهبية بما فيها نقش أسماء الأئمة الاثني عشر على «حجر الائمة» الذي يتضمن ستة سطور بالخط الكوفي المورق مبني على قاعدة

المئذنة الغربية وهي حقائق يريد البعض عبثاً تزييفها.

باحث متخصص آخر زار المسجد في نفس العام ١٩١٤ وهو (إيرنست دياز) بدافع الفضول العلمي وقام بالتقاط صور للمسجد وللنقوشات الموجودة فيه وعدّ البحث الذي كتبه مرجعا اساسيا يرجع اليه الباحثون في الكشف عن تاريخ المسجد ويكفي عنوان بحث دياز الذي كتبه بالالمانية لمعرفة هوية المسجد، وعنوانه: **Ernst Diez (١٩٢٥) "Eine Schiitische moscheeruine auf der, insel Bahrain" in Jahrbuch der Asiatischen Kunst, t. II**
وترجمة العنوان «أطلال مسجد شيعي في جزيرة البحرين».

وقد جاء في ديوان أبوالبحر الخطي تعقيباً على قصيدة رثى فيها شيخ الإسلام عبدالرؤوف بن حسين الموسوي ما نصه: «ثم قرئت العهود والتقليدات المقررة من قبل هرموز بتقليد القضاء ابنه الشريف أبا عبدالله جعفر (قدس سره) وولاية الأوقاف، وفوضت إليه الأمور الحسبية، وأفرغت عليه الخلع من الديوان، وذلك بالمشهد ذي المنارتين من أوال بالبحرين ثالث عشر شهر صفر للسنة السادسة بعد الالف». أي قبل نحو ٤٢٠ عاما!

ما يجري الآن هو محاولة دؤوبة لتزييف الحقائق وخلق «إرشيف مزور» عن تاريخ البحرين الحقيقي الذي تحكيه شواهد القبور والساجات منذ مئات السنين، وترويه ذاكرة الأجداد وتحتفظ بجزء قليل منه الكتب والمصنفات العلمية التي رصدت أوجه المحنة وقصّت جزءا يسيرا من الحكاية.

إن مشهد الخميس كان الجامع الرئيس في عصر إنشائه حتى العصور

المتأخرة، ومن العلماء الذين أقاموا الجمعة فيه الشيخ سليمان بن الشيخ عبدالله بن الشيخ حسين العصفور (ت بعد ١٨٥٥م) من أعلام القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. وكان آخر من أقام الجمعة فيه الشيخ محمد بن محمد العصفور (ت ١٨٧١م) الذي توفي قبل أن يعين الشيخ قاسم المهزع (ت ١٩٤١) قاضياً لمدينة المنامة بسنتين.

عندما يتم تجاهل مئات الشواهد والنقوش الأثرية والتاريخية بما فيها سجل السيدعدنان الموسوي التي لاتزال شاهدة على هوية هذا المعلم العريق، ويتم اللجوء الى «وقفيات» نخيل في منطقة البلاد القديم والبرهامة أوقفت لصالح المسجد بدافع التسامح المذهبي الذي كانت البحرين تعيشه في عصرها الزاهي تلك (قدم وثائقها الشيخ المهزع للوقف السني)؛ فإننا في نكبة وتقهقر اجتماعي مخزي، وسائل الصراع فيه وأدواته تتعدى تصفية الخصم اليوم بمنطق المغالبة السياسية وبوحي من مؤثراتها، بل تتعقب تاريخه بهدف التصفية والمحو.

الشاعر الأديب مغامس بن داغر

بين البحرين والحلة

نحن أمام قامة شعرية وأدبية على جانب كبير من الأهمية. شاعر مغمور، وبقدر الحضور الغامض لشخصيته في كتب الأدب والتراجم؛ بقدر أهميته منظوراً إليه من زاوية نتاجه الشعري المدهش. إنه الشاعر مغامس بن داغر الحلي البحراني المتوفى حوالي سنة ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٦م الذي دخلت مدينة الحلة بالعراق والبحرين (أوال) منذ القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في معركة ضارية لـ «منحه الجنسية» !

قال عنه علي الخاقاني في «شعراء الحلة»: «شاعر بارع وأديب كبير، جهلت ذكره كتب التراجم في القرون الوسطى إلى أواخر القرن العاشر الهجري ولا نعلم سر هذا الإغفال مع أنه من الأدباء الذين يستحقون الثناء والإعجاب، غير أن طائفةً من رجال التأليف ممن تقدّموا علينا ذكروه ذكراً مقتضباً دون أن نقف على تمام سيرته».

ويذكره الشيخ محمد علي العصفور في كتابه «الذخائر في جغرافيا البنادر»، وهو ما نقل عنه السيد حسن الأمين في مستدركات الأعيان الكثير، ومنه أخذ سالم النويدري في «أعلام الثقافة»، إلا أن العصفور قد أسماه «الشيخ مغامس الحجري البحراني»، فقال في ترجمته ما نصّه: «وهو أحد

الأدباء وواحد النجباء، جمع مع الأدب علوماً كثيرة وله ديوان معروف مشتمل على أشعاره البديعة وعباراته المنيعة». ثم ذكر نموذجاً من شعره.

مغامس بن داغر هذا هو مهاجر إلى الحلة من إحدى العشائر العربية القاطنة ضواحي الحلة، ويعبّر عنه الشيخ عبدالوهاب بن الشيخ محمد علي الطريحي (أخو فخر الدين صاحب المجمع والمنتخب) في مؤلف له كتبه بالحلة ١٠٧٦ هـ/ ١٦٦٥م، وهو في المراثي والمدائح لأهل البيت: بـ «البحراني»، وعلى هذا يكون أصله من البحرين وهاجر إلى الحلة في عهد الشيخ أحمد بن فهد الحلي (ت ٨٤١ هـ / ١٤٣٧م) لطلب المعرفة والأدب.

وقد استنتج صاحب «الغدير» أنه خطيب أديب وابن خطيب من قوله في إحدى القصائد النبوية:

فتارةً أنظم الأشعار ممتدحاً وتارةً أنثر الأقوال في الخطب

في مدحكم فكري وعلمني المديح وأوصاني بذاك أبي

ويتصف شعره بطول النفس وبداعة النظام وحلاوة الانسجام، قال الشيخ محمد علي اليعقوبي (ت ١٩٦٥): «ويوجد في المجاميع القديمة المخطوطة وبعض المطبوعات كالمنتخب والتحفة الناصرية شيء كثير مما قاله في الأئمة، وقد جمع منها العالم الأديب محمد طاهر السماوي ديواناً باسم المترجم يربو على ١٣٥٠ بيتاً عدا الذي عاثت به أيدي الشتات».

بيد أنه لم يتعرض في أوائل تلك القصائد لغزل أو تشبيب أو نعت للطلول والبكاء على الدمن ومنازل الأحباب كعادة غيره، مما يدل على أن الرجل كان يتورع عن ذكر ذلك كله، وإنما يستعمل قصائده بذكر الشيب

ونعي الشباب والوعظ والتحذير من الدنيا ومكرِها، وتصرف الليالي وغدرها، ومما قاله:

نعيت إلى نفسي زمان شبيبتي وشيبي إلى هذا الزمان نعاني

لقد ستر الستار حتى كأنه بعفوٍ من اسم المذنبين محاني

ويذكر الشيخ علي آل كاشف الغطاء صاحب «الحصون المنيعة» أن «أكثر شعره في مراثي الإمام الحسين، توفي في أواخر المئة التاسعة في الحلة ودفن فيها ولم يحصل من يجمع شعره على كثرته».

وذكر فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ/ ١٦٧٤م) في المنتخب، بعض قصائده، وهناك عشرات المجاميع المخطوطة في النجف وبغداد والكاظمية وقرى البحرين تضمنت أكثر من خمسين قصيدة يناهز أكثرها المئة بيت، والشيخ محمد بن طاهر السماوي (ت ١٩٥٠) على ضوء هذه المجاميع جمع ديواناً باسم المترجم له يقع في ١٣٥٠ بيتاً تقريباً.

وجامع ديوان مغامس، الشيخ السماوي، كان من علماء النجف المعروفين بحرصهم الشديد على جمع المخطوطات وشغفهم بالكتب. ويتحدّث جعفر الخليلي عن الشيخ السماوي باعتباره من أكبر عشّاق الكتب وهواتها، وقد كان يملك مكتبة نفيسة ثمينة حوت الكثير من نوادر المخطوطات، وبلغ من عنايته وخوفه على الكتاب أن تعلم تجليد الكتب واشترى اللوازم والأدوات الخاصة بالتجليد وعكف على كتبه الخطية يجلدها بيديه حذراً من المجلِّدين.

وكانت مكتبة الشيخ السماوي تشتمل على ألفي مجلّد مطبوع وألفٍ

من المخطوطات كثيرٌ منها بخط يده، وفيها كتب نفيسة جداً تفرّقت بعد عدة أيام من وفاته، فاشترت مكتبة الحكيم أربعمئة مجلد منها والباقي اشتراها المتحف العراقي وعباس الغزاوي وغيرهم.

مغامس بن داغر نفسه هو صاحب القصيدة المعروفة بـ «مناحة الحسين»، التي تقرأ في العادة في بعض مآتم البحرين في الليلة العاشرة من المحرم والتي مطلعها:

لبنـــي الهـــادي منـــاحي   فـــي غـــدوي ورواحـــي

ولقد ساهم إنشاد المنشد المعروف الشيخ حسين الأكرف لهذه القصيدة في التنبيه إلى هذا الأدب البعيد عن الاهتمام والدرس العلمي، والذي يشكّل جانباً من التراث الشعري الغزير لأهل البحرين.

وقد قام المحقق حسن طاهر الدرازي بإعادة طبعها ضمن كتاب «الفوادح الحسينية» للشيخ حسين العصفور الذي قام بتحقيقه، لكني وبمقارنة سريعة مع مخطوطة ترجع إلى العام ١٩٢٧ في حسينية المحافظة في قرية باربار والتي تأسست في العام ١٨٩٠ وجدت أنها ناقصة وسقطت منها آخر أبياتها وأهمها:

فاســـمعوها مـــن مغـــامس   مـــن فتـــى فـــي العلـــم دارس

حاذقـــاً فيهـــا ممـــارس   قالهـــا فـــي يـــوم خـــامس

واحسيناه.

هذه دعوة للاهتمام بتراثنا الأدبي والعلمي نتمنى أن يقيّض الله له من ينهض برعايته وإحيائه من أبناء هذا البلد المعطاء.

آباؤنا الو نيون إضاءة في تاريخ شعب

يتيح لنا التاريخ كشفاً أميناً وصادقاً لسيرة المجتمعات وحياة الشعوب، وضمن هذه السيرة تحتشد مواقف أصحاب الرأي والنخب الاجتماعية التي تكون – في العادة – قادرة على التعبير عن أشواق وتطلعات مجتمعاتها، إن لم تكن هذه النخب أصلاً هي من يصوغ مواقف الامم وحياة الشعوب ويخلق لها قناعاتها في الميادين الفكرية المختلفة .

سأختار من ذاكرة شعب البحرين مثالين مهمين من تاريخنا الوطني لهما دلالة بالغة، المثال الاول تعود تفاصيله الى مطلع السبعينات من القرن الماضي والبحرين تتهيء لتحتل مكانتها الاقليمية كبلد مستقل، فقد تم اقناع الشاه الايراني بفكرة الوسيط الدولي، وقد سبق وان عرضت عدة اقتراحات منها ما تقدم به ايران بإجراء استفتاء رسمي للسكان تحت رقابة الامم المتحدة، وقد رفضت في حينه الحركة الوطنية في البحرين هذه الفكرة لان عروبة البحرين ليست موضع شك، كما أن الاستفتاء سابقة خطيرة قد تطالب به ايران في الازمات الصغيرة في الخليج التي يشكل فيها الايرانيون نسبة عالية .

ووسط تناقض الافكار واختلاف الرؤى، تقرر أخيراً الأخذ بمقترح مندوب إيران في الأمم المتحدة الذي رفع للأمين العام في ٩ مارس / آذار ١٩٧٠ طلباً ببذل مساعية للتعرف على رغبات شعب البحرين وذلك بإرسال مندوب شخصي للبحرين وهو ما تم بالفعل، وقد خلُص المندوب الشخصي السيد "فيتوريو ونسبير جوشياردي" — بعد ان استخدم كل وسائل الاتصال بالأهالي غضون اسبوعين هي عمر مهمته في البلاد — إلى أن "الاغلية العظمى لشعب البحرين ترغب في الحصول على اعتراف بشخصيتهم في دولة مستقلة تماما ذات سيادة كاملة."

وقد لاحظ التقرير اختفاء الروح الطائفية، فقد زار المبعوث الدولي علماء السنة والشيعة معاً وأعربوا جميعاً عن موافقتهم على الاستقلال، ويورد الباحث ابراهم العبيدي في كتابه (الحركة الوطنية في البحرين) تعليقا على الحادثة بقوله وهذا الموقف الوطني الثابت يؤكد على "عدم تعلق الشيعة بايران خلافا لما كان راسخاً في الاذهان."

في السياق ذاته، كان موقف المؤسسة الدينية في كل من العراق والبحرين ينسجم مع هذه المبدأية والحزم الوطنيين، فأثناء زيارة أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة (ت ١٩٩٩) للعراق عام ١٩٦٨م، سلّم الوجيه الحاج محمد بن مكي البحارنة (ت ١٩٦٨م) نجله رئيس الاوقاف الجعفرية السابق صادق البحارنة الذي كان ضمن الوفد المرافق للامير رسالة للسيد محسن الحكيم (ت ١٩٧٠) فحواها: "قد يطلب منكم سمو الأمير الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة المساعدة بشأن تثبيت عروبة

البحرين فأرجو من سماحتكم ألا تقصّروا". وكانت نتائج الزيارة أكثر مما توقع وفد البحرين، لأن الإمام الحكيم المرجعية الشيعية الابرز وقتها في العالم الاسلامي وقف وقفة تاريخية من أجل عروبة واستقلال البحرين كما يقول صادق البحارنة.

أما المثال الآخر فيتمثل في موقف رجل دين متواضع وشريف، سكنه الهم الوطني منذ يفاعته فانخرط في إهاب أول ائتلاف وطني للقوى السياسية في الخمسينات (١٩٥٤ – ١٩٥٦) ينشد الاستقلال ويتمسك بحق المطالبة بالاصلاح السياسي .

فبعد أن استقرت به الاقامة في النجف الاشرف منفياً من بلده عقب الضربة الامنية التي لحقت بزعماء هيئة الاتحاد الوطني، وفي أحد مساءات صيف العام ١٩٥٧ زار أحد زعماء هيئة الاتحاد الوطني السيد علي كمال الدين (ت ١٩٧٤) بعد صلاة المغرب ثلاثة مندوبين عن حكومة الشاه الايراني، يحملون معهم عرضاً من صاحب الجلالة شاهنشاه ايران فحواه دعوة ملكية للاقامة هو وعائلته في إيران "معززين مكرمين" ، وليكون السيد علي كمال الدين عضواً في البرلمان الايراني لشغل المقعد الشاعر الخاص بلواء البحرين، فما كان من السيد كمال الدين الا أن كاشف ضيوفه بأنه لايقر ولا يعترف أصلاً بتبعية البحرين لايران، بل هي جزء من الوطن العربي الكبير "فكيف يريد جلالته أن تصبح عن طريقي تابعة لايران ؟؟ ."

وبعد نحو أربعين يوماً يعاود مندوبوا الشاه طرق باب السيد كمال الدين للمرة الثانية، مضمنين عرضهم بوعيد مبطن، فـ "ذراع الشاه طويلة"

كما قالو له، ما دفع السيد كمال الدين الى ان يعرض الموضوع على قائمقام النجف السيد مهدي هاشم، وقد تدبر الاخير موعداً للسيد كمال الدين مع رئيس الوزراء نوري السعيد في دار السراي الحكومي في بغداد لوضع حد لهذه المضايقات.

ستكون هذه الحقائق عادية عندما يكون هناك تصالح مع التاريخ، ونكون اكثر رأفة في تعاطينا الانساني مع تنوعنا المذهبي، لكنها ستكون حقائق مثيرة للدهشة بلحاظ واقع مأزوم بالشبهات ومعبأ بالحذر، واقع، يجري فيها تزوير الذاكرة التاريخية للشعوب من أجل إدانة مكون مذهبي على خلفية تباين سياسي في الموقف تجاه مستجد طاريء، وتتخذ فيه كل من ″العقيدة″ وشوارد ″التاريخ″ وسائل مغرضة للتخوين والتزييف ولي عنق الحقائق.

في دراستها المهمة (صنع القرار في ايران والعلاقات العربية الايرانية) تستعرض الدكتورة نيفين مسعد موقف الحركات الاسلامية السنية والشيعية من نجاح الثورة الاسلامية الايرانية (١٩٧٩) وتشير الى ان الاحساس الوطني المتجذر في نفس الشيعة العرب، كان من بين اهم العوامل التي حدّت من التماهي مع التجربة الايرانية الوليدة، وتقول ″وهي الحالة التي يجسدها بجلاء استعراض تطور موقف شيعة العراق من نظامهم، ففي عام ١٩٢١ أفتت مراجعهم بتحريم المشاركة في انتخابات المجلس التأسيسي للتصديق على المعاهدة البريطانية - العراقية، وفي ١٩٣٧ عارضوا ابرام المعاهدة العراقية - الايرانية التي تنازل العراق بمقتضاها عن سيادته على جزء من

شط العرب، وفي اثناء حرب الخليج الاولى التزموا الجانب العراقي ضد إيران. أكثر من ذلك في تعبير الانتماء القومي العربي، أعلن مجتهدوا العراق الكفاح ضد الاحتلال الايطالي لليبيا، وكونوا لجاناً لهذا الغرض في مختلف انحاء العراق."

هل نحن بحاجة لكي نعطي الدليل على وطنية وصدق نصف سكان هذا البلد ؟

أخشى أن تكون الاجابة نعم لاننا في زمن صارت فيه البديهيات تحتاج لاكثر من دليل وقرينة، فيما الاكاذيب تلوكها الالسن كمضغة لبان رخيص في عالم يطرب للاثارات الطائفية ويصفق لها باليدين والرجلين.

محمد علي التاجر حكاية من الماضي

بالقرب من محل بوهندي بائع اللؤلؤ الشهير في المنامة، وعلى غرب المحل حيث يفصل بينهما زقاق صغير، كنت ستعثر على دكان صغير يقع بالقرب من سراديب وسكن "البانيان" العاملين في مهنة الصياغة، القريبين من المعبد الهندوسي. في داخله رجل عجوز منكب على مكتبه، يقلب بين يديه صفحات الكتب القديمة، أو يبرى قلم، او يتأمل مجموع الطوابع البريدية أو يدني الى عينه بضع عملات قديمة يقلبها بزهو وانشراح .

وليس هذا المكان ذو الجدران الطينية والحصى البحري، والدنجل، والكتب العتيقة المصفوفة بعناية وحرص سوى مكتبة الشيخ محمد علي التاجر (ت ١٩٦٧)، الأديب والمؤرخ الكبير.

للشيخ التاجر، أكثر من وصف وعنوان، لكن اهتمامه بالادب والتاريخ هو أبرز هذه العناوين، فهو عاقد اللآل وناظم الدرر، فكتابيه المهمين (عقد اللال في تاريخ أوال) و(ومنتظم الدُرّيّن في تراجم علماء وأدباء الاحساء والقطيف والبحرين) من أشهر ما خلّف هذا الرجل الطموح الذي قهر ظروفه وجابه التحديات بايمان راسخ وعقل متوثب في زمن كانت فيه الكتابة التاريخية عملية مضنية لايتنكبها المرأ في العادة بجهد فردي، بل هي

تكليف يصدر بـ "فرمان" حكومي ترصد له الاموال وتوفر له كافة التسهيلات الممكنة .

ينتمي الشيخ محمد علي بن أحمد بن عباس "التاجر" بن علي ابن الشاعر البحراني صاحب المراثي الحسينية الشيخ إبراهيم بن محمد بن حسين آل نشرة الماحوزي إلى أسرة معروفة بـ "التاجر" تقطن المنامة، ومن أعلامها: أخوه الشيخ سلمان التاجر شاعر الرثاء الحسيني الشهير، وابن أخيه الأديب الشيخ أحمد بن سلمان التاجر. أما اللقب الأصلي لهذه الأسرة فهو "آل نشرة" وهو لقب جدهم المعروف الشيخ إبراهيم آل نشرة. وموطن هذه الأسرة في الأصل كما يستظهر الأستاذ سالم النويدري قرية "الماحوز" الشهيرة بانجاب العلماء الأفذاذ.

في صباه تنقل محمد علي التاجر مع والده بين البحرين والهند، فوالده كان من تجار اللؤلؤ، وكانت أسواق الهند هي نقطة التلاقح الحضاري آنذاك ما بين الخليج والهند.

وعندما عم الكساد أسواق الخليج، استقر الشيخ في البحرين، وتعامل في العقارات والأراضي الزراعية، هو وأخاه عباس بن سلمان (ت ١٩٢٥)، ثم قام أخوه عباس الذي كان هو الآخر مولعاً بالأدب بشراء مكتبتهم التجارية من الهند، وتم افتتاحها في حوالي عام ١٩٢١م وأطلق عليها اسم المكتبة العباسية نسبة إلى صاحبها الشيخ عباس. لم تكن المكتبة بعيدة عن سوق الطواويش، بل كانت تقع في ركن منه، والتجأ إليها طواويش اللؤلؤ، ويتداولون أخبار الأدب والثقافة بعدما كسدت تجارة اللؤلؤ.

وكان الأخوان يعتبران من هواة الأدب في بحرين العشرينات والثلاثينيات والأربعينيات.. ومن هنا جاء اهتمامهما بالمكتبة والكتب، وكانت المكتبة هواية أكثر منها تجارة. وللأسف فإن كثيراً من تلك الذخائر التي كانت تضمها المكتبة العباسية بيعت في المزاد العلني بعد وفاة الشيخ.

كان الشيخ التاجر نهماً في القراءة، وأعجوبة في شدة الحرص على اقتناء الكتب، وقد ظل شغفه بالقراءة متواصلاً حتى أيامه الأخيرة حتى كل بصره.. وفي أواخر حياته استحوذت عليه هواية جمع الطوابع البريدية.

درس محمد علي التاجر في البحرين عند المعلم "طربوش" وهو خطاط وكاتب، ولدى خديجة بنت نصر العصفور، وهي جدة التاجر المشهور منصور العريض، حيث تعلم لديهما مبادئ الحساب والقراءة والقرآن.. ثم درس في مدرسة العجم في أثناء سفره مع والده أثناء رحلات اللؤلؤ التجارية إلى الهند.

عندما أسست المدرسة الجعفرية ١٩٤٦ تم تشكيل مجلس إداري كان الشيخ محمد علي التاجر أحد أفراده بالإضافة إلى عبدعلي بن رجب، سيد أحمد العلوي، سيد عدنان الموسوي، وكان مديرها عراقي هو عبدالله بن جمعة.

كان من مؤسسي دائرة الأوقاف الجعفرية ودائرة أموال القاصرين، ومن المساهمين في بناء مدرسة الهداية الخليفية.

ولقد استفاد الشيخ التاجر في كتابه (عقد اللآل) الذي أخرجه الاعلامي البحريني ابراهيم بشمي عن مؤسسة الايام، من كتاب ناصر

الخيري (قلائد النحرين في تاريخ البحرين) ومن جهود أخيه الشيخ عباس الذي كان مولعاً بجمع الشوارد والفوائد التاريخية، يقول الشيخ التاجر: "كما لا يسعنا تجاهل حضرة الأديب الفاضل المحقق المدقق المرحوم ناصر بن مبارك الخيري، فإنه والحق يقال قد أجهد نفسه من سنين في تأليف تاريخ البحرين وتوخي فيه التحقيق والتدقيق والتنبؤ فأجاد وأفاد". فالتاجر اطلع على كتاب الخيري واستشهد فيه، وانتقى منه بعض الفقرات ضمنها كتابه اضافة الى رجوعه على الكتب التاريخية والمصادر القديمة و بعض المصادر الفارسية.

ومن الملاحظ أن مسودة هذا التاريخ لم يكمله الشيخ محمد علي التاجر، حيث أن كثيراً من التواريخ، أو المعلومات، قد تركها المؤلف فارغة حتى يستكملها كما يبدو فيما بعد، كعادة المؤرخين.. ولكنه للأسف لم يكملها حتى انتقل الى الرفيق الاعلى .

وينظر عدد من المهتمين بتاريخ البحرين بكثير من الريبة والشك الى النسخة التي صدرت عن الايام بعناية الاستاذ بشمي، لكن الحقيقة أن صدور الكتاب بنواقصه أفضل من بقاءه عرضة الى الضياع والتلف، ويبقى الامل معقوداً على خروج نسخ أفضل وأكمل للكتاب .

وأما بالنسبة لكتاب التاجر الثاني (منتظم الدرين) فقد بقي هو الاخر مخطوطاً بعد وفاة صاحبه أربعين عاماً !! إلى أن اضطلع الشيخ ضياء بدر آل سنبل من مؤسسة طيبة لاحياء التراث بإخراجه محققاً في ثلاثة أجزاء . وتبرز أهمية الكتاب في التتبع الذي تميز به المؤلف حيث كان مطلعا في

التراجم والتاريخ واللغة والاديب إضافة الى جمعه الكثير من المخطوطات النادرة والثائق المهمة التي ساعدته في الحصول على معلومات مفيدة في تراجمه لاعلام المنطقة، وهذا ما يظهر من مراسلاته مع الشيخ فرج آل عمران القطيفي (ت ١٩٧٨) الضليع بتاريخ المنطقة الادبي والتاريخي وصاحب (الازهار الأرجية في الاثار الفرجية.

وكان نجله الأستاذ علي التاجر (ت ٢٠٠٦) يملك الكثير من تراث والده، وسمعت أن هذا التراث قد آل الى العائلة في إمارة دبي عند رجل الاعمال الشهير مهدي التاجر ابن شقيق الشيخ محمد علي التاجر .

توفي التاجر عام (١٩٦٧م) ودفن في المقبرة الكبيرة في المنامة المعروفة بمقبرة الحورة. بعد عمر عريض حافل بالانجازات الكبيرة التي تعكس حساً اصلاحياً وهماً اجتماعياً لدى الشيخ التاجر أبرزها مساهمته مع ثلة من مثقفي عصره، كأخيه الشيخ سلمان، والأساتذة سعد الشملان، وإبراهيم الباكر، وعلي الفاضل، ومحمد حسين العريض وآخرون في إنشاء مكتبة عامة أطلق عليها (مكتبة إقبال أوال) وذلك في منتصف عام ١٩١٣م، كانت تهدف إلى تحصين الشباب يومذاك من التأثر بالنشاط التبشيري المنظم وقد أثمرت هذه الخطوة بتأسيس نادي ثقافي عرف بـ "نادي إقبال أوال" في واحدة من أشد تاريخ البلاد نصاعة وبياض حين يتجاوز البحرينيون انتماءاتهم المذهبية الضيقة التي باتت اليوم جزء من الخبز اليومي لسياسيي "الغفلة" و"نجوم الضجة."

أحمد بن النعمان الكعبي البحراني سنوات زنـجبار

من بين الجمع غير المتجانس للطاقم العامل بالسفنية "سلطانه" التي غادرت ميناء زنجبار في أول رحلة عربية الى الولايات المتحدة الامريكية في العام ١٨٤٠م وقف سيد عربي يحترمه الجميع ببشرته السمراء المصفرة وعينية السوداودين الثاقبتين، كان قصيراً سمينا بعض الشيء وملتحيا. لف رأسه بعمامة ملونة فخمة عظيمة، أما حول خصره فقد ربط شالاً كشميرياً يشبه العمامة في بهجة الالوان الفاتحة، ولبس فوق الثوب الابيض الطويل بشتا جميلاً أسود اللون (قفطان) مطرزاً بالذهب بجمال فائق عند الكتفين. يبدو ان هالة من الشرف الفطري قد تحلقت حوله.

كانت هذه الشخصية الآسرة هي أحمد بن النعمان الكعبي البحراني (ت ١٨٦٧م)، المبعوث الخاص للسيد سعيد بن سلطان (ت ١٨٥٦م) سلطان مسقط وزنجبار وتوابعهما، والذي بأمره أبحرت السفينة نصف المسافة حول العالم في بعثة "للتجارة وحسن النوايا".

ولد أحمد بن النعمان بن محسن بن عبدالله الكعبي في البصرة بالعراق عام (١٧٨٩م). وفي البصرة تلقى تعليمه الابتدائي في الدين الاسلامي بالطرق التقليدية. كان هذا القبطان والشخصية الادارية الفذة ينحدر من

قبيلة بني كعب المعروفة التي تسكن في الخليج العربي، أما أمه فقد كانت "فارسية" حسبما يذكر هيرمان فريدريك ايلتس في كتابه (بعثة أحمد بن النعمان الى الولايات المتحدة).

يصمت التاريخ عن الادلاء بمعلومات كثيرة عن طفولة بن النعمان وبدايات حياته، حتى ان تاريخ ميلاده يكتنفه الغموض، فهناك من يرى بأنه ولد بالبصرة سنة ١٧٨٤م وجاء إلى البحرين ثم رحل إلى أفريقيا لكن شهادة لشاهد أهم هو الشيخ صالح الشيباني يؤكد فيها أنه ولد في عام ١٧٩٠م.

ورغم ان الكتابات تتفق على انه ولد في البصرة، الا ان من الباحثين من يعدّه فارسياً كالدكتور سلطان بن محمد القاسمي في كتابه " تقسيم الامبراطورية العمانية" وهو اشتباه نستغربه من باحث بوزن القاسمي، فمن المعروف أن قبيلة الكعبي لها تواجد في الاحواز وعمان وعموم منطقة الخليج العربي.

ورد اسم أحمد بن نعمان الكعبي في الكثير من الكتب التاريخية منها كتاب عمان وتاريخها البحري إضافة الى العديد من المصادر العربية والاجنبية، ويذكر الشيخ عبدالله بن صالح الفارسي معلومات قيمة عن "الشيخ" أحمد بن النعمان في معرض حديثه عن وزراء السيد سعيد ويذكر أنه تولى منصب وزير الخارجية ومنصب وزير التجارة بعد وفاة الشيخ حسن ابن ابراهيم. وأثناء توليه هذا المنصب زار كثيرا من الموانيء وجاز كثيرا في المحيطات، غير أن أطول رحلاته تلك قام بها الى الولايات المتحدة

الامريكية كأول سفير عربي، وقد استغرقت الرحلة من زنجبار وحتى العودة إليها حوالي عشرة أشهر ، وكان على علم تام بالمحيط الهندي والاطلسي والبحر الابيض المتوسط. وكان يتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة، كما كان محاسباً ماهراً ولهذا قام بتقسيم تركة السيد سعيد عقب وفاته وتوزيعها بين أولاده وورثته.

شغل بن النعمان منصب السكرتير الخاص للسيد سعيد بن سلطان، الذي قلده أمور التجارة وجعله مندوبه الخاص، وقد ظل أحمد بن نعمان بعد وفاة السلطان سعيد سكرتيراً خاصاً لخلفه السيد ماجد بن سعيد وكان لعدد من السنين كاتم اسراره.

ويبدو ان شخصية أحمد بن النعمان تتميز بخفة الظل مع تدين اصيل، وتروى عنه مواقف طريفه خلال فترة اقامته في الولايات المتحدة الامريكية مع طاقم البعثة الزنجبارية، فقد كان أحمد يفتن مضيفيه الامريكيين بلباقته وكان محدثوه "مسرورين جدا من سذاجته وذكاءه" وقد سئل أحمد من بحسب ظنه جمال النساء العربيات ام الامريكيات؟ فوقف من مجلسه بشهامة لكن بلطف لكي يدافع عن نساء بلده".

عاش أحمد بن النعمان في مالیندی کیوبندا، وفي ١٨٦١م بنى البيت الذي عرف باسم مأتم الشيعة، وهو بيت الشيخ أحمد بن النعمان نفسه، حيث كان زعيماً لقبائل الشيعة في شرق أفريقيا قبل أن يتزعم "خان علي" صاحب المنطقة المعروفة باسم منطقة الخان (كواخاني).

ولعل من اللافت أن يخصص الشيخ سعيد بن علي المغيري أحد أبرز

مؤرخي زنجبار المعاصرين جزء من كتابه "جهينة الاخبار في تاريخ زنجبار" فقرات من كتابة للحديث عن أخبار هذه الشخصية حصل عليها من الشيخ صالح بن علي الشيباني البحراني "وهو من مذهب الاثني عشرية الشيعة" كما يورد المغيري.

وهناك صورة فتوغرافية متداولة لوقفية مأتم حسيني في زنجبار نحتت في العام ١٩٢٥م تقول :(أوقفه الزعيم المكرم المرحوم القبطان الحاج أحمد بن النعمان الكعبي البحراني كاتب الدولة البوسعيدية ومعتمدها....) وكان هذا المأتم يقع في الطابق السفلي لمنزله الذي لايزال بنيانه موجوداً حتى اليوم، وكانت عائلة الكعبي تقيم في الطابق العلوي من المنزل، ومع الاسف بعد وفاة اسرته لم يعد لهم وجود بسبب رجوع معظم العمانيين الى عمان عقب ثورة يناير ١٩٦٤ ضد السلطان "جمشيد بن عبد الله" وقيام الحكم الجمهوري.

تواجدت في زنجبار جالية من الشيعة الامامية هم خليط من عرب الخليج ومنهم بالطبع بحارنة، وقد كشف لي رئيس تحرير مجلة الموسم التراثية الدكتور محمد سعيد الطريحي أن تواجداً مهما للبحارنة في زنجبار، فقد نجحت سياسية مؤسس الحكم العربي في زنجبار السيد سعيد التي تتسم بكثير من التسامح في جعلها مجتمع "كوزومبولوتي" متعدد الاديان والاعراق" وأكد أن الجالية البحارنية "تساهم بشكل كبير في تجارة البلد وصناعته، وهم ينعمون بالاستقرار ومندمجون بشكل كامل في المجتمع الزنجباري ناهيك عن تمتعهم بالحريات الدينية الواسعة كغيرهم من

الاقليات الدينية والمذهبية الاخرى".

جاء هذا التنوع الديني للبنية الديغرافية والاجتماعية لزنجبار بفعل الشغف الشخصي لسلطان سعيد بن سلطان للتجارة، فقد كانت التجارة تمثل الشغل الشاغل للسيد سعيد ؛ اذ ترك هذا الشغف تأثيره الكبير على شخصيته وسلوكه ورؤيته السياسية والاقتصادية في الشرق الافريقي منذ ان انتقل من مسقط للاقامة الدائمة في زنجبار، اذ حرص على ان يصطحب معه كبار التجار العرب والهنود من طائفة البانيان **Banyans** للمساهمة في انعاش الحركة الاقتصادية في زنبجار.

توفي ابن النعمان في عام ١٨٦٧ عن عمر ناهز الثمانين عاما في عهد السيد ماجد بن سعيد (ت ١٨٧٠)، ويوجد شاهد بسيط على قبره في زنجبار نقش عليه كتابات وبعض التواريخ. وقد نشرت مجلة الموسم في العدد ٢٩ لسنة ١٩٩٧ – ١٤١٧ه وصيته التي كتبها في ٦ سبتمبر ١٨٦١م أي قبل وفاته بحوالى ٦ سنوات، وهي تطفح بعبارات تدل على تديّن اصيل، وعكست جوانب هامة من شخصية الكعبي المتعددة الأبعاد.

النزوح الى أرض السواد .... البحرينيون في البصرة

تعتبر البصرة أكبر مدينة قرب الخليج، وكان يسمى الخليج في بعض الخرائط التي تعود تاريخها إلى القرن السابع عشر "خليج البصرة"، هذه المدينة التي كانت العاصمة الثقافية للعراق خلال فترات طويلة من تاريخه، حتى سمي العراق بالعراقين نسبة الى الكوفة والبصرة، البلد انتسب اليها عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، والحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ)، والخليل الفراهيدي (ت ١٧٣هـ) وغيرهم من القامات الادبية والعلمية التي اثرت الفكر البشري. هذه المدينة / المحافظة التي كانت ميناءً تجارياً امتازت على الدوام بتعدد ديني خلق لها روابط بين سكانها والمناطق الجارة: الكويت والمحمرة على وجه الخصوص، وكانت تستقبل مراكب السفن وهي محملة بالبضائع الواردة من الهند على مراكب عربية وسوراتية وأوروبية.

وكما يقول الباحث النرويجي ريدر فيسَر:"كان لكثير من عوائل البصرة صلاتها الدولية الواسعة بعوائل في المدن الهندية مثل بومباي، بل ان بعضهم جاب آسيا، حتى الى ما وراء الهند، وكما يقول مثل شائع: تساوت بغداد وبومباي في البعد عن البصرة بعد انتشار السفن البخارية". (البصرة

وحلم الجمهورية الخليجية).

والبصرة في كلام العرب تعني الأرض الغليظة التي فيها حجارة رخوة، وقيل هي الحجارة الصلبة، وسميت بصرة لغلتها وشدتها: وثمة من يقول أن البصرة اسم أعجمي معرب، وأصله بس راه، وهو يعني بالفارسية ذات الطرق الكثيرة المتشعبة. وهي من أقدم المدن العراقية، وقد خضعت للحكم الفارسي قبل أن يفتتحها العرب المسلمون زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وكان تمصيرها في سنة ١٤ ه / ٦٣٥م قبل أن تمصر الكوفة بستة أشهر.

مايعنينا هنا الاشارة الى حقيقة وجود جالية بحرينية كبيرة في البصرة هاجرت من البحرين لظروف ودوافع مختلفة وعلى فترات متفاوته.

وقد حدثت حركات هجرة سكانية واسعة في البصرة مع نهاية القرن التاسع عشر في التميز الذي تقيمه تقديرات السكان العثمانية بين ″الاهالي الاصليين″ و″الغرباء″ والنسبة الضخمة التي يشكلها الغرباء في بعض القرى البصرية.

والى جانب تدفق الايرانيين الملحوظ في عشرينيات القرن التاسع عشر، بنسبة شكلت ربع السكان في البصرة في وقت ما، وهناك من يرصد نفوذ شيعي للبصرة جاء من منطقة الخليج، التي أسهمت اسهاماً جوهرياً في دفق المهاجرين الى البصرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فالسيد ناصر البحراني، العالم الشيعي البارز في البصرة خلال ثمانينات القرن التاسع عشر جاء من البحرين. ويشير جماعة من الاخباريين في البصرة ايضا

الى روابط بتلك المنقطة، التي كانت المركز الرئيس للتيار الاخباري في الاسلام الشيعي في ذلك الوقت. والشيخية وهي اتجاه شيعي أوجده الشيخ أحمد الاحسائي (ت ١٨٢٦م) من منطقة الاحساء في الجهة الغربية من جزيرة العرب، كان لها أعداد كبيرة من معتنقيها.

وبحكم الميزات التي وهبتها الجغرافيا للبصرة، أثرى تاريخها العلمي والادبي بحكم النشاط التجاري الذي لايفتر، فقد كانت ميناءً تجارياً عمل باستمرار على مد صلاته الاجتماعية بدول العالم من الشرق والغرب، وهو ما يفسر هذا الانتشار الكثيف نسبياً للبحارنة في البصرة و عربستان تحديداً، وكثير من العائلات لديها زيارات لاتنقطع بين المكانين مبعثها صلة الرحم، اضافة الى أن الكثير من هذه العائلات توزعت إقاماتها بفعل تعقد روابط الدم والمصاهرات خصوصا في فترة حكم الشيخ خزعل الكعبي (ت ١٩٣٦) التي شهدت أكثر الفترات ازدهاراً بين اقليم عربستان والبصرة. ولعل من أبرز هذه العائلات العائلات البحرانية التي صار لها انبثاثات عميقة في كل من عربستان والبصرة آل القاروني و آل الربيعي وآل الغريفي و آل عصفور وغيرها الكثير.

لعل أبرز المؤشرات التي تدلل على أهمية الوجود البحريني في البصرة ما جاء في تقرير الملازم سترون مساعد المعتمد السياسي البريطاني في البصرة عام ١٨٩٠م حيث جاء ان السلطات التركية تبذل جهدها لارغام مواطني البحرين المستقرين في البصرة وفي أبي الخصيب على شط العرب على أداء الخدمة العسكرية بزعم أنهم رعايا أتراك ينطبق عليهم ما ينطبق

على باقي الرعايا. وهي أزمة كانت مثار جدل بين البريطانيين والاتراك حتى سنة ١٨٩٦م.

ومن أبرز الأسر البحرانية التي استوطنت البصرة آل شبانة ويشترك آل شبانة مع أبناء عمومتهم آل الغريفي في جدهم السيد عيسى بن خميس. ومن أبرز أعلام هذه الاسرة في البصرة السيد ناصر بن أحمد آل شبانة (ت ١٩١٢)، وقد خرج من البحرين وطاف في أكثر من بلد حتى استقرت به عصا الترحال في البصرة، وصار له نفوذ واسع فيها، وكان حكام البصرة يعظمونة غاية التعظيم ويزرونه في بيته. كذالك يتواجد من الجالية البحرانية السادة من آل القاروني، و آل عبدالقاهر ، وآل الفاضل، وآل فرج الله.

تدل أسماء العوائل والاسر البحرينية المستقرة منذ سنوات في البصرة على منحدرها البحريني، مثل "التوبلاني، الجزيري، الغريفي، الفردان، المرهون، السواد، العصفور". كذلك تتشبث هذ الاسر والعوائل في البصرة بأصولهم البحرينيية، وكثير منهم يحتفظ بوثائق تاريخية تبين نسبهم، كما يبدون كثيراً من الحنين لأرض الأجداد.

ثمة أسر وبيوت بحرينية مشتتة وغير مترابطة بعشيرة تجمعها، وقسم من هذه البيوت والاسر الربيعية الاصل قد تحالفت مع عشائر أخرى لاتربطهم بهم رابطة نسب مثل تميم وبني أسد، وكانت هذه البيوت والاسر تربطها روابط وعلاقة مع أبناء عمومتها في البحرين وبمرور السنوات والظروف انقطعت هذه الصلة، بينما لا زالت غالبية الاسر البحرينية تحافظ على روابطها مع ابناء عمومتها في البحرين.

تشير دراسة حديثة للباحث نجاح الربيعي (قبيلة ربيعة البحارنة) الى أن الغالبية من الأسر البحرينية في البصرة شيعة اثني عشرية على المذهب الاخباري، وتعطي الدراسة تفاصيل عن وجودهم، ومؤسساتهم الدينية، وتشير الى ان من علماء الجالية البحرينية في البصرة الميرزا عباس بن محمد تقي جمال الدين المعروف بالميرزا محمد الاخباري (ت ١٩٧٨)، وهو من مواليد ١٩١٠ في مدينة البصرة، وهو من اسس للجالية موكب حسيني عام ١٩٥١ في كربلاءالمقدسة وسمّاه بـ "موكب ربيعة"، وتنسب له أدوار ريادية في توحيد صفوف الجالية، وبقيت هذه الاسر والعوائل مشتتة حتى عام ١٩٩٥ حيث قرر وجهاء هذه الاسر جمع شمل الجالية المنتشرة فروعها في البصرة ومحافظات أخرى وأجمعوا على مبايعة أحمد سلمان السويف الربيعي شيخاً عاماً للقبيلة، وقد ضمت القبيلة أكثر من خمسين حمولة تسكن أغلبها في محافظة البصرة، وكذلك في بعض المحافظات مثل بغداد وكربلاء والنجف والحلة. والحمولة هي فرع من عشيرة كبيرة تنضم اليه مجموعة من العائلات من عشائر أخرى تربطهم مصالح، ولا يوجد بينهم اي صلة قربى وتحمل هذه الحمولة مسمى العشيرة الاكبر.

ويتركز وجود البحرينيين في البصرة في: النومة، الجزيرة، ابي الخصيب، السيمر،الفاو، السيبة، البراضعية، حيث يذكر الشيخ عبدالقادرباش عيان أن أغلب سكان البراضعية من البحرين في العهد العثماني حتى سنة ١٩١٤م وقد خالطهم فريق من أهالي الاحساء والقسم الاخر من فلاحي البصرة القدماء، وكانت اغلب بيوتهم من الطين والقصب والبواري،

والبحرانيون والاحسائيون يشتهرون في صناعة فخر القلل والاكواز وغيرها لشرب الماء." (موسوعة تاريخ البصرة).

ومن أبرز جوامع ومساجد البحرينيين في البصرة: "جامع المهاجرين" في منطقة العشار في الصالحية "الدوب" ويسمى سابقاً بمسجد "المهاجرين البحارنة"، وأسسه الحاج علي الدوغجي عام ١٩١٣ ويسمى الان "جامع المؤمنين". و"مسجد الجمعية" المعروف بـ "جامع الميرزا"، حيث كان تحت إشراف السيد ميرزا عباس السيد محمد. و "جامع البراضعية"، ومن أبرز علماء البحرين في البصرة ممن ذاع صيتهم الشيخ محمد أمين زين الدين (ت ١٩٩٨) وأبوه الشيخ عبدالعزيز (ت ١٩٢٨)، حيث هاجر جد العائلة الشيخ زين الدين من البحرين الى البصرة.

هذه وقفة سريعة حاولت رصد ملامح الوجود البحريني في البصرة، الموضوع شيق ويحتاج على دراسة مستفيضة، نتمنى ان تشكل هذه المادة دافعاً للباحثين لتناوله بشكل أوسع وأكثر عمقا.

المؤرخ سالم النويدري التاريخ يسع الجميع

ما يزيد على عقدين من الزمان والموسوعة التاريخية التي وضعها المؤرخ البحريني سالم عبدالله النويدي «أعلام الثقافة الاسلامية في البحرين خلال ١٤ عاماً»، تحتل مكانةً بارزةً في المكتبة التاريخية البحرينية، وغدت من المصادر الكلاسيكية في هذا الباب، فهذه الموسوعة التي جاءت في ثلاثة مجلدات و٢١٩٢ صفحة، غطّت جوانب تاريخية وسياسية واجتماعية من خلال الترجمة لحوالي ٥٨٧ علماً من أعلام الثقافة الإسلامية، وهي صفحات ساهمت في سدّ فجوات عميقة وواسعة من تاريخ بلدنا، كُتبت بروح موضوعية منصفة، وكشفت عن مثابرة وصبر عجيبين لكاتبها.

مناسبة الحديث عن قامة رائعة كالنويدري، المؤرخ البحريني الشيعي الذي أنصف أهل السنة، ولم يسع إلى إلغاء الآخر لتأكيد وجوده كما فعل ويفعل مؤرخون أو منتحلون لهذه الصفة، وهو منهجٌ سبقه إليه الشيخ محمد علي التاجر (ت ١٩٦٧) في كتابه «منتظم الدُّرّين»، وسار عليه المؤرخ النويدري في موسوعته لأنه وجد أن شرط الدخول في مضمار البحث التاريخي يستلزم التحلي بمجموعةٍ من المزايا الفكرية والنفسية، أبرزها

التجرّد من الانحيازات المذهبية والآراء المسبّقة، وهي اختباراتٌ فشل فيها بعض من كتب في تاريخ البحرين.

يقول النويدري في مقدمة موسوعته أنها اشتملت «على أعلام من الطائفة السنية في البحرين، إلى جانب إخوتهم في العقيدة من أعلام الطائفة الشيعية، خاصة في القرنين الـ١٣ و ١٤ هـ وقد دأبت كتب التراجم وغيرها على ذكر الأعلام من طائفة معينة حسب انتماء المؤلف المذهبي وإهمال ما عدا ذلك. وقد اقتدينا في ذلك بالمرحوم الأستاذ التاجر في كتابه الموسوعي (منتظم الدرين) الذي لم يهمل ذكر الأعلام الخليجيين والبحرانيين لاختلاف مذاهبهم، كما فعل الكثير سواه.

تتعاظم أهمية هذا الطرح الأكاديمي الموزون والملتزم بالروح العلمية الرصينة حين نعاين مستوى الانفلات الحاصل في منهج البحوث والمقالات التاريخية الحالية التي تجعل أكبر همها تجريد الآخر من أصالته التاريخية والتشكيك في جذوره وتقزيم - وأحياناً نفي - أدواره الثقافية عبر التاريخ، وهي كتابات محكومة بعقدة النقص ويغمرها الإحساس المزمن بـ «الهشاشة» و«الانهزام» النفسي.

شغل سؤال التاريخ عقل النويدري منذ سبعينيات القرن الماضي، وبدأ مطلع الثمانينيات في التفكير في الكتابة عن علماء البحرين، ساعياً إلى لمّ شعث المعلومات المتناثرة في المصادر التاريخية القديمة والوثائق المخطوطة، وهكذا شمّر عن ساعد الجدّ نحو العام ١٩٨٢ في جمع المادة العلمية لموسوعته أعلام الثقافة الاسلامية، هكذا نعرف أنه عمل على

تصنيف هذا العمل الوثائقي الضخم في عشر سنوات!

هكذا سنجد على سبيل المثال الشيخ محمد النبهاني (ت ١٩٥٠) عندما يكتب عن التركيبة المذهبية للمجتمع البحريني يذكر أن أهل البحرين يتمذهبون بمذهب الإمام مالك بن أنس، ومن كان منهم شافعياً فأصله من فارس، ومن كان منهم حنفياً فأصله من الهند أو من بغداد، ومن كان منهم حنبلياً فأصله من نجد. ولم يسعفه الحظ والقدرة على التحقيق إلى رؤية أبعد من ذلك!

وهناك من يكتب عن أعيان البحرين ورجالاتها ومعالمها التاريخية وتراثها الثقافي والديني والاجتماعي بهذا النفس المستفز، ساعياً إلى بناء ذاكرة تراكمية مزيفة سطحية ومجتزأة. والنتيجة أن التاريخ يتحوّل من مجال علمي تهذّبه وتنعش ذاكرته الأقلام المتريثة والنزيهة؛ إلى مجالٍ لتصفية الحسابات السياسية وتكريس حالة الخصومة وبأثر رجعي!

الحديث عن المؤرخ سالم عبدالله النويدري المولود في المنامة العام ١٩٤٥، هو حديثٌ عن الأمانة العلمية، وعن الصبر الطويل على أداء التزام وطني وديني تجاه حقائق التاريخ ونفض الغبار عن تراثنا العريق والمنسي. هو حديثٌ عن النموذج النقيض لمن يعتبر الكتابة في التاريخ نزهةً عبثيةً يتشاطر فيها المراهقون ويمارس فيها البعض بهلوانياته السمجة.

لم يكن «أعلام الثقافة الإسلامية» الذي كتبه في مهجره الطويل في ريف دمشق هو العمل الوحيد للنويدري، فقد رفد المكتبة البحرينية بعددٍ من الإصدارات والدراسات المهمة، مثل كتابه الذي يُعد من الدراسات

الأصيلة في مجاله «أسر البحرين العلمية: أنسابها، وأعلامها، وتاريخها العلمي والثقافي»، وإعداد وتحقيق «ديوان ديك العرش» نظم الخطيب حسن آل ماجد، و»الكلمة السواء... بحث حول الإسلام والمسيحية». كما شارك في بعض الكتب التي صدرت حول تاريخ البحرين، فهو عضو في الفريق العلمي الذي أعد «موسوعة تاريخ البحرين» التي صدرت في أربعة مجلدات بإشراف محمد حسن كمال، كما شارك في وضع كتاب «المسجد ذو المنارتين» مع نخبةٍ من الباحثين.

ومنذ أن حصل النويدري على ليسانس في الآداب من جامعة بيروت العربية (١٩٧١)، إلى أن منح درجة الدكتوراه في الثقافة على مجموعة الأعمال المنجزة في الدراسات التوثيقية من أكاديمية يونيفرسال universal academy - لندن (٢٠٠٣) انغمس في النشاط العلمي وزاول تدريس العلوم اللغوية، والدراسات الإنسانية في حوزة الإمام في دمشق، من منتصف الثمانينيات حتى مطلع التسعينيات من القرن العشرين، وحوزة النور الأكاديمية في مملكة البحرين قبل أن يتفرغ بشكل كلي إلى الكتابة قبل نحو سنتين.

للنويدري، إلى ذلك، مجموعة كتب تنتظر الطبع أبرزها «الشيخ جعفر أبو المكارم: حياته العلمية والأدبية والاجتماعية»، «مناطق البحرين: معجم جغرافي»، و»نظرات في لهجة البحرين وأصولها اللغويّة في المعجم العربي»، و»التحف الأوليّة»، وهي منظومةٌ تربو على ألف بيت في المقامات الدينيّة ومراقد العلماء في البحرين، و»في خطى الدمستاني» وهو مربعة

شعرية في نظم مقتل الإمام الحسين على نهج المربعة الدمستانية الشهيرة. وأخيراً ديوان شعري بعنوان «موكب الخالدين.

وكان لصحيفة «الوسط» قبل نحو خمس سنوات (الأربعاء ١٦ أبريل ٢٠٠٨) وقفةٌ تكريمية للمؤرّخ النويدري في احتفال حضره عددٌ من الشخصيات الثقافية والاجتماعية والإعلامية تثميناً لدوره في حفظ تاريخ البحرين من خلال مؤلّفاته.

يريد النويدري أن يعطي درساً عملياً استوحاه من تجربه شيخه التاجر... «التاريخ يتسع للجميع» وكذلك الأوطان.

النهضة العلمية في البحرين الصفحة المجهولة

لقد تميّزت البحرين بنهضة علمية ودينية على مر العصور، وقد كان ملاحظاً أن البحرين بعلمائها، كانت قد ساهمت في تسجيل حضورها العلمي المدهش في كل الأدوار التي مرت على المؤسسة الدينية منذ أيام مدرسة بغداد في القرن الخامس الهجري وحتى عصور متأخرة نسبياً.

ولقد كان علماء البحرين يسهمون بشكل مباشر في تدعيم النشاط العلمي في العالم الإسلامي، وكان هذا التوجه الطموح يحظى بدعم وتشجيع من البلاط الصفوي، منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي؛ فالشيخ سليمان الماحوزي (ت ١١٢١هـ) يؤلف كتاب «الأربعون حديثاً» ويُهديه للشاه حسين الصفوي حيث صنّفه باسمه على عادة القدماء؛ فيبادله الشاه الصفوي بـ «ألفي درهم» (لؤلؤة البحرين، ص ١٠).

وعلى رغم أن إيران في العهد الصفوي كانت مقصداً لرجال المؤسسة الدينية في البحرين، إلا أنها سرعان ما تعرّضت هي الأخرى للغزو الأفغاني سنة ١٧٢٢م/ ١١٣٥هـ وبانهيار الحكم الصفوي في البحرين، في أعقاب الهجوم الأفغاني على إيران في العقد الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، تحولت العراق إلى مقصد جديد لهجرة علماء البحرين.

وازدادت في هذه الفترة وتيرة هجرة علماء البحرين إلى كربلاء والنجف، وتبنى القسم الأعظم منهم الاتجاه الاخباري الذي كان سائداً وقتها في الحواضر العلمية.

حكمت الأسرة الصفوية إيران قرنين وقرابة الثلاثة عقود (١٥٠٢ – ١٧٣٦م/ ٩٠٧ – ١١٤٨هـ)، بعد أن كانت مجرد «طريقة صوفية» تنسب إلى الشيخ صفي الدين (ت ١١٣٥م/ ٧٣٥هـ) في أردبيل. وبعد أن سقط حكمهم في العام ١٧٣٦م/ ١١٤٩هـ اعتزل من نجا منهم من سيف السياسية، وغادروا إيران إلى الهند ليعودوا صوفيةً كما بدأوا.

شكّلت المراسلات العلمية التي جرت بين علماء البحرين وبين علماء العالم العربي والإسلامي، إحدى الظواهر العلمية التي ميّزت مجتمع البحرين في العصور المختلفة، إلى جانب ظواهر أخرى أهمها الهجرة العلمية؛ فقد درس بعض علماء البحرين القدامى في العراق رغم ازدهار الحركة العلمية في البحرين قديماً، وكان الشيخ ناصر الدين راشد بن إبراهيم البحراني من العلماء المتقدمين قد أقام في العراق مدةً وقرأ فيها على كبار العلماء.

وكان بعض علماء البحرين أساتذةً لعلماء مشاهير من بلدان أخرى كالعلامة الشيخ ناصر بن أحمد المتوّج، الذي كان من تلامذة العالمين الفاضلين الشيخ أحمد بن فهد الحلي والشيخ أحمد بن فهد الإحسائي.

كما أن العلامة المعروف بالفيض الكاشاني من مريدي العلامة السيد

ماجد الجدحفصي البحراني (ت ١٦١٩م/ ١٠٢٨هـ) المتوفى في شيراز. وقد درس الفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسي الفقه على يد العلامة الشيخ ابن ميثم البحراني، كما كان الطوسي أستاذاً له في الحكمة.

لقد دأب علماء البحرين على إرسال الرسائل إلى نظرائهم العلماء في شبه الجزيرة العربية، والعراق وإيران، كما كان علماء البحرين بدورهم يتلقون مثل هذه الرسائل العلمية التي كانت تتضمن أسئلة عقائدية وفقهية، وكان هذا اللون من المراسلات سائداً في ظل الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة وضعف نظم الاتصال، فالفقيه العلامة الشيخ سليمان بن عبدالله الماحوزي (ت ١٧٠٩م/ ١١٢١هـ) يجيب على رسالةٍ بعث بها الميرزا عبدالله أفندي الأصفهاني (ت ١٧١٨ م/ ١١٣٠ هـ)، صاحب «رياض العلماء» يسأله فيها عن علماء البحرين، فيجيبه الشيخ الماحوزي برسالة مختصرة ستكون أول مصنّف رجالي عن علماء البحرين، وهي التي ستعرف بـ «فهرست علماء البحرين.«

لقد كانت الصلات العلمية قائمةً بين إيران الصفوية والبحرين، وكان العلماء يتكاتبون فيما بينهم للنقاش في القضايا العلمية، ويذكر المؤرّخ البلادي أنه وردت إلى البحرين مسائل من علماء أصفهان ليجيب عنها علماؤها ووصلت إلى حاكم البحرين من قبل الدولة الصفوية، فأرسل الحاكم رجاله إلى العلماء ليجيبوا عن هذه المسائل، وكان من ضمن هؤلاء العلماء الشيخ حسن الدمستاني (ت ١٧٠٦م/ ١١١٨ هـ) في قصة معروفة

ذكرتها كتب التراجم.

وكان للنقد العلمي نصيبٌ من نشاط علماء البحرين، ويعد كتاب الشيخ يوسف آل عصفور (ت ١٧٧٢م/ ١١٨٦هـ) «لؤلؤة البحرين» نموذجاً ممثلاً لظاهرة المثاقفة والسجال العلمي الخصب الذي كان يعيشه علماء البحرين. فهو كتابٌ يطفح بالكثير من الملاحظات التاريخية القيّمة بما يكشف عن أفق واسع وعلم موسوعي لمصنّفه، وفي الكتاب طرف من بعض تاريخ الدولة الصفوية في سياق ترجمته لحياة بعض العلماء، كما في ترجمته لحياة الشيخ علي الكركي (ت ١٥٣٤م/ ٩٤٠ هـ) المعروف بـ «المحقّق الثاني.«

ولقد كان للشيخ لطف الله بن محمد آل لطف الله الجدحفصي تصحيحٌ لبعض أجزاء من «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد، فرغ منها العام ١٧٥١م/ ١١٦٤هـ.

وقد تلقى بعض العلماء البحرانيين في الماضي إجازاتهم العلمية من علماء كبار في العالم الإسلامي، من أمثال محمد باقر المجلسي، والشيخ بهاء الدين العاملي. وفي كتاب «بحار الأنوار» للشيخ المجلسي العديد من إجازات المؤلف لعلماء البحرين منهم الشيخ أحمد بن محمد بن يوسف السماهيجي وغيره.

وفي المقابل، أجاز علماء البحرين غيرهم من علماء المناطق المختلفة، كإجازة الشيخ السماهيجي للجارودي المعروفة، وإجازة العلامتين البحرانيين السيد مهدي الغريفي والشيخ خلف العصفور (ت

١٩٣٦) لآية الله السيد المرعشي النجفي (ت ١٩٩٠). ويسرد الشيخ آغا بزرك الطهراني (ت ١٩٧٠) في كتابه «الذريعة» الكثير من نماذج الإجازات المتبادلة بين علماء البحرين وعلماء المناطق الأخرى عبر العصور.

أما من حيث المؤلّفات، فقد اعتنى علماء البحرين بالمؤلفات العلمية في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا التفاعل العلمي يأخذ أشكالاً عدّة، منها الشرح والاختصار والنشر والحفظ وإعادة النسخ، بما ساعد على انتقال الكثير من الكتب التي كتبها علماء البحرين إلى الخارج في شبه الجزيرة العربية والعراق وإيران والهند واكتسبت رواجاً ملحوظاً.

وقد ألف السيد هاشم البحراني كتاب «حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار» للوزير العارف «إيماني بيك» بحسب صاحب «الذريعة»، توجد منها نسخ متعددة في إيران بمشهد وقم وهمدان.

ولقد كانت حركة الترجمة من الظواهر العلمية البارزة في المشهد الثقافي السائد وقتها، فقد ترجم السيد ماجد بن محمد آل شبانة للشاه سليمان الصفوي (ت ١٦٩٤م/ ١١٠٦هـ) عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر، إلى اللغة الفارسية، وكذلك أمر السلطان القاجاري ناصر الدين شاه بعض خاصته بترجمته كتاب «غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام» للسيد هاشم البحراني إلى الفارسية، وهو الشيخ محمد تقي بن علي الدزفولي، وحملت الترجمة عنوان «كفاية الخصام»، ولخّص «غاية المرام» الآقا نجفي الأصفهاني (ت ١٣٣١هـ)،

وللكتاب حواش كتبها الميرزا نجم الدين جعفر الطهراني (ت١٣١٣هـ).

هذه إشارة يسيرة إلى جزء مجهول من تاريخ علمي يُراد محاصرته وطمس معالمه، بغية الركون إلى ذاكرةٍ محرّفةٍ تُشّيد بالمال والأحقاد لا بالوثيقة والحقيقة.

(أنوار البدرين) وقيمته التاريخية

يُعد الشيخ علي بن حسن البلادي (ت ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢م) أحد أبرز من أرخ للحياة العلمية في البحرين من خلال كتابه "أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين" الذي يعد من أهم الكتب التي تناولت تاريخ رجال المؤسسة والنشاط الديني في هذه المنطقة التي كانت تعرف تاريخياً بالبحرين الكبرى.

ومخطوطات كتاب (انوار البدرين) وصلت الى أقاصي الدنيا، ووجدت لها مكاناً بارزاً في ارفف مكتبات اهل العلم في العراق وايران والمنطقة الشرقية، المسرح التقليدي لهجرة أهل البحرين، خصوصاً وأن الشيخ البلادي سمح باستنساخ كتابه وعدد من مؤلفاته ورسائلته، ومن أبرز مخطوطات الكتاب النسخة المحفوظة في خزانة مكتبة السيد حسن صدر الدين (ت ١٩٣١م)، وهو من أهل الكاظمية، وهي بخط المؤلف كما ذكر الشيخ الطهراني (ت ١٩٧٠م) في كتابه "الذريعة الى تصانيف الشيعة". بالاضافة الى نسخة اخرى تلقاها السيد محسن الامين (ت ١٩٥١م). من أحد احفاد المؤلف.

الشيخ البلادي، فقيه وشاعر، وهو من مواليد البلاد القديم التي كانت عاصمة البلاد ذات الماضي الروحي والاجتماعي والعلمي الضارب في

جذور التاريخ، توفي والده وله ثماني سناوت، وكان قد حفظ القرآن، هاجرت به والدته الى القطيف في المنطقة الشرقية وله احد عشر سنة، بسبب اضطراب الاحوال في البلاد والاحداث التي تزامنت مع مقتل الحاكم، ولهجرة البحرينيين للقطيف حكاية تستحق الرواية حقاً. في القطيف حظي برعاية الفقيه أحمد بن صالح آل طعان (ت ١٣١٥ه / ١٨٩٧م) وعليه درس المقدمات من علوم عربية وشيء من الكلام والفقه.

ارتحل الى النجف وفيها تابع دراسته على محمد طه نجف (ت ١٩٠٥م) ومحمد حسين الكاظمي (ت ١٨٩٠م) ومحمود محمد ذهب (ت ١٩٠٦م) وغيرهم ومرتضى مهدي الكشميري النجفي، وحسن بن مطر الجزائري.

اشتهر بتأليفه البلادي بكتابه ذائع الصيت "كتاب أنوار البدرين ومطلع النيرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين" الذي ساهم في توثيق سِيَرْ الكثير من علماء الشيعة في القطيف والأحساء والبحرين؛ وخصوصًا الذين كانوا في زمانه والذين سبقوه.

نقل الشيخ البلادي أنّ ولادته كانت سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٨م في قرية البلاد القديم في شمال البحرين، وقد توفي والده سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م في طريق ذهابه للحج وزيارة المدينة المنورة، وقد هاجر مع والدته سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م إلى القطيف.

يقول الشيخ البلادي ناقلاً قصة هجرته إلى القطيف: "حتى وقعت الواقعة العظيمة على بلادنا البحرين سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧م التي قتل فيها

حاكمها (علي بن خليفة) وغيره فتفرقت أهلها في الأقطار وتشتتوا في الديار فكنت ممن رمته مناجيق الأقضية والأقدار وقذفته نون الآونة والأخطار في بلاد القطيف مع الوالدة المقدسة". وقد استوطن قرية القديح في القطيف وتوفي في كربلاء ودفن فيها.

وضع الشيخ البلادي كتابه استجابة لرغبة أستاذه الشيخ محمد صالح بن الشيخ أحمد بن صالح الستري، فقد سأله الشيخ محمد أن يكتب "كتاباً كاملاً ودستوراً حافلاً لترجمة علماء البحرين وفقهائها وأدبائها وفضلائها مع ذكر مصنفاتهم ورسائلهم وما يدخل في هذا الشأن ويحوم حول هذا الميدان مما بلغه علمي وأحاط به اطلاعي وفهمي وان كان قليلاً من كثير ونقطة من غدير". ولقد واجه المصنف صعوبات عديدة في تصنيف كتاب معجمي شامل لعلماء البحرين، وهو جهد يفوق قدرة الفرد بامكانيات متواضعة على انجازه في ظروف اجتماعية وسياسية غير مؤاتية، ناهيك عن صعوبة الاتصال المباشر بعلماء البحرين لـ "لتشتت أهلها في البلدان بما لعبت بهم ايدي الزمان، وما نالوه من البلاء والهوان من أهل الجور والعدوان، والحوادث والوقائع التي أخلت بهم الأوطان، وبددت شملهم في كل مكان (...) حتى بلغ الحال أن كثيراً من الأولاد لم يعلموا بآثار آبائهم، ولم يدروا بأنسابهم وأقاربهم".

ولقد رتب المصنف الشيخ علي البلادي كتابه في ثلاثة أبواب وخاتمة، ويظهر الكتاب في مقدمة تضمنت معلومات وافية عن البحرين ومدنها الثلاث إجمالاً، وفي الباب الاول في ترجمة علماء البحرين وهي

جزيرة أوال، وعلى معطيات هذا الباب يستند هذا البحث. وفي الباب الثاني قدم فيه ترجمته لعلماء القطيف (الخط)، و في الباب الثالث في ترجمة علماء الاحساء (هجر). و تضمنت الخاتمة أربعين حديثاً نبوياً.

يتميز كتاب (أنوار البدرين) بوصفه كتاب تراجم لعدد من أدباء البحرين الامامية وشعراءها ومفكريها في عصور مختلفة. و يولي البلادي في كتابه أهمية فائقة في رصد النشاط الفكري والادبي الديني، لكنه أغفل التعمق في الحوادث السياسية التي عاشتها المنطقة في الفترة التي يغطيها مكتفياً بالنقولات التي استمدها من كتب التراجم، او تلك التي نُقلت له سماعا، أو اجتهد في نقلها مباشرة كشاهد عيان.

للشيخ البلادي تراث علمي وأدبي لم يكشف النقاب عن جزء كبير منه بعد، ولم يحض بالعناية التي يستحقها، اخراجاً وتحقيقاً، ومن أبرز مؤلفاته :" الحق الواضح في أحوال العبد الصالح"، وهو سيرة (أستاذه ووالد زوجته)، وجديرٌ بالذكر أنه ضَمَّنَ كتابه أنوار البدرين ترجمة لأحمد آل طعان؛ إلّا أنه أفرد ترجمة مستقلة له في هذا الكتاب.

وحواشي وتعليقات على شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد " و"جنات تجري من تحتها الانهار"، وهو ديوان شعره. و"جواهر المنظوم في معرفة المهيمن القيوم" وهو منظومة في الاصول العقيدية، و منظومة "جواهر الزواجر في معرفة الكبائر"، ومنظومة "جامعة الابواب لمن هم لله خير باب"، والاربعون حديثاً"، و"رياض الاتقياء الورعين في شرح الاربعين وخاتمة الاربعين" وغيرها من العناوين.

لقد كان التراث الادبي والعلمي الذي خلفه الشيخ البلادي متنوع ويلامس هموم عقيدية ودينية كانت تتناسب واهتمام عصره، ولكن يبقى الكتاب الابرز الذي وضعه الشيخ البلادي، وعمّق تخليد شخصيته العلمية هو كتاب "أنوار البدرين" الذي قام بها الاستاذ عبدالكريم محمد علي البلادي، أحد أحفاد الشيخ، والكتاب بذل فيه صاحبه جهدا مشكور في إخراج هذا السفر النفيس وتحقيقه بشكل انعكس في تضاعف حجم الكتاب ليصل الى ١٠٦٦ صفحة، علاوة على صفحات الفهارس التي تبلغ ١٩٨، علماً بأن النسخة المطبوعة والمتداولة من الكتاب لاتتعدى ٣٦٠ صفحة.

وحيث أن الشيخ علي أديب و شاعر من الطراز القديم، فان أدبه النثري لم يخرج عن الموضوعات التقليدية المعروفة لدى أدباء المدرسة القديمة، فحفلت نصوصه بعنصر التتشويق للإقبال على الآخرة و تخويف من التعرض للدنيا، و الحث على أداء الواجبات و تجنب ارتكاب المحرمات، أما شعره فلم يكن فيه ثمة تجدد عن شعر أهل القرن الماضي و قد وقف حياته الأدبية على خدمة أهل البيت و مدائحهم و مراثيهمِ، و لم يتعرض لسواهم إلا لماما.

هذه دعوة مفتوحة لدراسة التراث العلمي لعلماء البحرين، ويأتي على قائمة هذه التراث كتاب الشيخ البلادي (انوار البدرين) الذي يعتبر سجلاً حافلاً بالنشاط العلمي والادبي لمنطقة عانت كثيراً من التهميش والاستضعاف.

(برهان) السيد هاشم

لايزال الجزء الأكبر من تراث علماء البحرين العلمي رهين الاهمال والتجاهل، إهمالاً يتخذ اكثر من شكل ويطال اكثر من مستوى، سيقول البعض إنها ليست أولوية مرحلة، وسأقول بأن التراث العلمي لأي أمة وشعب لايمكن أن يخضع لمزاجيات الاحداث المرحلية وتقلبات الحدث السياسي، إلا اذا اعتبرناه على الهامش شأناً وضيعاً لايستدعي منا إلتفاتة الى حين يصفو مزاجنا ونتخلص من جميع مشاكلنا.

السيد هاشم البحراني (ت: ١١٠٩هـ / ١٦٩٧م) واحد من مفاخر البحرين الكبار، ومن علماء الفترة من منتصف القرن الحادي عشر حتى أوائل القرن الثاني عشر / السابع عشر الميلادي، ولد في أسرة باذخة في المجد، كريمة المحتد، هي عائلة السادة القارونية من أشرف الأسر البحرينية وأكثرها وجاهة، وفيهم يقول شاعر البحرين الكبير أبو البحر الخطي (ت ١٠٢٨هـ / ١٦١٩):

آل قارون لا كبا بكم الدهر ولا زلتم رؤوس الرؤوس

ترك السيد هاشم تراث علمياً ضخما، وحسبما يشير الميرزا عبد الله الأفندي (ت ١١٣٠ هـ / ١٧١٨م) فإن له من المؤلفات خمسة وسبعين مؤلفا

ما بين كبير و وسيط، وأكثرها في العلوم الدينية" وبعض هذه الكتب والمصنفات كان يؤلفها السيد هاشم لشخصيات من خارج البلاد، ولا يكتب لاهل البلد أن ينتفعوا بها، وفي ظل بدائية وسائل النشر العلمي، لم يكن يكتب لهذه المصنفات أن تُعرف في البحرين إلا بعد عقود طويلة. لكن الأفندي يحدثنا أنه قد رأى أغلب مؤلفاته عند ولده السيد محسن في أصبهان.

شخصية علمية بارزة كالشيخ يوسف العصفور (ت ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م) يعتبر السيد هاشم محدّثاً جامعاً متتبعاً للاخبار لم يسبقه سوى العلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩م) بل أن السيد هاشم البحراني يظهر في بعض كتبه ككتاب (معالم الزلفى في معارف النشأة الأولى والأخرى) "ينقل فيه عن كتب غريبة ليست مذكورة في البحار". لم يكن السيد هاشم منتجاً نشطاً للمصنفات ومنشغلاً بالبحث العلمي، بل كان زعيماً دينياً واجتماعياً يشار له بالبنان، وقد انتهت إليه الزعامة الدينية في البلاد بعد الشيخ محمد بن ماجد وتسنم بعده منصب القضاء الأعلى.

أنجبت أسرة القاروني عدد كبير من العلماء الأفذاذ، فمن هذه الأسرة خرج الشيخ عبدالله بن سليمان القاروني المعاصر للسيد ماجد العريضي الجدحفصي الذي كان يسكن قرية كرانه بينما كان أخويه يقطنان في توبلي معقل الأسرة القارونية في البحرين.

وقد تفرعت من الأسرة القارونية أسر؛ منها أسرة (آل عبدالجبار) ومن فروعهم آل الساري وهم من سادات سار ، كما سكنت عوائل منهم

قرية السنابس وغيرها من القرى. وقد اتسع نطاق حراكهم البشري ليتاخم حدود العراق وايران، فقطن بعضهم مناطق شط العرب في عبادان وغيرها.

من تفرعات هذه الاسرة (آل التوبلي) البحراني، التي نزح عميدهم السيد عبدالقاهر من بلاد البحرين وسكن بلدة لنجة، وما زالت بقايا هذه الاسرة العلوية الموسوية تقطن فيها، وقد تفرق بعضهم في دول الخليج كالامارات والعربية وغيرها. ومن أبرز علماء هذه الاسرة السيد عبدالقاهر بن السيد كاظم التوبلي (ت ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦م). والسيد شبر بن السيد علي بن السيد كاظم التوبلي (ت ١٣٣٧ هـ / ١٩١٨م).

ومن هذه الاسرة العلمية (آل العدناني) الموسوي التي برز منها السيد عدنان بن علوي الموسوي (ت ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨) الذي تسلم القضاء، وترأس ونظم الاوقاف الجعفرية وأموال القاصرين في البحرين.

ومن فروع الاسرة (آل الكتكتاني) التوبلي التي هي عائلة العلامة السيد هاشم نفسه، إخوته واولاده وابناء عمومته، وقد دفن اخوته وقد كانوا من أهل العلم الى جوار ه قرب مسجده في توبلي، وهم السيد كاظم والسيد جعفر والسيد أحمد.

أما أبناؤه، فقد هاجروا بعد وفاة والدهم الى بلاد فارس، وأقاموا في بهبهان وغيرها، واشتغلوا بنشر العلوم الدينية، وعرفوا هناك ب "البرهاني" نسبة الى تفسيره الذائع الصيت (البرهان في تفسير القرآن)، وهم: السيد محسن المتوطن أصفهان وكان يحتفظ بأكثر مؤلفات والده، والسيد عيسى والسيد علي الذي هاجر من أصفهان الى بلدة خنج على الساحل الفارسي،

والسيد محمد جواد، والسيد ابراهيم.

وقد تخرج على يديه جمع كبير من العلماء أبرزهم الشيخ سليمان الماحوزي (ت ١١٢١هـ / ١٧٠٩م). وقد طاف تراثه العلمي المخطوط أشهر المكتبات الخطية في العالم الاسلامي، وتناهبته عواصم المعرفة ومدن العلم، ولفت نظري مثلاً ان مخطوطات مصنفاته حوتها المكتبات التالية: المكتبات الخطية في مكتبة المرعشي النجفي في مدينة قم، ومكتبة البرهان في سبزوار، والمكتبة الرضوية في مشهد، ومكتبة ميرزا عبد الرزاق المحدث الحائري في همدان، ومكتبات خاصة في أصفهان. وخزانة السيد هبة الدين الشهرستاني (ت ١٩٦٧) بالكاظمية، وخزانة سبهسالار في طهران، ومكتبة آل عصفور في بوشهر، ومكتبة محمد الطهراني في سامراء، ومكتبة السيد عباس الكاشاني وخزانة بزرك الطهراني في كربلاء، ومكتبة الشيخ عبد الحسين الطهراني الخاصة، و مكتبة الحسن صدر الدين بالكاظمية.

أما في النجف فقد حوت مكتباتها مصنفات السيد هاشم ومن أبرز هذه المكتبات: خزانة الشيخ علي كاشف الغطاء وخزانة الحاج مولى علي محمد النجف آبادي و المكتبة الحسينية، إضافة الى مكتبة المدرسة الفيضية بقم، وورثة العلامة المجلسي.

هذا الرجل الذي كان يكتب بخط يده، حتى إذا طوقه المرض وفتكت به أوجاع المرض؛ صار يملي كتبه على كاتب كما حدث في آخر كتبه (تفضيل الامام علي) الذي فرغ منه سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٦م.

هنا دعوة لإعادة الاعتبار لهذا الرجل الفذ، إعادة النظر في تراثه

العلمي العظيم، تدارسه، نشره، إجراء الدراسات حوله، ومحاولة الكشف عن الجوانب المجهولة من تاريخه وظروف عصره. جمع تراثه المخطوط من مكتبات العالم، وإتاحته للباحثين والمهتمين لتكون هذه الذخائر مصدراً من مصادر المعرفة عن هذا التراث العربي والاسلامي الغائب والمغيب.

جليل منصور العريض عبقرية النهج

لم أكن محظوظاً كغيري من آلاف الطلبة البحرينيين الذي أكملوا تعليمهم الأكاديمي في جامعة البحرين واستفادوا من النخبة الوطنية الرائعة التي كانت تطرّز «العقد الفريد» للهيئة التعليمية في الجامعة، وعلى رأس هذه الكوكبة المتميزة من التربويين عبدالجليل منصور العريض (١٩٤٤ — ٢٠١٤)، أحد فرسان هيئة التدريس بقسم اللغة العربية بالجامعة، حيث كان أستاذاً للأدب العربي، وكان نجماً ساطعاً في المشهد الثقافي والأدبي البحريني. لكن اسمه ظلّ يتردد كثيراً على مسمعي في المسامرات والأحاديث التي كنا وبعض الاخوة نخوض فيها في سياق الكلام عن الحركة الفكرية والأدبية في البحرين، بوصفه أحد أبرز الأكاديميين المهتمين بالتراث الأدبي البحريني، وبالشعر العربي القديم بشقيه الجاهلي والإسلامي.

قبيل وفاته بنحو أسبوع، اتصلت بحرمه السيدة أنيسة المنصور لعيادته، لكنها أخبرتني بانشغالهم بترتيب رحلة العلاج، مقترحةً أن تتم الزيارة بعد رحلتهم العلاجية، لكن قضاء الله كان أسبق، فرحل عن عالمنا في ٣٠ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٤، مخلّفاً وراءه صيتاً علمياً وأخلاقياً وافراً، ومكتبة

ضخمة، وأبحاثاً علميّة لم تجد طريقها للنشر.

ظل العريّض وفيّاً لتخصصه الذي أحبه وحبّب إليه، وقد استطاع عبر السنوات الثلاثين التي قضاها أستاذاً للأدب العربي، أن ينقل هذا العشق للعربية لأكثر من جيل من طلبة الجامعة، ممن عبر منهم قاعات درسه، واقتربوا منه إنسانياً ولمسوا فيه هذا الفيض الأبوي الحانيّ، والأريحية العذبة، وباب مكتبه المشرع دائماً أمام طلبته ومحبيه. ولئن كان رحمه الله شبه غائب عن المشهد الإعلامي، فلأنه كان شديد الإيمان بأهمية الانصراف لمسئوليته كأستاذ جامعي، تتسع اختصاصاته وشواغله لأكبر من الحدود الميتة لقاعة الدرس وأسوار الجامعة. فتعهد أجيالاً كثيرة بالعلم والمعرفة، وكان يولي «مكتبته الخاصة» التي جمع نفائسها من عواصم الشرق والغرب أهمية خاصة من وقته واهتماماته.

لقد أهلّته طول المدة التي قضايا أستاذاً وباحثاً وتربوياً إلى تقديم يد العون لكثيرٍ من الباحثين وطلبة الدراسات العليا، كما كانت أعماله العلميّة المشتركة مع رفيقة رحلة الحياة والعلم السيدة أنيسة المنصور تشهد لهما بعلوّ الكعب في مضمار البحث الأدبي وتحقيق النصوص، وهو شغفٌ طبع مسيرتهما العلمية الطويلة.

نسج العريض علاقاته العلميّة والإنسانية مع المؤسسات والشخصيات ومراكز البحث العلميّ، وقدّم عدّة دورات داخلية لتطوير معلّمي اللغة العربيّة، وساهم في تأليف كتب نصوص المرحلة الإعدادية في العام ١٩٧٤، وشارك في عدّة مؤتمرات بحرينية وإقليمية، وشارك في تحكيم بعض

البحوث لدوريات محكّمة، وأشرف وناقش بحوثاً علمية في البحرين وبيروت.

بين العريض وشيخه الفيلسوف كمال الدين ميثم بن علي البحراني (ت ٦٩٩ هـ/ ١٥٥٩م) أكثر من ملامح شبه وتقارب، فهو ابن لهذا التراث العلمي الخالد، كلاهما وقع في غرام كلام الإمام علي بن أبي طالب، وكلاهما سلك دروب الهجرة لطلب العلم، وكلاهما أيضاً اختار الإنتاج العلمي سبيلاً للتعبير عن توتره الإبداعي ومسئوليته الاجتماعية.

وكما رحل الشيخ ميثم إلى بغداد، عاصمة الثقافة العربية والاسلامية الكبرى، وتيسَّر له أن يتبادل الرأي مع كبار العلماء في مختلف الميادين المعرفية، لكنه سرعان ما اعتزل الأقران لانشغالهم بالمظهر قبل المخبر، وانكبَّ على الكتب تحصيلاً وتأليفاً؛ كذلك كان العريض الذي تعدّدت مدن ومرافيء العلم التي أخذ عنها، فمن بيروت عروسة المتوسط (البكالوريوس) إلى الاغتراف من نيل القاهرة (الدبلوم العالي في الدراسات اللغوية والأدبية)، وصولاً إلى تونس التي تستند إلى تراث فاطمي عريق (دكتوراه الحلقة الثالثة، دكتوراه الدولة)، بنى العريض شخصيته العلمية التي شاركت في صياغتها مدن وخبرات وعلاقات إنسانية ساهمت في إضفاء جماليتها على تكوين أفقه المنفتح وعقله الجوّاب وفكره المترصد.

كانت أطروحة العريّض في مرحلة دكتوراه الدولة في الأدب في «فكر الإمام علي كما يبدو من نهج البلاغة»، ١٩٩٠) واستغرق إعدادها خمس سنوات قضى منها سنتين كاملتين في تثبيت أسانيد النهج. وقد سلك

في دراسته منهجاً متكاملاً، فكان لتوثيق النصوص والتاريخ والدراسة الفنية مكانتها جميعاً في الباب الأول، كما استوعب المنهج التاريخي في تحليل النصوص عندما درس الفكر السياسي في النهج، وأخذ المنهج الاجتماعي مكانته، وتصدّرت قضايا الفلسفة والعقيدة مكانتها حين تناول الجانب الكلامي. فيما كان المنهج الفني بقضاياه الأسلوبية والبلاغية حاضراً بقوة، وقد استطاع أن يناغم بين تلك المناهج المختلفة بتوظيفها في دراسته لنهج البلاغة.

والنتيجة التي توصل إليها في دراسته لنهج البلاغة، النص الذي أثيرت حوله الكثير من الشبهات، هي ترجيح نسبتها إلى علي، لكون تلك النصوص في مجملها نابعةٌ من معين فكري واحد، بالإضافة إلى القرائن التاريخية والأدلة التوثيقية والشواهد الإسنادية التي تعضد نسبة تلك النصوص إلى علي.

حصل العريض على الدبلوم العالي في الأدب واللغة من معهد البحوث والدراسات الأدبيّة بالقاهرة (١٩٧٥)، ثم دكتوراه الحلقة الثالثة في الأدب من جامعة تونس الأولى (١٩٨٥) عن أطروحته «التفجع في شعر الشريف الرضي».

وكتب مجموعة أبحاث ودراسات أهمها «صحافة البحرين تأريخها، توصيفها»، نشرتها المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم ضمن كتاب «دراسات في أدب البحرين» (القاهرة ١٩٧٩).

ولعل أبرز عمل منشور على نطاق واسع، تحقيقه لديوان الشيخ جعفر

الخطي (مع أنيسة المنصور)، الصادر عن مؤسسة البابطين بدولة الكويت (٢٠٠٢) ونتيجة لقصر المدة الممنوحة لهما في إعداد الدراسة وتحقيق الديوان (ثلاثة شهور)، ظهر العمل ببعض الأخطاء التي تستدعي إعادة طباعة العمل لتلافي هذه الهنات التي ظهر بها الديوان.

كما ساهم بنشر أكثر من تسعة مداخل لشعراء من البحرين في «موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين» التي أصدرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس. وكان أحد خمسة بحرينيين عُهدت إليهم مسئولية إعداد وجمع المادة العلمية لمعجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وتستعد أنيسة المنصور لطباعة كتابهما المشترك «قراءة في أدب البحرين»، كما كانا قد شرعا قبل نحو ٥ سنوات في تحقيق كتاب «سلافة العصر في محاسن أعيان العصر» للسيد علي خان المدني (ت ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) وهو كتاب يوثّق لشعراء العربية في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي اعتماداً على سبع نسخ خطية.

هذه ليست سيرةً لرجل قدّم الكثير للبحرين، وإنما دعوةٌ لإنصاف رجال الفكر والتعليم في البلد لمن يعنيهم الأمر.

حقبة بلجريف وتوابعها

يُروي أن تشالز بلجريف مستشار حكومة البحرين (١٩٢٦-١٩٥٧) قطع عن الدكتور حسين البحارنة المعونة المالية بعد سنة من الدراسة في بريطانيا التي كانت قد سافر لها بمساندة المعهد البريطاني، ونصحه بلجريف بالعودة الى البحرين وصرف النظر عن إكمال دراسته لنيل الدكتوراه قائلا : "إن البحرين سوف لن تحتاج الى خريج دكتوراه في القانون خلال المائة سنة القادمة !!

لم تكن هذه القصة التي رواها الاستاذ تقي محمد البحارنة نشازاً في سيرة المستشار الذي دأب على استرجاع البعثات الطلابية التعليمية بعد سنة أو سنتين من الدراسة في الخارج كما حصل في بعثة الجامعة الأمريكية أوائل الثلاثينات ثم بعثات الدراسة الى مصر في منتصف الاربعينات، اذ كانت نظرة المستشار الضيقة تحصر التعليم المناسب للبحرينيين في المرحلتين الأبتدائية والثانوية فقط، وتنظر بعين الريبة والشك الى التعليم الجامعي الذي يهئ الطلاب لممارسة السياسة وإثارة المتاعب للحكومة حسب اعتقاده.

بعد وصول بلجريف (ت ١٩٧٠) للبحرين بستة أشهر أصبح قائداً عاماً

للشرطة ورئيسا للعدل ومراقبا عاما للإدارة المالية والصحة والاشغال، وباختصار أصبح هو الحاكم الفعلي للبحرين خلال الفترة من ١٩٢٦ حتى عام ١٩٥٧. الغريب انه لم يستعن بخبراء او فنيين لمساعدته في صلاحياته المتعددة، وانما اقتصر على طبقة دنيا من الموظفين الهنود الذين استقدمهم من بقايا الادارة البريطانية في الهند بعد استقلالها في عام ١٩٤٧. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد اصابته اللوثة العربية فيما يبدوا وأخذ يعمل على "التوريث" وحاول أن يعد إبنه جيمس لكي يخلفه في منصبه، اذ افسح له مجالاً كبيرا للمشاركة معه في شئون الحكم.

من هنا وجهت الحركة الوطنية في خمسينيات القرن الماضي هجومها العنيف على المستشار الذي غالى في صلاحياته الى الحد الذي مارس فيها السلطتين التنفيذية والقضائية في آن واحد!! فالحركات الوطنية لاتأتي بالصدفة ولا عبثاً.

وكان بوصفه مستشاراً مالياً يوزع دخل البحرين من النفط على أساس ثلث للحاكم، وثلث يودع في البنوك البريطانية، والثلث الآخر للاسرة الحاكمة وللانفاق نظرياً على المرافق العامة. من هنا، شنت الحركة الوطنية حملة شعواء على الفساد الاداري والمالي الناجم عن عدم انتهاج سياسة تستهدف الصالح العام. فدائرة المعارف (وزارة التربية حاليا) على سبيل المثال لم تنتهج سياسة خاصة للتوسع في عدد المدارس او ايفاد البعثات الحكومية، انما على العكس، كان بلجريف يتعمد التقتير عليها، حتى انه خلال ثلاثين سنة من حكم بلجريف (١٩٢٦-١٩٥٧) لم يتخرج من ابناء

البحرين سوى ثلاثة خريجين فقط عن طريق البعثات الحكومية!! واقتصرت السياسية التعليمية على مكافحة الأمية في المدارس الريفية ولم يكن في البلاد سوى اربع مدارس ابتدائية للبنين وعدد من المدارس الريفية ومدرسة ثانوية واحدة، رغم التقدم الملحوظ في موارد الدخل نتيجة استخراج النفط منذ عام ١٩٣٤.

وعندما رفعت الحركة الوطنية في الخمسينيات مطالبها بإنشاء مجلس وطني يمثل أهالي البلاد تمثيلاً حرا الى جانب وضع قانون عام للبحرين وتنظيم المحاكم والشرطة وتشكيل إدارات وطنية للصحة والمعارف والبلديات ووجهت هذه المطالب بحملة تشكيك وتخوين. وهنا من المناسب ايراد ما ذكر ه بالنص الدكتور جمال زكريا قاسم استاذ التاريخ بجامعة عين شمس في كتابه القيم "تاريخ الخليج العربي" يقول في المجلد الرابع ما يلي :"لم تلتفت الحكومة لهذه المطالب المتواضعة وانما عمدت الى فتح المجال امام جماعات من البدو في بعض المناطق القريبة من البحرين للاحتشاد في مناطق معينة من المنامة ارهابا للوطنيين، كما بادر بلجريف بتأليب شركة بابكو بهدف اتباع سياسة انتقامية ضد العمال الذين آزرو الحركة الوطنية، وذلك بطردهم من العمل بحجة انقطاعهم عن العمل كوسيلة للتخلص من الذين اشتركوا في الاضراب العام". وما أشبه اليوم بالبارحة.

وكان من الدعايات التي وجهتها السلطات البريطانية ضد مطالب الحركة الوطنية انها حركة "طائفية"!! والمفارقة أن من شارك أشواق هذه

الحركة الوطنية وساهم فيها باليد واللسان هو اليوم يمارس نفس الدور الدعائي المضاد للاصلاح والذي اكتوى منه هو ورفاق النضال والتحرير في الخمسينات، وما عشت أراك الدهر عجبا.

وقد تناقلت بعض الصحف الاجنبية في الخمسينات هذه الدعاية التي قصد بها الاساءة الى طبيعة الحركة، ولذلك وجد زعماء الحركة الوطنية أن أكبر دليل يمكن أن يفضح زيف وفساد هذه الدعاية هو إظهار الوحدة الوطنية بشكل عملي يدحض هذه الاتهامات، وهو ما مهد لولادة هيئة الاتحاد الوطني في ١٦ اكتوبر / تشرين الاول ١٩٥٤كأول حزب سياسي على مستوى الخليج العربي.

في المحصلة، إن حقبة بلجريف هي حقبة؛ رغم ايجابياتها على صعيد تأسيس أجهزة الدولة الحديثة والتنظيمات الادارية، إلا انها حقبة سوداء بالمنظور السياسي، فقد كانت البلد تفتقد السيادة على نفسها، وكانت هناء ازدواجية في الحكم، وكان هناك فساد إداري ومالي، و إستبداد سياسي وغياب اي شكل من أشكال المحاسبة للمتورطين في الفساد والتعدي على الاموال العامة، لقد كانت هناك عقلية مشاركة الناس في صناعة القرار ، وهي أوضاع لم تتغير الكثير من ملامحها بعد رحيل بلجريف عن البلاد ب ٥٧ عاماً!!

ان جزء من الازمة السياسية الخانقة التي نعيشها تتمثل بشكل كبير في الارث الذي خلفه بلجريف وساهم في ترسيخه كنمط متخلف من اسلوب ادارة الحكم، فقد كان مديراً ناجحاً بإمكانات سياسية هشة، وكان مدقق

مالي أكثر منه رجل دولة، واذا كان مقبولاً أن يتصرف رجل بريطاني من عهد الحماية بعقلية تسلطية استعمارية، فإن من المستغرب أن لايتغير الحال علينا كثيراً بعد ٤٢ عاماً من الاستقلال.

لم يكن بلجريف ملاكاً وديعاً يرفل تاريخه المهني بالانجازات العظيمة، فقد كانت له أخطاء سياسية فادحة لازالت فواعلها تعتمل في بلد صغير يجتر أخطاء الماضي دون أن يتجاوزها.

محمد آل مكباس "سادن" التراث البحراني

لقـد دون ابـن سـلام الجمحـي (ت ٢٣٢ هــ / ٨٤٧ م) شـهادته عـن البحرين التاريخية الكبرى فقـال :"فـي البحـرين شـعر كثيـر جيـد وفـصاحة" وعندما قرر البحاثة العراقي المعروف الـدكتور حـسين علـي المحفـوظ (ت ٢٠٠٩) ان يضع دراسـة عـن مـصادر دراسـة تـراث البحـرين كتـب ان :"فـي البحرين علماً جما، وأدباً عظيماً وتراثاً كبيراً ومؤلفات تملأ الخزائن."

اثنان وعـشرون عامًـا هـي رحلتـه فـي تحقيـق التـراث العلمـي لفقهـاء البحرين الأقدمين، وقد بدأت هذه الرحلة مع كتاب "مسألة مقدمة الواجب" للعلامة السيد ماجد بن هاشم الجدحفصي البحرانـي (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٨ م) في العام ١٩٩٠ م. ثم تواصلت وتوالت جهوده في هـذا المـضمار ، حتـى حقق ما يزيد إلى اثني عـشر مخطوطًـا، بعـضها كـان متعـدد الأجـزاء بـسبب حجمه الكبير، كمصنفات المحقـق البحرانـي المعـروف الـشيخ سـليمان بـن عبدالله الماحوزي (ت ١١٢١هـ / ١٧٠٩ م) والتي تقـع فـي خمـسة وعـشرين مجلدًا، وكذلك كتـاب "سلاسـل الحديـد فـي تقييـد أهـل التقليـد" للعلامـة الكبير أبوالمكارم هاشم بن سليمان التوبلاني البحراني (ت ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م)، وكتاب "مختصر في تعريف أحـوال سـادة الأنـام محمـد وآلـه" للعلامـة

الشيخ راشد بن إبراهيم بن إسحاق الجزيري البحراني (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م). بالإضافة إلى مجموعة من التحقيقات كـ "الذخائر في جغرافيا البنادر والجزائر» للشيخ محمد علي بن محمد تقي آل عصفور البحراني، و"معين النبيه في بيان رجال من لا يحضره الفقيه"، للشيخ ياسين بن صلاح الدين بن علي بن ناصر بن علي البلادي البحراني، و"سلاسل الحديد في تقييد بن أبي الحديد»، للشيخ يوسف العصفور صاحب "الحدائق"، و"ثبات قلب السائل في جواب التسع المسائل" للعلامة الشيخ عبدالله بن صالح السماهيجي (ت ١١٣٥ هـ/ ١٧٢٣ م) وغيرها من المصنفات النفيسة الأخرى، لعلماء أهل البحرين."

ويحتفظ الشيخ المكباس في مكتبته الخاصة ما يقارب الـ ٥٠٠ مخطوط من بين ما يقارب الثلاثة آلاف مخطوطات، فالشيخ سليمان الماحوزي وحده لديه ما يقرب الـ ٣٠٠ مخطوطاً!!

وحيث أن هجرة علماء البحرين الى ايران على اختلاف دوافعها حدثت على مراحل تاريخية طويلة، فإن من الطبيعي ان تضم ايران عدداً وافراً من نفائس المخطوطات العلمية البحرينية. نجدها متناثرة في مدن ايرانية: إصفهان وشيراز وهمدان وطهران ويزد وتبريز ومشهد وبوشهر وقم وقزوين ورشت وزنجان .

ويؤكد أحد الباحثين والمهتمين بتراث البحرين العلمي أن ايران لوحدها تضم "مايزيد على الثمانين بالمائة من تراث علماء البحرين، ولا تكاد تجد مكتبة مخطوطات في ايران تخلو من نسخة خطية لأحد علماء

البحرين التي كانت تشمل جزيرة البحرين المسماة بأوال والخط وهجر أو ما يعرف اليوم بالقطيف والأحساء؛ وأن المكتبة الغربية في مدرسة الآخوند في مدينة همدان تضم مايزيد على العشرة آلاف كتاب خطي احتضنت بين نسخها مجموعة نفيسة هامة متنوعة من كتب علماء البحرين الخطية نسرد ذكر مصنفيها". (من كلمة للشيخ محسن آل عصفور في مؤتمر نظمته جمعية الآثار والمفاخر الثقافية في إيران في مايو ٢٠٠٧.

ولايقتصر تواجد المخطوط البحريني على ايران بالطبع، إذ يوجد تراث علمي بحريني لايزال مجهولاً ولم ينفض عنه الغبار في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة ومدينة الحلة وسواها بالعراق. كذالك يوجد تراث علمي بحريني في العاصمة البريطانية لندن، والعاصمة الألمانية برلين، و في تركيا و دمشق، و بالمطبع المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية وأيضًا في المكتبة الخديوية بمصر و مكتبة الجامع الكبير باليمن.

والشيخ المكباس المولود عام ١٩٦٧ درس في المدارس الحكومية، ثم التحق بجامعة البترول والمعادن في الظهران في المملكة العربية السعودية، ومنها لكلية الخليج التكنولوجية ولم يكمل الدراسة الجامعية، اذ سرعان ما التحق بالحوزة العلمية في قم المقدسة، وحاز على شهادة البكالوريوس من الحوزة العلمية. وقد نشر مجموعة من الابحاث في بعض الدوريات والمجلات. وبالاضافة الى ما ذكر ، فإن له من المؤلفات والتحقيقات الشيخ "اجازات علماء البحرين" و "فوائد الاسفار في وصف مخطوطات علماء البحرين" و "مراسلات علماء البحرين" و"موسوعة شعراء

البحرين" (٤ اجزاء) وغيرها.

أما ما ينتظر الطبع فهو كثير أبرزه: "القرآن وعلومه في تراث علماء البحرين" و"المدارس العلمية في البحرين" وعمله التحقيقي الضخم "مصنفات المحقق البحراني الشيخ سليمان الماحوزي (٢٥ مجلداً) و "مراقد علماء البحرين في الخارج" و "موسوعة أوال الكبرى"وغيرها.

وقد صدر مؤخراً للمكباس (موسوعة مقتل الامام الحسين) وهي موسوعة توثيقية لواقعة الطف شملت المقاتل التي صنفت منذ القرن الاول الى القرن العاشر الهجري.

وتقع الموسوعة التي تعد أول موسوعة تضم أهم الكتب الكلاسيكية التي تناولت واقعة الطف في مجلدين و ١٨٧٨صفحة من القطع الكبيرة، وشملت ٣١ من كتب المقاتل في الفترة التي تغطيها الموسوعة (القرن الاول الى القرن العاشر الهجري.

وقد صدرت الموسوعة عن دار ال مكباس للطباعة والنشر، وهي الاصدار التاسع عشر في سياق إهتمام الدار بإحياء التراث الاسلامي مع عناية خاصة بتراث علماء البحرين، وجاء هذا الاصدار ضمن سلسلة إصدارات أخرجتها الدار في السنوات الاخيرة.

يؤكد المكباس "أنني أمام مسئولية وطنية وعلمية ودينية وتاريخية وضميرية قبل كل شيء، تحتم عليّ حفظ هذا الكم الهائل من التراث العلمي الغزير، الذي تركه لنا علماء البحرين الكبار منذ مئات السنين."

اعتقد أن مسئولية الحوزات العلمية في البحرين – وقد مر على

تأسيس بعضها أكثر من خمسين عاماً في ظل خمول ثقافي غير مبرر - والمراكز الثقافية بشقيها الرسمي والاهلي تتمثل في دعم هذه الطاقات المخلصة التي قدمت الكثير ولازالت، و لجنة إحياء التراث في الاوقاف الجعفرية غير معفاة أيضاً من هذه المسئولية فعليها أن تضطلع بدور ملموس في هذا الاتجاه، فقد خطت قبل سنوات خطوات خجول، لكن طموحاتها تقهقرت فيما يبدو، وحفظ التراث العلمي للبلد ليس من الاعمال الترفية بل هو على رأس الاولويات لاي شعب يحترم هويته وتاريخه، خصوصاً وأن هناك من الكفاءات الوطنية من له اليد الطولى في هذا المضمار والشيخ محمد المكباس في رأيي يأتي في صدارة هذه الكفاءات التي تحتاج الى الدعم والمساندة لتشبيك هذه الجهود الفردية المتشظية في إطار مؤسسي جامع.

سنوات زنـجبارية البحرينيون في تنزانيا

تتلاقى الحضارات في جزيرة زنجبار القديمة عبر الوجوه والملامح والحرائر والمسك والبخور والتمور، وتكاد وانت تعبر الازقة الضيقة ودكاكين الصفارين وبسطات البهارات، تكاد تظن أنك في اسواق بغداد الرشيد منزوعة من صفحات الف ليلة وليلة، أزقة لانهاية لتعرجاتها التي تعبق بشذى الماضي البعيد.

لقد اندفع عرب الشمال والجنوب نحو القارة السوداء عندما ذهب العمانيون الى شرق افريقيا وبنوا زنجبار سلطنة لهم، وظل إرثهم هناك حتى الستينات من القرن الماضي عندما دمجت زنجبار في ما هو اليوم تنزانيا.

وحيث أن عرب زنجبار ينقسمون الى "عرب حضارمة" وفدوا من السواحل الجنوبية للجزيرة العربية، و"عرب جز القمر " وهم قليل، و"عرب الساحل" وهم نازحون من سواحل الخليج والجزيرة العربية قبل تأسيس سلطنة زنجبار الحديثة، و"عرب عمان" وهم العرب الذين وفدوا مع السيد سعيد عند انتقاله الى زنجبار وكانت تتألف منهم الطبقة الرئيسية الحاكمة وكبار التجار وملاك الاراضي الزراعية؛ فإن الوجود البحريني في زنجبار

تشكل على الارجح من هذه الفئة تحديدا، قادما اليها من عمان عبر بندر لنجة، والى اليوم فإن "البهارنة" في زنجبار لازال لفظاً شائعاً بين الافارقة التنزانيين للاشارة الى هذه الجالية التي عرفت في المجتمع الزنجباري كأعرق الجاليات العربية وأكثرها تسامحاً.

وعلاوة على الاباضية في زنجبار والتي كانت الأسرة الحاكمة تنتمي لها، فإن فيها عددا غير قليل من الشيعة وهم في أصولهم من مهاجري الهند وايران والبحرين والعراق وعمان، ولهم مسجدان كبيران وأربع حسينيات كبيرة وحوالي عشرين حسينية صغيرة وعدة مدارس.

وقد كشف لي رئيس تحرير مجلة "الموسم" التراثية محمد سعيد الطريحي أن تواجداً مهماً للبحارنة في زنجبار، فقد نجحت سياسة مؤسس الحكم العربي في زنجبار السيد سعيد التي تتسم بكثير من التسامح في جعلها مجتمعاً كوزموبوليتانياً متعدد الأديان والأعراق". وأكد أن الجالية البحرانية "تساهم بشكل كبير في تجارة البلد وصناعته، وهم ينعمون بالاستقرار ومندمجون بشكل كامل في المجتمع الزنجباري، ناهيك عن تمتعهم بالحريات الدينية الواسعة كغيرهم من الأقليات الدينية والمذهبية الأخرى".

وقبل بضع سنوات أشار أحد الصحفيين الى قصة فتاة زنجبارية من أصول بحرينية تدعى "روكي" تدرس "علوم السياسية واقتصاد" في إحدى الجامعات في الدانمارك، للدراسة. و"روكي" هذه ذات الو جه الدائري والهيئة التي تدل على منبتها العربي، وحتى ألوان ملابسها والحلي التي

كانت تتزين بها في المناسبات، لقد كانت حريصة على ارتداء ملابس عربية، وحلي منقوش عليها بعض التعابير السلطانية العمانية.

روكي التي تمثل الجيل الرابع لعائلة بحرينية نزحت من البحرين واستقرت بها عصا الترحال في عمق جزيرة القرنفل، حيث ولدت لاسرة بحرينية حرصت على التشبث بجذورها، "في افريقيا احتفظنا بكل شيء... أنشأنا مدينتنا الخاصة بنا... حافظنا على تقاليدنا وعاداتنا وتراثنا... ومارسنا كل ما كان يمارسه أهلنا في البحرين من مراسم، مما جعل اللهجة البحرينية حية تلهج بها ألستنا جيلا بعد جيل".

و"روكي" (واسمها العربي رقية) هي إبنة الملا خليل بن حسن البحراني أحد خطباء المنبر الحسيني في المجتمع الزنجباري وهو ينحدر من عائلة كانت تسكن في قرية "توبلي" على مقربة من مقام السيدهاشم التوبلاني.

قال لي والدي- تقول روكي - نقلا عن آبائه وأجداده انهم "حين غادروا البحرين منذ عشرات السنين كانت البحرين تتعرض لإحدى الغزوات القاسية، ما دفعهم الى الهجرة أولا إلى بندر عباس في إيران، ثم من هناك هاجروا مرة أخرى إلى عمان حيث تنقلوا بين مطرح وصور، ومن هناك هاجروا إلى أفريقيا، لكن جدي كان قد تزوج من احدى النساء الرومانيات في عمان وعندما وصل افريقيا مع غيره من العائلات البحرينية المهاجرة طلبا للأمن والاستقرار أنشأوا مجتمعهم الخاص".

وبالطبع لايمكن الحديث عن الجالية البحرانية في زنجبار دون

الاشارة الى شخصية الحاج أحمد بن النعمان الكعبي البحراني (ت ١٨٦٧)، المبعوث الخاص للسيد سعيد بن سلطان (ت ١٨٥٦) سلطان مسقط وزنجبار وتوابعهما، الذي انتدب كأول سفير عربي في امريكا في بعثة "للتجارة وحسن النوايا".

شغل ابن النعمان منصب السكرتير الخاص للسيد سعيد بن سلطان، الذي قلّده أمور التجارة وجعله مندوبه الخاص. وقد ظلّ أحمد بن نعمان بعد وفاة السلطان سعيد سكرتيراً خاصاً لخلفه السيد ماجد بن سعيد (ت ١٨٧٠)، وكان لعدد من السنين كاتم أسراره.

عاش أحمد بن النعمان في مالندى كيوبندا، وفي ١٨٦١ بنى البيت الذي عرف باسم مأتم الشيعة، وهو بيت الشيخ أحمد بن النعمان نفسه، حيث كان زعيماً لقبائل الشيعة في شرق افريقيا قبل أن يتزعم «خان علي» صاحب المنطقة المعروفة باسم منطقة الخان (كواخاني).

وهناك صورة فوتوغرافية متداولة لوقفية مأتم حسيني في زنجبار نحتت في العام ١٩٢٥ وفيها: "أوقفه الزعيم المكرم المرحوم القبطان الحاج أحمد بن النعمان الكعبي البحراني كاتب الدولة البوسعيدية ومعتمدها...". وكان هذا المأتم يقع في الطابق السفلي لمنزله الذي لايزال بنيانه موجوداً حتى اليوم، وكانت عائلة الكعبي تقيم في الطابق العلوي من المنزل، ومع الأسف بعد وفاة أسرته لم يعد لهم وجود بسبب رجوع معظم العمانيين إلى عمان عقب ثورة يناير/ كانون الثاني ١٩٦٤ ضد السلطان جمشيد بن عبدالله، وقيام الحكم الجمهوري.

ويعود تاريخ اقامة المآتم الحسينية في زنجبار الى العام ١٨٥٠ في عهد السلطان برغش حيث كان عنده قائم عسكري إيراني أدى له ولبلاده الكثير من الخدمات مما حمل السلطان على أن يبدأ بإقامة المآتم في زنجبار وأقيم أول مأتم في قصر السلطان نفسه !

شريفة الأمريكانية شكراً متأخرة

لايزال التاريخ يُسجّل بتقديرٍ عالٍ، الدور الإنساني والاستثنائي الذي قامت به بعثات التبشير في الخليج. دورٌ لم يكن أحد ليشكّك في نزاهته وصدقه وإن اختلط بدوافع دينية. لقد جاء المبشّرون وفي يدهم الكتاب المقدس ومشرط الجراحة وحقيبة تطبيب سوداء وأقلام للكتابة، ورغم فشلهم في المهمة الأولى إلا أنهم حقّقوا نجاحاً مدهشاً في الثانية.

عندما جاءت الممرضة الأميركية الشابة كورنيليا دالينبرج أوائل العشرينات، كان النفط في الخليج مجرد «وحل» تحت الأرض. حياة بدائية بسيطة كان يرزح تحتها مجتمعٌ يعيش على الزراعة والبحر، وتسوده الأمية وإيقاع حياة ظل مستقراً لقرون.

تجربة حياة استمرت أربعة عقود في البحرين، لخّصتها هذه الشابة المسيحية في مذكراتها التي صدرت عن مطبوعات بانوراما الخليج (مذكرات شريفة الامريكانية، ١٩٨٩)، وقدم لها عيسى أمين، وتحوي قدراً كبيراً من المعلومات عن مجتمع البحرين وبدايات النشاط التبشيري في المنطقة. إذ دونت شريفة – كمعظم ما كتبه المبشرون – بدقة متناهية العادات والتقاليد والوضع السياسي والمادي لمجتمعات الخليج.

وكجزءٍ من التكيّف مع المجتمع المحلّي، أطلقت (آن) زوجة الطبيب بول هارسون، اسم شريفة على كورنيليا عندما استقبلتها أول مرة حين نزلت البحرين العام ١٩٢٢، ولتبدأ في اليوم التالي دروسها العربية، لتشرع في عمل إنساني سيمتد أربعين عاماً، قضتها في خدمة الإرسالية (العربية) ومستشفاها في المنامة.

موضوع التبشير في البحرين سبق قدوم شريفة بنحو ثلاثين عاماً، حين قام صموئيل زويمر (ت ١٩٥٢)، المؤسس الحقيقي للإرسالية في نيويورك العام ١٨٨٩، بزيارتين للبحرين قبل أن يؤسّس أول مركزٍ تبشيري في منطقة الخليج.

تأثرت شريفة تأثراً بالغاً بصموئيل زويمر، وقد استهواها الكتاب الذي وضعه عن المنطقة وقرأته في أميركا. وصموئيل أول من قام برحلة تبشيرية طبية، رغم أنه لم يكن طبيباً بل قسيساً، وكان يعتمد في عمله التبشيري على خبرته الطبية الضئيلة.

كما تأثرت بالطبيب بول هارسون الذي خدم في المنطقة ثمانية وثلاثين عاماً، ويعتبر من أكثر الأطباء المبشّرين الذين خبروا الجزيرة العربية وساهم في إنقاذ حياة المئات.

وإذا كان مبرّر التطبيب هو الأساس في عملية التبشير، فإن توفّر الخدمات الطبيّة من قبل حكومات المنطقة وإن جاء بشكل متأخر، قد قضى على أيّ أمل للمبشرين في توسيع نشاطهم، وهو أمرٌ لم يحدث إلاّ بعد ظهور النفط، حيث ترافق التطبيب المجاني مع انتشار التعليم المجاني... فـ

«أصبحنا بالفعل نشعر ببعض التواضع في حضرة ثروة النفط» كما تقول شريفة.

كتبت شريفة قصتها، وسنعرف أنها وبعد تخرّجها في مدرسة التمريض في شيكاغو في سن الثانية والعشرين، قرّرت تطليق الدنيا بكل مباهجها ومغريات شيكاغو، وقاومت إغراء حياة الزواج وتأسيس الأسرة، وتفرّغت بشكلٍ كاملٍ لخدمة المسيح.

وقد انخرطت في خدمة الكنيسة الإنجيلية الإصلاحية، مدفوعةً بحماس ورغبة دينية جامحة، لتعمل في البحرين والقطيف والإحساء وقطر والعمارة في العراق. وقد اختارت العمل في الجزيرة العربية لعدة أسباب، منها: انعدام الخدمات الطبية الضرورية فيها، وضرورة تنصير الجزيرة العربية لتعود إلى المسيحية كما كانت تقول.

كان كتاب صموئيل زويمر «الجزيرة العربية مهد الإسلام» الدافع الرئيس في دفع شريفة إلى التحدث مع راعي الكنيسة في بلدتها، وهو أدريان زويمر والد صموئيل زويمر، وإبداء رغبتها في العمل التطوعي والتبشيري في الجزيرة العربية. ودارت الأيام لتجد شريفة نفسها مع أخريات على ظهر الباخرة «ستي لال تاو» في يوم الرابع والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٢.

ما كتبته شريفة عن البحرين وبقية دول الخليج، يعدّ من أدقّ المصادر للتاريخ الصحي والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة في عشرينيات إلى ستينيات القرن الميلادي الماضي. فقد أتاح لها عملها الطبي الدخول لبيوت

أهل البحرين والمنطقة الشرقية في المملكة وقطر، والتعرف عن كثب على ما يدور داخل الحريم، لتسجّل بدقة وموضوعية ما يلفت نظرها وهو كثير.

استعرضت شريفة في مذكراتها المشاهدات الميدانية، ووصفتها بأسلوب بسيط ومباشر، وسجّلت انطباعاتها وخبراتها عن الحياة اليومية، وهي شهادةٌ تكتسب أهميتها من كونها شهادةً من امرأة من خارج المنطقة... امرأة رأت وسجّلت ما شاهدت بعيون غربية.

يوضّح عبد المالك التميمي في كتابه «التبشير في منطقة الخليج»، أن المبشّرين لا يشيرون في كتاباتهم وتقاريرهم إلى أثر الأعمال التبشيرية في تنصير المسلمين إلا بشكل عام ومقتضب، مع أنه الهدف الأساسي الذي نذروا أنفسهم لتحقيقه، ويعزو ذلك إلى ضآلة عدد من نجحوا في تنصيرهم خلال هذه المدة الطويلة من العمل في المنطقة. ويضيف أن المعلومات المتوفرة تبيّن أن عدداً من نجحوا في تنصيرهم لا يزيد عن أربعة أشخاص، وهم عيسى الداوي (ت ١٩٥٠) وأصله من الإحساء والذي اعتنق المسيحية في الكويت سنة ١٩٢٥ بعد معاناةٍ شخصيةٍ تعرّض لها. ومراش بن بلال (ت ١٩٣٠) من مسقط، والسيدة خيرية حيدر من البحرين، وشخص رابع من عمان جاء إلى مستشفى الإرسالية في مسقط أغفلت جميع المصادر ذكر اسمه.

لكن «شريفة» تذكر حالتي تنصّر حدثت بالفعل في البحرين سجّلتهما بشكل مقتضب وعرضي، فقد تحدثت عن «علي» الشاب الذي درس الكتاب المقدس مع القسّ «بينتج» لمدة عام، وهاجر بعدها بمساعدة

الإرسالية إلى العراق ليلتحق بالعمل في الإرسالية الأميركية في البصرة. كما تحدّثت عن «أم طرار» التي كانت مسيحية «تكتم إيمانها» كما تقول شريفة.

والحق، أن حديث شريفة عن التأثير المسيحي للبعثة في مجتمع البحرين لم يتجاوز إلا بضع فقرات من المذكرات التي طفحت بكثير من التفاصيل والمعلومات الشيقة لطبيعة الحياة الاجتماعية، بما يجعل من هذه الصفحات الـ ٢٧٧ وثيقةً تاريخيةً على قدر كبير من الأهمية.

شريفة... شكراً لكِ متأخرةً، وشكراً لكلٍّ من ساهم في تقديم يد العون لأخيه الإنسان على هذه الأرض الطيبة، وما أكثرهم وما أقسانا معهم.

عبدالله آل سيف وحكاية المأتم في البحرين

في مطلع ستينيات القرن الماضي، وفي احدى الاجتماعات التنظيمية لواحدة من خلايا تنظيم حزب البعث العربي الاشتراكي التي كانت تنشط سراً في عهد الحماية البريطانية ابان ذروة النشاط السياسي للتنظيمات الحزبية في البحرين، تفوه قائد الخلية بكلام لاذع يحط من مكانة المآتم الحسينية وينتقص من دورها، فما كان من ذلك الشاب الذي كان يدرج في سنوات المراهقة الى ان جمّد انتماءه الحزبي الى الابد محتفظاً بحرارة الحس الوطني بعيداً عن الاطر الحزبية، كان ذلك في واحد من أيام صيف عام ١٩٦٥. ظلت الكلمات التي تفوه بها ذلك "الرفيق" تستفز ذاكرة عبدالله آل سيف لسنوات حتى قرر في تسعينيات القرن الماضي بعد حوالى ثلاثة عقود أن يعمد على كتابة تاريخ المأتم في البحرين كأول دراسة توثيقية عن ظاهرة المؤسسة الحسينية في البحرين!

لاسرة آل سيف بصمات واضحة في التاريخ الديني والاجتماعي سواء في البحرين او في المنطقة الشرقية، فللاسرة تواجد مهم في في الاحساء والقطيف، ولهم امتداد في الرياض بإقليم نجد، وغيرها من المناطق العربية، وكغيرها من الاسر البحرينية التي انتشرت في الخليج مثل عائلة

الجشي والخنيزي وآل نصر الله وآل المحروس وال البلادي وآل حاجي وآل مرهون؛ فإن لآل سيف جذور ضاربة في أوال (البحرين) وفروعها تصل الى المنطقة الشرقية، اما انتماءاتهم المذهبية فهم ينشطرون بين الشيعة والسنة حيث أهالي البحرين والقطيف والاحساء امامية واهالي الرياض من ال سيف سنة.

وآل سيف يرجع نسبهم الى عشيرة سبيع التي تنحدر من عبدالقيس، القبيلة العربية التي تسيدت على اقليم البحرين حتى عرفها بها فقيل سكان البحرين عبدالقيس.

وقد انحدرت اسرة ال سيف من منطقة النعيم وكانت تعرف المنطقة التي بالنعيم التحتية "الشرقية" مقابل النعيم الفوقية "الغربية" وكانت تعمل في تجارة اللؤلؤ قبل ان تكسد، ويتجهون بعدها للعمل في المواد الغذائية، أما أبناء خؤولتهم آل مرهون فكانت تجارتهم في المواد التي تحتاج اليها سفن البحر وكذلك في الحواجة "عطارين"، ويبرز اليوم من آل سيف من علماء الدين في القطيف عدد وافر من وجوه العائلة.

بدأ عبدالله آل سيف بكتابة سلسلة تحقيقات صحفية عن المآتم في البحرين ونشرها تباعاً في مجلة المواقف البحرينية التي تأسست في ٢٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٣ وكانت المجلة مهتمة بالشأن الديني والاجتماعي. لم يكن آل سيف يفكر أن تتحول سلسلة تحقيقاته الى كتاب توثيقي، لكن اقتراحاً من الصحفي ابراهيم بشمي الذي امتدح الجهد الميداني المبذول في هذه التحقيقات جعل من المقترح فكرة تكبر في عقل ال سيف الى أن

صدر الجزء الاول من الكتاب عام ١٩٩٥. وبعد النجاح الكبير للكتاب الـذي تلقفه القاريء البحريني باعتباره يناقش مسألة لم يولها الباحثون والمهتمـون العناية الكافية بالدراسة والتوثيق، ولم يلبث مؤلف "المأتم فـي البحـرين" إلا ان شمّر عن ساعد الجد ليستكمل مشروعه بجزء ثـاني للكتـاب صـدر عـام ٢٠٠٤.

يؤكد آل سيف أنه لايهتم في كتابه (المـأتم فـي البحـرين) بالتـأريخ لهذه المؤسسة فحسب، بل يتسع مجال الاشـتغال والهـم الـى التوثيـق للحيـاة الاجتماعية في كل قرية، وابرز المشكلات التي تواجهها، والشخصيات التي تركت بصمات بارزة في مجرى أحداث كل قرية. "المأتم يشكل المـدخل لتاريخ القرية البحرينية" كما يرى.

وضمن هذا الفهم والسياق، يمضي آل سـيف فـي مـشروعه التـوثيقي ليصدر في العام المنصرم ٢٠١٢ كتابه (مدن وقرى من بلادي) الذي نشرت مواده في الصحافة المحلية ايضاً على مـدى اكثـر مـن ثـلاث سـنوات، وقـد استقى الباحث مادتها من اهالي تلك المناطق، ومن بعض الكتـب والنـشرات التي تصدرها منظمات المجتمع المدني. ولعل القيمة الابرز لهذا الكتاب أن الباحث لم يقتصر على المدن والقرى الحالية، بل درس في الفصل الـسادس والاخير القرى المندثرة وأعطـى معلومـات تاريخيـة علـى جانـب كبيـر مـن الاهمية عن نزوح السكان منها واسباب وتاريخ الانـدثار، ومـن هـذه القـرى شملها بالدراسة: الغريفة، الفارسية، هرته / هلته، بربروة، الناصفة، وسبسب.

عرفت الاستاذ عبدالله ال سيف كأحـد ابـرز الاعلاميـين حرصـاً علـى

الاستزادة المعرفية ان كان عبر قراءة الكتب والاطلاع الواسع عبر حقول ومجالات معرفية متعددة، او عبر اهتماماته الجادة، وانشغاله بجمع نوادر الكتب والاصدرات او عبر توظيف علاقاته الاجتماعية الواسعة بالمثقفين والاعلاميين والطبقات الاجتماعية المختلفة في مناطق البحرين المختلفة.

وقد تعطينا سيرته الذاتية هذا الاحساس العالي بالتقدير لكفاءة بحرينية لم تشغلها الاهتمامات الوظيفية عن الاهتمامات الثقافية والادبية، فقد عمل بوزارة التربية والتعليم طوال ثلاثة عقود ونصف شغل خلالها وظائف ادارية وقانونية، ولم يكتف بحصوله على ليسانس في الاداب ليعمل في مدارس البحرين كمعلم لمادة الاجتماعيات، بل حصل ايضاً على ليسانس في القانون ومارس المحاماة الى جانب نشاطه الصحفي على مدى ثلاثة عقود لم تختم بعد ولازال في جعبته ما يعطيه.

وقد اصدر مجموعة من الكتب، لعل الخيط الجامع لها انها تلامس الهم التاريخي والتراثي، ومن ابرز اصدارته الى جانب ما ذكرناه: كشكول آل سيف، طوائف ومعتقدات، أعلام صنعو التاريخ، الاسلام والمسلمون، والشجرة النبوية الشريفة.

الاستاذ عبدالله الذي يتعامل مع سنواته السبع والستون بخفة شاب في العشرين "عيوني عليه بارده"، لديه أحلام كثيرة، بعضها تحقق وبعضها ينتظر التحقق؛ لكنه في كل ذلك يشق طريقه المحفوف بالمعوقات والصعاب بروحية عامرة بالثقة والامل والعزيمة.

آل قاروني ذكريات الغربة الطويلة

بلكنة عراقية محببة، يستقبلك هذا السمهري البشوش، وقد وخط المشيب رأسه.. وأنت تهم بالدخول إلى داره التي تكدست فيها أوراق قديمة و بضعة كتب وخرائط لأشجار نسب عتيقة، تطالعك على جدار غرفة الجلوس صورة باسمة للزعيم العربي الأسمر جمال عبدالناصر. وبترحاب قدم لي مضيفي وثائق تاريخية مهمة. ربما كان شغفه بتاريخ العائلة باعثاً لهذا التجاوب الكريم، لكن المؤكد أن أريحيته السمحة تنم عن كرم أصيل.

تحمل ذاكرة سيد عبدالوهاب القاروني المولود في المحمرة عام ١٩٢٩الكثير من التجارب التي شكلتها سنوات الهجرة الطويلة بعيداً عن الوطن، وتجسد روح المثابرة التي تحلى بها البحرينيون في مواجهة مشاكل الغربة وعوائق التكيف مع البيئة الجديدة.

يقول سيد عبدالوهاب نجل السيد حمزة القاروني (ت ١٩٤٢) الذي ولد بدوره نائياً عن وطنه الأم ولم تكتحل عينيه برؤية ترابه حتى توفي في النجف الاشرف، يقول إن العائلة بدأت رحلة العودة إلى الوطن في عام

١٩٥١ إلا أن بقايا وفروع العائلة لاتزال تعيش في المحمرة و أصفهان والبصرة والنجف وكربلاء وبغداد، ومنهم أحفاد المحدث والمفسر السيد هاشم القاروني الملقب بالتوبلاني البحراني، وتذكر بعض الدراسات التاريخية أن أولاد السيد هاشم البحراني (ت ١٦٩٥م) و أحفاده قد استقر بهم المقام في أصفهان بإيران.

ويؤكد أن هجرة العائلة إلى العراق حصلت على الارجح قبل نحو ٢٠٠ سنة، وكانت بسبب الاوضاع السياسية غير المستقرة التي شهدتها البلاد حينها، وان أول من هاجر من البحرين من آل قاروني هو جدهم السيد حسين القاروني.

اتخذ السيد حسين القاروني قبل نحو قرنين من الزمن مدينة البصرة مقراً لاقامته في العراق العثماني، وقد استجاب إلى طلب أمير المحمرة آنذاك جابر بن مرداو يوسف الكعبي (١٨٢٩ – ١٨٨١) والد الشيخ خزعل الكعبي بالإقامة في المحمرة لمباشرة المهام التبليغية، وحسبما يؤكد السيد عبدالوهاب فإن الجد السيد عبدالقاهر امتنع في بداية الأمر بسبب ارتباط العائلة بالتعهد بأمر الحسينية التي أسستها في البصرة "حسينية السادة" والروابط الاجتماعية الوثيقة التي نسجها مع المجتمع البصري؛ إلا أن حاكم المحمرة الشيخ جابر بن مرداو ألحّ في الطلب وقدم تعهداً بتوفير أرض بديلة في المحمرة لتأسيس حسينية إلى جانب توفير أراضٍ لاتخاذها مقراً لسكن آل القاروني وهو ما حدث بالفعل، فقد أسس السيد عبدالقاهر القاروني قبل نحو ١٥٠ عام "مأتم السادة" في منطقة "الحيزان".

ظلت المحمرة تحتفظ بأكبر عدد من أفراد عائلة القاروني مقارنة بغيرها من المدن الإيرانية. كما وأن هناك تواجد مهم للعائلة في منطقة الفلاحية (شاديكان)، وحسبما يُذكر فإن حجم العائلة يبلغ أكثر من ١٠٠٠ فرد من السادة القارونيين.

يفوق حجم الجالية البحرينية في المحمرة ٣٥٠٠ آلاف نسمة، وحسبما يؤكد ضيفي فإن أغلب هذه العائلات لاتزال تحتفظ بألقاب مناطقية مثل، آل الستري، آل المقابي، آل البوصيبع، وآل الدرازي وهي المناطق والقرى التي نزحوا منها، لكن عدداً قليلاً من هذه الأسر والبيوتات انصهرت في المجتمع الإيراني لأسباب اقتضتها طول الاقامة كما قام بعضها بتغيير ألقابها المعروفة بما يتلائم مع وضعها الجديد.

لآل قاروني لقب آخر هو "قاهري" ولهذا اللقب حكاية يرويها ضيفي فيقول : عندما احتلت الحكومة الإيرانية منطقة المحمرة عام ١٩٢٥ بدأت على الفور بإجراء إحصاء سكاني فيها، وقد جاء فريق مخصص لهذا الغرض وكان القائم بأمر الإحصاء قد تفاجيء بعدد حاملي لقب "قاروني"، وقال مخاطباً جمع العائلة المتجمهر حوله: هل يعقل أنكم جميعاً تحملون ذات اللقب؟ فبادر واحد من أبناء عمنا واسمه سيد محمود وقال له: إذن سجّلني سيد محمود "قاهري" !! (نسبة لجد العائلة السيد عبدالقاهر سيد حسين القاروني) فدون الموظف هذا اللقب، وبات منذ تلك الحين لقباً يطلق على عمي وأبناءه وذراريهم.

ورغم أن الجالية البحرينية - كما مر - تزيد على ٣٥٠٠ في المحمرة،

إلا أن العدد الفعلي يزيد كثيراً عن ذلك في المناطق الأخرى، إذ يملكون تواجداً مهماً في البصرة والدورق وفي مدن إيرانية عديدة ناهيك عن العائلات التي غيرت من لقبها وذابت في نسيج المجتمع الايراني.

لقد سكن البحارنة في (المحمرة) و(كوت المحمرة) و(كوت الشيخ) و(الخيران) و(أم الجريدية) وقد اشتهروا جميعاً بتجارتهم حيث احتكروا تجارة الأقمشة والحبوب وبرعوا بها وسبب ذلك يعود إلى هجرتهم المفاجئة من بلاد البحرين حيث امتهنوا التجارة لكسب عيشهم دون أي مهنة أخرى، يذكر أن البحارنة تركوا موطنهم الأول وهم من عرب البحرين بسبب الخلافات السياسية آنذاك والتي كانت تكبر حيناً وتخف أحياناً، إلى أن هاجروا أخيراً ووصلوا إلى خوزستان حيث تعايشو مع قبائل المحمرة كبيت غانم والهلالات وبيت كنعان وقد تناسبوا مع بعضهم وتفرع البحارنة بيوتاً عدة عرف منها: بيت البحراني، بيت الناس، بيت الشماس، بيت المولاني، بيت الليث، بيت الصفار.

كانت علاقة عائلة القاروني بأمراء المحمرة يحكمها ود متبادل واحترام وتوقير من الجانبين، كما ترتبط عائلة القاروني بعلاقة مصاهرة مع عائلة آل خاقاني وآل العصفور، كما أن العائلتين المذكورتين بينهما علاقة مصاهرة متينة حيث تكثر بينهما الزيجات.

وبحوزة سيد عبدالوهاب القاروني رسالة غير مؤرخة من أحد أفراد العائلة القارونيين المقيمين في النجف الأشرف واسمه سيد عدنان سيد عيسى القاروني، تتضمن الرسالة معلومات عن هجرة السيد علوي الذي ولد

في البحرين سنة ١٨٦٠م وتقول عنه :"هاجر من موطنه البحرين إلى العراق بمعية الشيخ زين الدين والشيخ عبدالعزيز الذي أعقب الشيخ علي والشيخ محمد أمين مع السادة آل البراق وكان يتصل بهم دائماً ومن المقربين له نسبياً متخذين من البصرة و أبو الخصيب ومن قرية نهر خوذ موطناً لهم".

كما ويحتفظ سيد عبدالوهاب القاروني برسالة أخرى مؤرخة بعام ٢٠٠٤ من أحد السادة القارونيين المقيمين في المحمرة، مشيراً الى انه مع إخوته وعمومته الموجودين حالياً في إيران أكثر من ألفي نسمة.

والذي يبدو من خلال الوثائق المتاحة، أن هجرة العائلة لم تكن دفعة واحدة، بل كانت على مراحل تاريخية، لكنها حتماً اشتدت وتكثفت منذ أواخر القرن التاسع عشر واستمرت حتى بدايات مطلع القرن العشرين.

بدأت رحلة العودة لعائلة قاروني لبلدهم البحرين في العام ١٩٥١م، بعد اشتداد حملة المضايقات الفارسية على عرب المحمرة، فقد كان لبعضهم نشاط سياسي في صفوف الحركة الوطنية العربية التي تعمل على استرداد الحكم العربي.

تأتي هذا الحقائق في وقت يشتد فيه ضراوة الاذى على بعض المواطنين عبر تجريدهم من الجنسية البحرينة على خلفية رأي أو موقف سياسي، ولعل في التاريخ ما يدلل على عمق الارتباط الذي يجمع البحرينيين ببلدهم أينما حلّو وارتحلوا في شعور أكبر في دلالاته من وثيقة ورقية.

علي كمال الدين و"هيئة الاتحاد"

السيد عليبن ابراهيم كمال الدين (١٩٠٧ -١٩٧٤م)واحد من قادة هيئة الاتحاد الوطني في الخمسينات والتي نعيش هذه الايام ذكرى تأسيسها، ورجال هيئة الاتحاد الوطني (١٩٥٤- م١٩٥٦) لم يكشف دورهم الوطني بعد، والمكتبة التاريخية البحرينية تعاني نقصاً حاداً في تناول الدور السياسي لزعماء حركة النضال الوطني لاسباب متعددة وقد تبدو معروفة .

ولدت هيئة الاتحاد الوطني في بداية الأمر كطرف وسيط لأحتواء مأزق التناحر الطائفي الذي حصل في موسم عاشوراء في أيلول سبتمبر عام ١٩٥٣م، لكنها تحولت فيما بعد جبهة ائتلاف وطني لمقاومة الإنكليز والمطالبة بالاصلاح السياسي. وقد طالبت الهيئة حسبما يذكر الباكر بـ"تأسيس مجلس تشريعي يمثل أهالي البلاد من خلال الانتخاب الحر، وضع قانون عام للبلاد جنائي ومدني على يد لجنة من رجال القانون يتماشى مع حاجاته وتقاليدها المرعية على أن يعرض هذا القانون على المجلس التشريعي لإقراره، وقد كان هذا القانون يستهدف: إصلاح المحاكم وتنظيمها وتعيين قضاة ذوي كفاءة يحملون شهادات جامعية في

الحقوق. السماح بتأليف نقابة للعمال ولأصحاب المهن الحرة تعرض قوانينها ولوائحها على المجلس التشريعي لإقرارها، تأسيس محكمة عليا للنقض والإبرام مهمتها الفصل في الخلافات التي تطرأ بين السلطة التشريعية والتنفيذية" وكان شخصية السيد كمال الدين شخصية نافذة في الهيئة.

بعد انفجار الصراع الطائفي وضمن مساعي عبدالرحمن الباكر (ت ١٩٧١) لاحتواء الفتنة، قصد الاخير الوجيه منصور العريض طالباً منه التدخل لإنقاذ الموقف تهدئة الشيعة فأجابه العريض :"إن الشخص الوحيد القادر على التغلغل في نفوس الشيعة والتأثير فيهم وصاحب الكلمة النافذة هو السيد علي كمال الدين فاذهب له وفاتحه في الأمر" وهذا ما حصل.

لقد اجتمعت، فيما أرى، ثلاثة عوامل في تشكيل الشخصية الوطنية للسيد كمال الدين أوجزها في التالي :

١ – تقاليد التراث العلمي لعائلة الغريفي. يقول العلامة الأميني "آل الغريفي من أسمى البيوت مجداً وشرفاً وأعلاها نسباً ومذهبا، وأرفعها في المكانة العلمية والثقافية والدينية، وأشهرها في الملأ الشيعي العلوي، رجاله معروفون بكل فضيلة، فيهم علماء وفقهاء وزعماء وأدباء، يوجد جميل ذكرهم في كثير من المعاجم، وهذه الشجرة الطيبة أصلها ثابت في غريفة وفروعها نامية في النجف والبصرة والمحمرة ومينا بوشهر وشيرزا وطهران وبهبهان".

٢ – لعبت الظروف السياسية والاجتماعية التي تمر بها البحرين في عهد الحماية البريطانية، دوراً أساسياً دفعت بالسيد كمال الدين إلى نزول

الميدان السياسي استشعاراً منه لنداء الواجب الوطني والشرعي، وممارسة دور طليعي في قيادة وتعبئة الجماهيرالتي كانت متعطشة إلى الإصلاحات السياسية.

٣ - لم يكن كمال الدين بعيداً عن التجربة الوطنية الإسلامية في أحداث ما عرف بـ "ثورة العشرين الكبرى" في العراق والتي أفضت الى إجلاء الإنجليز منها، حيث قدمت نموذجاً أمثل لدور عالم الدين في محاربة فلول الاستعمار الإنكليزي من الأرض الإسلامية. لقد جاءت حركة الجهاد الأولى في العراق والتي قادها واشترك فيها العلماء ورجال الدين الشيعة استجابة لدواعي الانسجام مع الإطار العام لفتوى الجهاد التي أطلقها شيخ الإسلام - الذي كان يمثل المرجعية السُنية للمسلمين في العالم - باسم الدولة العثمانية، وفي ذلك مغزى عميق الدلالة على صعيد الشعور بروح الأخوة الإسلامية الواحدة والصادقة رغم المعاناة التي تعرض لها الشيعة من جانب الدولة العثمانية، ولقد شارك في جبهات القتال العديد من المجتهدين و علماء المؤسسة الدينية الكبار، وهو ما عكس وعياً سياسياً وطنياً متقدماً لدى المرجعية الشيعية في العراق آنذاك.

هذه التجربة التي عايشها السيد علي كمال الدين في العراق مع أخيه السيد حسين (والد السيد عبدالله الغريفي أحد كبار العلماء في البحرين اليوم) وهو في عامه الثالث عشر من العمر، قد ألهبت حسه الوطني وأنضجت وعيه السياسي ومنحته فهماً مغايراً لدور عالم الدين، فأدرك أن على عاتق عالم الدين مسئوليات وطنية يجب الاستعداد لها من حيث

الانشغال بقضايا مجتمعية لها صلة بواقع الناس وبهموم الوطن، وليس الاستغراق أو الاكتفاء بالتحصيل الشرعي، والانشغال بالعبادات وممارسة مسئوليات الأحوال الشخصية من تزويج وتطليق.

جاسم مراد أكد لي حين وجهت له سؤالاً عن طبيعة دور السيد كمال الدين :"أن دوره كان محورياً وهاماً جداً في عمل الهيئة خصوصاً في الريف والقرى حيث الأغلبية الشيعية، لقد كان يتمتع باحترام وتقدير اجتماعي كبير، لاسيما وأنه عالم دين يحظى بشعبية كبيرة في تلك الأوساط، لقد كان شخصية وطنية، غير أن عبدالرحمن الباكر كان أكثر أعضاء الهيئة حنكة سياسية، وأكثرهم تعليماً وكان قد حظي بتعليم حديث، وكان يمثل واجهة الهيئة وعقلها المفكر".

عاش السيد كمال الدين منذ ولادته في العراق ١٤ عاماً، ولم يدر بخلده أن نشاطه السياسي سيعيده بغير اختيار هذه المرة الى مرابع صباه في النجف للمرة الثالثة، فقد عاش في النجف طفولته وعاد إلى وطنه، ثم رجع العراق "طالباً للعلم" مستزيداً للتحصيل في حوزاتها العلمية سنة ١٩٢٦ ليقضي سبع سنوات فيها، ثم يعود مرة أخرى إلى البحرين سنة ١٩٣٣ ثم تدور عجلة السنين ويأتي منعطف الخمسينات لتشرد قادة الهيئة بين سجون جزيرة سانت هيلانه و جزيرة جده ومنافي الأرض العربية.

استغل السيد علي كمال الدين إقامته في النجف الأشرف في الانكباب على التحصيل العلمي إلى أن بلغ مراحل علمية متقدمة فحضر دروس بحث الخارج على مراجع عصره كالسيد أبي الحسن الأصفهاني

(ت ١٩٤٥) والسيد محسن الحكيم (ت ١٩٧٠) وحين عاد إلى البحرين عاد ممثلاً عنهما.

بعد أن قضّى ١٤ عاماً في منفاه النجفي عاد كمال الدين عائداً إلى وطنه البحرين، اثر الزيارة التاريخية للامير الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة للعراق عام ١٩٦٨ في مسعى بدا وكأنه محاولة لترتيب أوضاع ما بعد الاستقلال والاستعداد لغوض معركة السيادة العربية للبحرين.

بعد عودته للبلاد، اعتزل كمال الدين العمل السياسي. لقد كان لكمال الدين علاقة وثيقة مع الشيخ عبدالحسين الحلي عبدالحسين الحلي (ت ١٩٥٦)، قاضي محكمة التمييز في البحرين، الذي كان له دور في أحداث ثورة العشرين الكبرى في العراق قبل أن يبتعد عن الهم السياسي في بلده وينتقل إلى البحرين، وربما اشترك الاثنان في هذا الاعتزال بوحي من الظروف الاجتماعية أحاطت بالحدثين.

رحمك الله يا أبا محمد حسن ورحم الله ابطال الهيئة الذين شكلوا علامة مضيئة في تاريخ العمل الوطني العابر للطوائف.

"لؤلؤة" الشيخ يوسف العصفور

يُعد الشيخ يوسف بن أحمد العصفور البحراني (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) أحد أصفى العقول البحرينية في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، وأهم الشخصيات الفقهية في المدرسة الامامية، فلقد كان صاحب ذهن وشخصية متعددة المواهب والقابليات، وقد ترك العديد من المؤلفات التي تكشف عن غزارة علم، ويد طولى في علوم الفقه والرجال والتاريخ.

الشيخ يوسف، هو نجل الشيخ أحمد بن إبراهيم بن صالح بن أحمد بن عصفور بن أحمد بن عبدالشيخ بن عطية بن شيبة الدرازي البحراني، وصاحب الموسوعة الفقهية (الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة)، والتي ستغدو من أمهات كتب الفقه الإمامي.

ولد الشيخ يوسف في (الماحوز) عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٦م، حيث هاجر والده الشيخ أحمد من مسقط رأسه قرية (الدراز) ليستكمل مراحل دراسته العالية على المحقق الشيخ سليمان الماحوزي. وقد اختصه جده لابيه التاجر الصالح الحاج ابراهيم الذي كان يملك سفن وعمال ويمتهن غوص اللؤلؤ ويتعاطى التجارة، فشب وصلب عوده في كنف رعاية جده الذي أحضر له

معلماً في البيت يعلمه القراءة والكتابة، كما أحاطه والده برعايته وتصدى لتدريسه.

عاصر الشيخ يوسف في مراحل عمره العديد من الاضطراب السياسية والاجتماعية في وطنه البحرين، الأمر الذي فرض عليه أن يعيش في ترحال دائم فتوزعت حياته بين البحرين والقطيف وايران والعراق، فما أن مضى من عمره خمس سنوات الا وبدأت الحرب القبلية بين (الهولة) و(العتوب) في البحرين بكل تداعياته المدمرة.

اشتغل الشيخ يوسف في صباه بجمع أشعار المحقق الشيخ سليمان بن الشيخ عبدالله الماحوزي (ت ١٧٠٩م) وترتيبها على حروف المعجم في ديوان مستقل، ولكن سرعان ما تعرضت البحرين لهجوم عنيف من قبل اليعاربة العمانيون واسهم اشتعال الاحداث في ضياع جهد الشيخ، اذ باغت العمانيون أهل البحرين بهجومين عسكريين، وتمكنوا في الهجوم الثالث من محاصرة البلاد بسد منافذها البحرية الى ان احتلوها عنوة، "وكانت واقعة عظمى وداهية دهما، لما وقع من عظم القتل والسلب والنهب وسفك الدماء" . وقد حدثت على إثر ذلك هجرة جماعية واسعة للقطيف منها عائلة الشيخ يوسف التي تعرض منزلها في الشاخورة للسلب وضاعت بذلك ثروة علمية لاتقدر بثمن.

أخذ الشيخ يوسف يتردد من مهجرة القطيفي على البحرين للاشتغال بالزراعة وتعهد أملاك العائلة في الماحوز. الى أن ارتخت قبضة اليعاربة العمانيين على البلاد وأنتزعت منهم، ما ادى لعودة جماعية لاهالي البحرين

من مهجرهم القطيفي فيما فضل البعض البقاء والاستقرار هناك.

دفع استيلاء الهولة على البحرين وحكمها بعد استيلاء الأفاغنة على ملك الشاه سلطان حسين وقتله وتدهور الاوضاع في البلاد بالشيخ يوسف الى الهجرة لايران، وبقي في كرمان ومنها الى شيراز حيث اشتغل بالتدريس في مدرسة السلطان الميرزا محمد تقي خان، وأقام الجمعة والجماعة، وقد اشتغل وقتئذ في التأليف والتصنيف، فألّف جملة من مصنفاته وأجوبة المسائل الواردة اليه ، لكن الاضطرابات ما لبثت ان اجتاحت شيراز، فخرج منها الى بعض القرى، وأرسل أولاده الى البحرين، وبدأ بتأليف (الحدائق الناضرة)، كما اشتغل بالزراعة لمعاشه وكان حاكم شيراز آنذاك الزعيم (محمد علي) الذي كان يكن اعتزازاً ومحبة للشيخ، حتى ثار نعيم دان خان عامـ(١٧٥٠م) وهجم على مكان اقامة الشيخ، وأُقتحمت داره وهو مريض ونُهبت أمواله وأكثر كتبه ومؤلفاته؛ وفر منها مريضاً بعائلته صفر اليد يجوب الجبال والقفار حتى استقر بناحية (اصطهبانات) ولبث فيها مدة، قبل ان يتوجه الى العراق.

تعد كربلاء المحطة الاخيرة من حياة الشيخ، وهي المحطة التي استقر فيها حتى سنة وفاته، ولا يُعرف على وجه التحديد متى نزل الشيخ يوسف الى كربلاء لكن الذي يظهر من تاريخ بعض تآليفه انه حل بها قبل عام ١١٦٩هـ" (١٧٥٦م) . وعلى هذا الفرض يكون قد زاول نشاطه العلمي في كربلاء طوال ١٧ عاماً الاخيرة في حياته.

تركت النكابات المتوالية ألماً كبيراً لدى الشيخ، فلا تكاد توجد له

قصيدة إلا ويذكر فيها شيئاً من معاناته في الحياة، وأكثر ما آلمه وأحزنه فقده لكتبه وتراثه العلمي؛ فقد كرر لفظ "فقد الكتب" أو ما يشير اليها أكثر من عشر مرات في كتاب "اللؤلؤة"؛ وهو ما يعطي دلاله على حجم الالم النفسي الذي كان يشعر به حتى قال في واحدة من قصائده:

وأعظم حسرة أضنت فؤادي تفرق ما بملكي من كتاب

ومن بين أبرز المصنفات ذات القيمة التاريخية العالية التي وضعها الشيخ يوسف كتابه الرجالي الشهير (لؤلؤة البحرين في الاجازة لقرتي العين) وهو عبارة عن إجازة كبيرة كتبها لابني أخويه الشيخ حسين ابن الشيخ محمد والشيخ خلف بن الشيخ عبدعلي، اشتملت على تراجم أكثر علماء الامامية الى عصر الصدوقين، وفيها أظهر الشيخ يوسف تتبع منقطع النظير للرجال وإحاطة بالتراجم مع إلماعات تاريخية مهمة واكب الكثير من أحداثها، ودون فصولها كشاهد عيان.

ويعدّ كتاب (اللؤلؤة) موسوعة رجالية ذات قيمة تاريخية هامة، وسيأتي بعد الشيخ يوسف؛ الشيخ علي البلادي البحراني (ت ١٣٤٠ه/ ١٩٢٢م) بعد حوالى قرن ونصف ليضع كتاب (أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين) من أجل استكمال هذه المهمة التاريخية الهامة في توثيق تراجم رجال العلم البحرينيون. فالشيخ يوسف العصفور توفي في عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م، أي أن الفارق الزمني بين وفاة الرجلين تقدر بحوالى بمائة وخمسون عاماً.

ورغم أن الاولى هي "إجازة كبرى" والمصنف الثاني موسوعة

رجالية، إلاّ أن الكتابان يؤديان وظيفة تاريخية واحدة تقريباً، تتلخص في الكشف عن تاريخ البلاد وأبرز رموز الحركة العلمية فيها. ومعنى أن تكون (**اللؤلؤة**) إجازة : أنها تتخطى حواجز الجغرافيا للبلدن، فيؤرخ مصنفها عن من يروي عنهم، وبالتالي قد يترجم صاحب الاجازة لعالم دين إيراني في بهبهان أو مجتهد عراقي من كربلاء أو محدّث من جبل عامل، في حين يغفل الترجمة لفقيه بحريني من أهل جدحفص أومقابه أو بوري، لأنه لا يروي عنهم.

وليس نسبة اللؤلؤة الى "البحرين" سوى من قبيل نسبة ما يكتبه المُصنف الى الارض التي يكون فيها وقت التصنيف، وهو أمر تعارف عليه علماء ذلك الوقت، فحين يكون المصنف في شيراز قد يكتب "الرسالة الشيرازية"، أو يكون في بهبهان تكون "البهبهانية" وهكذا ..

إن حياة الشيخ يوسف حياة حافلة بالعطاء العلمي، وقد عاش قرناً مضطرباً من الناحيتين السياسية والاجتماعي، لكن ذلك لمن يمنعه من مواصلة مشروعه العلمي، وقد رفد المكتبة الاسلامية بذخائر تعد اليوم من نفائس التراث الاسلامي الذي يكشف عن روح ذلك العصر. ويبقى على البحرينيين أن ينفضوا غبار الاهمال عن هذا التراث العريق للتصدي امام محاولات التشويه والعبث بالذاكرة التاريخية.

يوسف مدن وسيرة القرية

أن يحملك الاحساس بأداء واجب التصدي على محاولة تحريف الذاكرة التاريخية لبلدك على مغادرة مجال اشتغالك الفكري المعهود الى مجال البحث التاريخي، فهذا يعد أبلغ مصداق على أن رسالة القلم والنشاط الفكري ليس ترفاً ذهنياً بقدر ما هو مسئولية اخلاقية وواجب وطني. والحال أن قليلون في هذا الوقت من يجنّد قلمه وعلمه في نصرة الحقيقة في زمن المتاجرة بالضمائر والأقلام.

الاستاذ يوسف مدن واحد من رجال التعليم المشهود لهم بالفضل في المجال التربوي، عمل في مدارس وزارة التربية لازيد من ثلاثة عقود، الى ان شغل منصب مديرا لإحدى المدارس، وبموزاة ذلك ظل مدن مشدوداً الى عالم الثقافة والفكر، وبنى لنفسة شخصية فكرية رصينة استطاعت كتاباته في المجال التربوي والديني أن تعكسها، وتجسد امكانيات بحثية رائعة. وقد أعد مجموعة دراسات في حقلين أساسيين هما حقل الدراسات التربوية المعاصرة، وحقل الأبحاث التربوية الإسلامية. وكانت باكورة اصداراته في العام ١٩٩٥ عندما اصدر بحثه القيم "التربية الجنسية للأطفال والبالغين"، ثم ألحقها بكتابه الثاني "بناء الشخصية في خطاب الامام

المهـدي" (٢٠٠٠) ثـم "سـيكلوجية الانتظـار" (٢٠٠٢)، و"العـلاج النفـسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضـداد" (٢٠٠٥)، و"الـتعلم والتعلـيم فـي النظرية التربوية الاسلامية" (٢٠٠٦). كما نشر عددا من الدراسات والأبحاث في المناهج والتقويم في المجلات التربوية.

مدن من مواليد قرية بربـروة المنـدثرة فـي ١٩٥٤ وقـد خـصها ببحـث تاريخي غير مسبوق ويعد من الابحاث الاصيلة وقد نـشرته صـحيفة الوسـط ضمن سلسة كتاب للجميع في ٢٠٠٩م. هدف منـه الباحـث التعريـف بقريـة «بربورة» المندثرة، والتي كانت قائمة قبل أقـل مـن قـرن فخربـت مـع نهايـة العقد الثاني من القرن العشرين، وكانـت تلتـصق بالنويـدرات فـي خاصـرتها اليمنى، وكان خرابها حديث عهد، لكنها تركت وراءها تراثا ثقافيا وتاريخـا ومنجزات مطوية في بطون الكتب والمصادر الثقافية الأخرى.

ويعد كتاب "بربروة" بمثابة نقطة تحول هامة في مسار اهتمامات مـدن العلمية، فهو أول اصدارته في حقل الدراسـات التاريخيـة، وقـد أملـت عليـه حملات التزييف التي يقودها البعض مـدفوعاً ببواعـث طائفيـة علـى ولـوج هذا الحقل، والاضطلاع بهذه المهمة في تأكيـد الوجـود التـاريخي لواحـدة من ابرز القرى المندثرة وهي حقيقة تزعج البعض.

ولقد تصدى بعض الباحثين البحرينيين الى محاولة رصد وتوثيق هـذا التاريخ المغيب، لعل ابرزهم الملا محمـد علـي الناصـري (ت ١٩٩٩) الـذي اهتم بهذا المجال، و الـشيخ بـشار العـالي الـذي عكـف علـى دراسـة القـرى المندثرة وحـصر ٣٧ قريـة فـي كتـاب مـن المقـدر أن يطبـع قريبـا، وجاسـم

حسين آل عباس صاحب مدونة سنوات الجريش، كما كتب الشيخ محمد عيسى المكباس عن المدارس العلمية في البحرين وأحصى ١٢ مدرسة علمية وفقاً للوثائق والمدونات التاريخية القديمة المتاحة.

لم تكن القرية البحرينية بمنأى عن المخاطر والانواء السياسية، يقول عباس فروغي في (جزر البحرين):" تعرضت البحرين للغزو العماني (اليعربي) بقيادة سيف بن سلطان ابن الامام سلطان وهرب كثير من شيعة البحرين للقطيف وسواحل فارس". ويضيف :"ان البحرين تعرضت للخراب حتى قيل انه كان بها ٣٦٠ قرية ومدينة لم يبق منها بعد ذلك الغزو الا ٩٠ قرية مهدمة".

ويقول المؤرخ الشيخ محمد علي آل عصفور (ت ١٩٤٥): "قال بعض مشايخنا كان عدد قرى البحرين في الزمان السابق بعدد ايام السنة" الى ان يقول "والقرى المعمورة الان ازيد من مايتين". وبينما تشكك مي الخليفة في (الاسطورة والتاريخ الموازي) بصحة وجود هذا العدد من القرى، وتشير الى ان العدد ٣٦٠ يتكرر ذكره "في التراث الشعبي الشيعي الا انه ذلك لايستند الى حقائق تاريخية". ولايستقيم هذا الرأي الظني مع ما نعرفه من تاريخ البحرين من اضطراب سياسي وسم تاريخ البلاد لفترات طويلة.

بالنسبة للباحث مدن، لم يكن كتاب "بربروة" في ٢٠٠٩ أول دراسة له في الحقل التاريخي فحسب؛ بل كان المحطة التي اسلمته الى حقل جديد سيقدم فيه دراسات غير مسبوقة، فراح نشاطه المحمود يتسارع، فكتب دراسة حول شخصية "الشيخ علي بن عبدالله البربروي: حياته وآثاره" في

٢٠١٠، وألحقها بدراسة بعنوان "فضل البحرين في الحديث النبوي" ثم دراسة موسعة في تسعة فصول بعنوان "الاحتلال العماني في درسات بحرينية معاصرة"، و"تاريخ الفكر التربوي عند علماء البحرين" و"تاريخ التشيع في البحرين" على ضوء المصادر المختلفة.

الى ذلك، احتلت سيرة القرية البحرينية صدارة اهتماماته، فعكف على دراسة عدد من القرى البحرينية ومن القرى التي شملتها دراساته : قرية العكر، قرية عسكر، فاران "قرية القرية"، قرية بوري، والمنامة، وهو يفترض أن أهل المنامة في جذرهم التاريخي هم من أهل القرى نزحوا اليها في فترات تاريخية متعاقبة ولدوافع مختلفة.

ويشير مدن الى ان أبرز الإشارات التي أتاحت لنا معرفة عددا من القرى البائدة والمندثرة ما كان يستخدمه كتاب التراجم لعلماء بحرينيين من ألفاظ كالألقاب الدالة على انتماءات العلماء ونسبهم الوطني والعلمي، فاللقب "البحراني" شائع في هذه المصادر بلا استثناء، ولتحديد أكثر دقة يلحق به لقب واضح دال على القرية مثل " البربوري، الغريفي، الفاراني، الدونجي، الهلتي، الرويسي" وغيرها من أسماء قرى بحرينية اندثرت، فتساعد هذه الألقاب الجامعة بين مقر "السكن في قرية محددة" وبين اللقب على تحديد هوية العالم من جهة وعلى معرفة قرى مندثرة لم تعد الآن قائمة وغير موجودة إلاَّ من إشاعة ألقاب العلماء التي تنسبهم إلى قراهم الأصيلة، فيقال الشيخ محمد الفاراني، والشيخ ناصر البربوري، والشيخ محمد بن الحسن بن رجب الرويسي، والشيخ عبد الله الغريفي، والشيخ

محمود المعني، فهذه ألقاب مأخوذة من أسماء قرى مندثرة، وألحقت بلقب "البحراني" لتحديد هوية العالم بدقة واضحة.

ومؤخراً تم تشكيل لجنة أهلية لكتابة تاريخ قرية النويدرات يعتبر مدن أحد ابرز اعضاءها الى جانب الدكتور عبدعلي محمد حسن، والدكتور منصور سرحان وآخرين، في الوقت الذي فيه يشهد مجال توثيق تاريخ القرية انعاشاً ملحوظاً في الاونة الاخيرة يعكس يقظة البحرينيين لضرورة توثيق تاريخهم لقطع الطريق أمام تزييف المزيفين وترهات ذوي الأطماع .

تكريم تقي محمد البحارنة الانتصار للثقافة والإبداع

عندما تتوافر للمرء قدرات ذاتية استثنائية، ويتمتع باقتدار مدهش على استغلالها بذكاء ويقظة، وعندما يؤمن الإنسان بقدرته على تخطي الصعاب وارتياد المجهول والاقتحام المغامر؛ فإنه حتماً سيصيب نجاحه المنشود إن على مستوى حياته الخاصة أو على مستوى تنمية مجتمعه الأكبر ووطنه.

واحدٌ من الشخصيات الوطنية الاستثنائية في تعدد مجالات عطائها الفكرية والوطنية والاقتصادية هو الاستاذ تقي محمد البحارنة، هذا الرجل الذي تجتمع فيه ومن حوله عناوين شتى، فهو الشاعر، والأديب والمؤرخ، والشخصية النضالية التي خاضت الغمار الوطني منذ حداثة السن وغضاضة العمر في خمسينيات هيئة الاتحاد الوطني (١٩٥٤ – ١٩٥٦م) وكان من ضمن لجنة الأعضاء الثمانية الاستشارية للهيئة بعد الاعتراف رسمياً بها من قبل حكومة البحرين وقتها، وهو رجل الأعمال الناجح الذي ولج عالم المال والأعمال وهو شاب صغير بعد تجربة قصيرة في الدراسة الجامعية في العراق ختمها على عجل ليلتحق بدنيا أوسع وأكبر علومها لا تُحد ومناهجها باتساع الحياة، المدرسة التي أرسى دعائمهما في وعيه الناشئ والده رجل الأعمال الوجيه الحاج محمد مكي البحارنة (١٨٨٥ – ١٩٦٨م).

في قصة تحكي أجمل صور الكفاح وبناء الذات سرد بعض مشاهدها الحلوة في كتابه الجميل (أوراق ملونة) إلى جانب سجله الطويل في تاريخ

خدمة وطنه في السلك الدبلوماسي منذ أن شغل منصب سفير البحرين في مصر ومندوبها الدائم في جامعة الدول العربية في الفترة من ١٩٧١ – ١٩٧٤م مروراً بعضويته في مجلس الشورى في العام ١٩٩٣ وليس انتهاءً بعضويته في مجالس إدارة عدد من المصارف وشركات التأمين وغرف التجارة والمؤسسات المالية في البلاد.

تتيح سيرة هذا الرجل المولود في العام ١٩٣٠ في المنامة من أسرة احتضنت شمائل الفضل والوجاهة الدينية والاجتماعية أكثر من درس وعبرة، وتكريم جمعية تاريخ وآثار البحرين له في حفل بالمناسبة مساء الخميس ١٩ أبريل/ نيسان الجاري والبلاد تمر في هذا الظرف العصيب من التمزق المذهبي والاحتقان السياسي الذي يوشك أن يشل البلاد ويعطل الإبداع يعد اتجاهاً سليماً وخطوة محمودة.

بالنسبة لي، عرفت الأستاذ تقي من خلال كتابه (نادي العروبة) الصادر العام ١٩٩٢ وقد أرخ لنشاط نادي العروبة خلال خمسين عاماً، وهو وثيقة تاريخية مهمة، تتحدث عن فترة يجهلها الكثيرون عن تاريخ البحرين الثقافي والاجتماعي منذ عام التأسيس في ١٩٣٩ قدم فيه بتتبع ورصد دقيق وصفاً للحركة الثقافية والأدبية في البحرين من خلال أنشطة النادي وفعاليات أعضائه البارزين، وما في صدر البحارنة أكثر بكثير.

وكانت هذه المعرفة لي كقارئ به كمؤلف وأديب يحتل مكانة بارزة في المشهد الثقافي البحريني مقدمة لاتصال إنساني وحميمي به، ووجدته

شخصية إنسانية تملك تقديراً خاصاً للشباب الطموح ممن تشغله شواغل الثقافة والأدب وشئون الفكر، وكان ولايزال لا يبخل أبداً بإسداء النصح وتقديم المشورة بكرم وأريحية بل وبتواضع شديد في أي موضوع أسأله النصح فيه.

أهمية البحارنة كمؤرخ لا تقتصر على سرد الوقائع عبر وسائط، بل باعتباره شاهد عيان على كثير من التحولات الكبيرة التي شهدتها البلاد، بل وفي كثير من الأحيان، «صانعاً» للحدث وليس «مراقباً» له، وهو ما يظهر بجلاء فيما كتبه البحارنة عن ذكرياته عن «اتحاد العمل البحراني» وهو أول دراسة تاريخية تتصف بالشمول عن تاريخ الاتحاد العمالي ودوره الوطني. (انظر كتابه، أحاديث وسير، ٢٠١٠م). ولقد كان للبحارنة نفسه دور مهم في تكوين اتحاد العمال والعمل في البحرين العام ١٩٥٥ وأسندت إليه الأمانة العامة للاتحاد وقام بتمثيله في القضايا والمنازعات العمالية.

إن الأستاذ تقي محمد البحارنة، هو نتاج حضارة عربية خالصة جمعت بين قطرين عربيين، فالأب بحريني والأم نجفية من العراق، وربما شكلت هذه الأرومة باعثاً لترسيخ وعي قومي استمد عنفوانه من هذا المزيج العائلي الرائع، ضاعفه اقتران الأستاذ بكريمة الشيخ عبدالحسين الحلي (١٨٨٣ – ١٩٥٦) التي كانت لها أيادٍ بيضاء في مسيرة العمل النسائي في البحرين.

لقد أحب البحارنة البحرين بصدق، ووهبها من عمره الكثير، وفي الكثير من أشعاره المبثوثة في دواوينه «بنات الشعر، ١٩٩٦» و «في خاطري

يبكي الحنين، ٢٠٠٣»، و «من يضيء السراج، ٢٠٠٩»، تعابير وألفاظ دالة على مبلغ هذا الكلف والحب. يقول:

حتـــى إذا هـــاج الحنـــين بخـــاطري وبكـــى طـــويلا

بـــادرت يـــاوطني إليـــك فلـــم تكـــن عنـــي بخـــيلا

ونهلـــت حبـــك مـــورداً عـــذباً ومـــاءً سلـــسبيلا

وليس تكريم جمعية تاريخ وآثار البحرين للشاعر والأديب البحارنة هو الأول؛ فقد سبق أن كرمته وزارة الإعلام ضمن مشروع رواد الصحافة البحرينية وأصدرت عنه كتاب «تقي البحرانة عنفوان الكتابة، ٢٠٠٧» وضعه الكاتب خالد البسام، كما أقامت اللجنة الأهلية لتكريم رواد الفكر والإبداع بمملكة البحرين حفلاً تكريمياً للشاعر تقي محمد البحارنة في شهر ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٦، وأعدّ عضو اللجنة منصور سرحان كتاباً تناول سيرة البحارنة اعتباراً من ولادته إلى دراسته والمجالات التي خاضها ومنها المجال التجاري والوطني والثقافي.

وبعد، فإن تكريم تقي محمد البحارنة تمنحنا ثقة - يسعى البعض على إخماد جذوتها في النفوس بلا هوادة - بأن شعب البحرين شارك بجلاء ويشارك بكل أطيافه في نهضة وطنه ومجتمعه.

التكريم هو احتفاء بالثقافة والأدب والتاريخ، هو احتفاء بالوطن عبر احترام مبدعيه وطاقاته الخلاقة في ضجيج الإعلام المزوّر، ودعوات كراهية بغيضة، وثقافة شوهاء يراد لها أن تسود وتقود.

الوجود البحراني في العراق

رغم رسوخ ظاهرة الهجرة العلمية في عمق التجربة التاريخية لبلد صغير ومهم بموقعه وإرثه الثقافي والإنساني كالبحرين إلا أن المقاربات البحثية لهذا الموضوع تكاد تكون غائبة تماماً عن اهتمامات الباحثين والدراسات التاريخية.

من الصعوبة أن نقطع بتاريخ محدد للهجرة البحرينية للعراق، وخصوصاً أن العراق يضم المراقد الدينية لعدد كبير من أئمة المذاهب الإسلامية، كما أن الهجرة كانت لها منطلقات سياسية واجتماعية بعيدة عن البواعث الدينية البحتة، فقد هاجر من أهالي البحرين في أوائل القرن الثالث الهجري واستوطنوا في العراق لأغراض الزراعة، ومن هؤلاء «آل بوطبيخ» من السادة العلويين، حيث هاجر إلى العراق من الأحساء الأخوان سيد مهدي وسيد هادي ووفدوا العام(١٢١٤هـ – ١٧٩٩م)على شيخ الخزاعل وأقاموا عنده وتكونت من سلالتهم عشيرة كبيرة كما يذكر المؤرخ الإيراني رسول جعفريان.

وتشير بعض الدراسات إلى أن هجرة واسعة حدثت في خوزستان إلى العراق حاملةً معها بذرة «التشيع»، كما حدثت هجرات عربية كثيرة في

هذه المنطقة فقد هاجر بعض أهالي البحرين والأحساء إلى خوزستان ويعرفون اليوم باسم «البحارنة» و«الحساوية».

وفي القرن الثالث عشر الهجري نشط العديد من علماء البحرين في العراق رغم ترددهم على إيران، ونظرة عابرة على سيرة العلماء كما أوردهم آغا بزرك الطهراني في (الكرام البررة) تؤيد وجود نسبة كبيرة من علماء البحرين ممن يحملون ألقاباً مناطقية بحرينية من قبيل: «الخطي» و«التوبلي» و«الماحوزي» و«العصفوري» و«الشوبكي» و«البلادي» و«الغريفي» ناهيك عن لقب «البحراني» الذي كان من الألقاب المميزة لعلماء القرن الثالث عشر.

ويشير «جعفريان» إلى أنه في العام ١٩٥٧ كانت الحوزة العلمية في النجف الأشرف تحتضن نحو ٢٠ طالب علم شرعي من البحرين والقطيف والأحساء و٤٧ من سوريا ولبنان و٧١ من الهند وكشمير و٣٢٤ من هضبة التبت و٣٢٠ من العراق و٨٩٦ من إيران، لكني أميل إلى ما ذكره لي في لقاء خاص السيد جواد الوداعي الذي كان متواجداً في هذه الفترة في العراق حيث أشار إلى وجود نحو ٦٠ عائلة بحرينية كانت مقيمة في النجف الأشرف.

لقد كان طلاب العلم البحرينيون يساهمون بقسط وافر في الحركة الثقافية والعلمية والأدبية، من خلال علاقاتهم الإنسانية وروابطهم الأخوية المتينة مع زملائهم الطلبة من شبه الجزيرة العربية (القطيف والأحساء)

وإيران والعراق وجبل عامل، كما ساهم الكثير من خريجي كلية الفقه البحرينيين في وضع الكثير من الأطروحات العلمية والدراسات الأكاديمية في تفاعل حي ونشط مع المناخ الثقافي المنتعش وقتها. فقد قدم الشيخ حسن المالكي أطروحة عن حياة الشيخ يوسف العصفور، وقدم السيدسعيد السيدجواد الوداعي تحقيقاً لرسالة الرضاعية للشيخ حسين العصفور وقدم العشرات غيرهم أبحاثاً فُقد الكثير منها ولايزال بعضها يسفو عليه غبار الإهمال.

وارتبط الشيخ عبدالحسين العصفور بعلاقة صداقة متينة مع الكاتب والمفكر اللبناني الشيخ محمد جواد مغنية، وقرأ القاضي الشيخ أحمد العصفور في محافظات العراق المختلفة مجالس عزاء، ووضع الشيخ سليمان المدني كتابه (الاجتهاد والتقليد) وهو في النجف الأشرف، كما ربطته علاقات حميمة ومتينة في الوسط العلمي والحوزوي من الطلبة والعلماء ورموز الحركة الإسلامية بالعراق أمثال السيدمحمد باقر الحكيم والسيدمهدي الحكيم.

لقد انصهر علماء البحرين في المشهد العلمي والأدبي والاجتماعي في النجف، وصاروا عنصراً أساسياً من مكونات هذا المشهد الغني، فكانوا طلاب وأساتذة، وكما كانوا يأخذون العلم كانوا أيضاً معلمين ومربين لجيل واسع من طلبة الحوزة العلمية متعددي الأعراق والقوميات والأوطان في أسلوب فريد يتيحه طبيعة النظام التعليمي المعروف في الوسط الحوزوي.

وقد أنجز السيدجواد الوداعي تحقيقاً للكتاب الفقهي المعروف «سداد العباد ورشاد العبّاد» عبر فريق عمل ضم أبناءه وتحت إشراف مباشر من الشيخ محمد أمين زين الدين (١٩١٤ – ١٩٩٨م) وهو مرجعية دينية بحرينية، حيث وُلِد في محافظة البصرة، وانتقل إلى المحمرة، ثم استقر في النجف الأشرف وتوفي فيها. وكثيراً ما كانت الصلات الإنسانية والاجتماعية تشتد وتتعزز بين الأسر والعائلات العلمية بالتصاهر عبر الزواج، حتى أن الكثير من طلاب العلم الدراسين في النجف الأشرف ارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع عائلات علمية في إيران والعراق وبعض دول الخليج. وقد ازدهرت مدرسة البحرين ازدهاراً كبيراً بعد ظهور الدولة الصفوية بإيران، وساهم بعض فقهائها بتولي منصب القضاء في إيران الصفوية، أو في البحرين نفسها بعد سيطرة الصفويين عليها. كما تولى بعضهم منصب شيخ الإسلام في تلك المرحلة، أمثال الشيخ سليمان الماحوزي (ت ١١٢١هـ / ١٧٠٩م) والشيخ عبدالله السماهيجي (ت ١١٣٥هـ / ١٧٢٣م) والشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م).

وقد تعرضت هذه المؤسسة الدينية البحرينية لتحديات هددت سلامتها واستمرار وجودها بفعل التحولات السياسية التي كانت تعصف بالبلاد، وحروب راح ضحيتها الكثير من علماء المؤسسة الدينية ما اضطر الكثير منهم إلى ترك البلاد والهجرة كما حصل إثر غزو اليعاربة العمانيين العام (١١٣٠هـ / ١٧١٨م) حيث تفرق الكثير من أهالي البحرين في بلدان مختلفة في العراق وإيران والهند وشبه الجزيرة العربية غيرها.

إن هذه المنممات التاريخية الصغيرة يتعين على الباحثين والمهتمين تقصيها وتدوينها لأنها جزء من تراثنا وتاريخنا الإنساني والفكري، وهذه السطور ليست إلا محاولة لاستثارة شهية الباحثين لمزيد من البحث الجاد حول الموضوع.

البحرين وبلاد الرافدين صدى الماضي القريب

تمثل العلاقة العراقية البحرينية التي ترجع جذورها إلى الحضارة السومرية، واحدةً من مجالات البحث الأكثر جدارة بالاهتمام في تاريخ منطقتنا، وهذا التاريخ الذي يتضمن موضوعات جد متباينة في الثقافة والفنون والعلوم والتعليم واللغة والفكر والتجارة والإدارة، إنما يؤكد أهمية الروابط التاريخية الراسخة بين الشعبين العربيين. فالعراقيون والبحرينيون يدينون بدين واحد ويتقاسمون تراثاً ثقافياً واحداً، وأخذا على عاتقهما أدواراً مركزية في الحضارة الاسلامية وكان لهما إسهاماتهما الواضحة في صياغة القيم الإنسانية المشتركة.

ما بين العراق والبحرين أكثر من آصرة، قديماً الحضارة السُّومرية المتمثلة بآثار دلمون، وامتداد القرامطة إليها من سواد الكوفة، وقد تكرست هذه العلاقة عبر أخذ علماء البحرين علوم اللغة والدين في مدينة النجف الأشرف، وعبر زوارها غير المنقطعين إلى عتبات العراق المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء.

في البحرين قبائل تعرف بانتسابها القبلي الأم دون موطن سكناها كـ «آل الكعبي» المنتشرين في المنامة والقرى المجاورة، وهم بحارنة ينتمون

إلى قبيلة كعب الشهيرة. وهناك كعبيون آخرون وفدوا من جزيرة العرب خلال القرنين الماضيين يخالفونهم في الانتماء المذهبي. كما عاد إلى البحرين في السنين الأخيرة جماعات وأفراد من الأسر البحرينية المهاجرة في العصور السابقة مثل «آل الربيعي» و «آل قاروني» وغيرهم.

ومن المعروف أن البحرين استعانت بالجاليات المقيمة على أراضيها في تأسيس جهاز الأمن الداخلي؛ إذ لم تقتصر عناصر الشرطة النظامية في البحرين على البحرينيين بل ضمت في صفوفها عدداً من اليمنيين والعراقيين والسودانيين والسواحليين والصوماليين في ثلاثينات القرن الماضي.

كما استفادت البحرين في العشرينات من الخبرات العراقية في بداية تطورها الإداري، إذ تذكر الوثائق البريطانية أن هارولد ديكسن المعتمد البريطاني في البحرين سنة (١٩١٩- ١٩٢٠) هو الذي أسس أول بلدية في البحرين نقلاً لتجربة النظام البلدي في البصرة، وفتح مجالس له، يساعده في ذلك شخص عراقي اسمه فرحان الرحمن.

وقد ارتبطت نشأة التعليم النظامي في البحرين بالعراق وبإسهام الجالية العراقية، فالعراق كان من أبكر الدول العربية اتصالاً بأسباب النهضة الفكرية، فقد كان رعايا الامبراطورية العثمانية من الديانات المسيحية واليهودية في العراق على صلة بالغربيين، عبر التعليم والرحلات والتجارة. كما شمل مشروع تحديث التعليم في الامبراطورية العثمانية الدارسين العراقيين في الآستانة، فأرسلت بعضهم إلى الغرب لاستكمال دراستهم كما أنها كانت في سنواتها الأخيرة أضعف من أن تمنع تغلغل النفوذ الغربي

في العراق.

وقد هاجر الشيخ عبدالحسين الحلي (ت ١٩٥٦)، أحد أبرز العقول الفقهية في النجف، إلى البحرين لاستلام منصبه القضائي الجديد، فلقد كان القضاء الشرعي الجعفري عام ١٩٣٥ سبباً لصداع حكومي مزمن، لذا عمد مستشار الحكومة تشارلز بلغريف إلى استقدام قاضٍ شرعي من النجف لتمييز الأحكام الشرعية قبل نفاذها، وقد جاء الحلي وملأ هذا المنصب بجدارة وبكفاءة عالية. وفي غمرة انشغاله بالتمييز والقضاء لم ينسَ الشيخ أن ينشئ مدرسة دينية وفقهية تخرّج منها عدد من علماء الدين في البحرين، هذا إلى جانب تشجيع الأدب والثقافة والممارسات الفكرية.

لقد ارتبط التواجد الديني للأقليات الدينية المسيحية واليهودية والصابئة في البحرين بالعراق الذي كان المنحدر والمنبع البشري لهذه الأقليات النازحة؛ فقد قدم يهود العراق من الموصل تجاراً وصيارفة، وكان العراقي صالح الياهو يادكار من أوائل اليهود الذين استوطنوا البلاد عندما جاء من البصرة نهاية عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر. بدأ حياته كبائع تبغ ومن ثم كصاحب محل لبيع الدقيق، ثم بدأ التعامل في بيع الألبسة المستعملة، وبعدها امتهن تجارة البز حيث كان يستورد الأقمشة من الخارج وتخصص في بيع العبايات النسائية.

وكان إسحاق سويري (ت ١٩٣٨) قدم إلى البحرين من العراق في بداية العقد الأول من القرن العشرين مع جميع البغداديين. وبدأ عمله

التجاري من خلال محل لبيع التبغ والعطور. وكان إسحاق سويري ومئير روبين وإبراهيم نونو أعضاء في بلدية المنامة، وكانوا على تناغم فريد مع زملائهم المسلمين في عضوية المجلس.

وقد مثلت حكاية المسيحية في البحرين وجهاً من أوجه التأثر ذي الأوجه المتعددة بالجوار العراقي، ففي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٩٢ يغادر المبشر الأميركي صموئيل زويمر البصرة في زيارة لموانئ الخليج في إطار بحثه وتجواله حتى يناير/ كانون الثاني العام ١٨٩٣. وكان نصيب البحرين بقاؤه فيها من السابع من ديسمبر حتى مطلع يناير ١٨٩٤، وبعد تلك الزيارة كان زويمر على يقين بأن البحرين هي الموقع الأفضل للبداية، فقد كانت هذه الجزيرة حسب قوله ترحب بالأجانب، كما أنها بلد عربي بعيد عن سلطة الأتراك. وهذه المزية الأخيرة ترشحها لتكون مركزاً مناسباً، خصوصاً بعد تجربتهم مع السلطة العثمانية في البصرة، ومن هنا انطلقت قافلة النشاط التبشيري في البحرين.

ويسجل تواجد صابئي في البحرين بدءاً على الأقل من العام ١٩٣٩ أشار له الباحث رشيد الخيون بقوله: «زرت الصابئي المندائي عبدالرزاق رومي، وهو مازال يمارس مهنة الأجداد الصياغة والمينا بالفضة بسوق المنامة القديم. ظهر أنه ابن أخي الباحث المندائي غضبان رومي، وصل مع عمه على ظهر قارب من البصرة قبل ٦٦ عاماً، وكانوا يشكلون جماعة مندائية عراقية بالسوق والمجتمع، فالمحل الذي أمامه كان لزهرون الصائغ. رحل الكل بعد التقدم بالعمر، وتفضيل طقوس الموت والدفن مع أهل

ملّتهم بالعراق. ولـم يبـقَ مـن هـذه الجماعـة سـوى عبـدالرزاق الـذي أسـلم ليأتلف مع المحيط».

لقد أدى الامتزاج الاجتماعي الذي وفرته الصلة المفتوحة للبحرينيين بالعراق إلى مصاهرات، وانتقلت الكثير من العادات والتقاليد بل وحتى المفردات اللغوية السائدة في اللهجة العراقية إلى البحرين، فقلما تجد عائلة دينية في البحرين لم ترتبط بعلاقات مصاهرة وزواج من العراق، فالهجرة والزيارة المنتظمة للعراق سواءً للسياحة الدينية أو بقصد الإقامة للتحصيل بنوعيه الديني والأكاديمي الذي يمتد في الأغلب لسنوات طويلة، يولّد حاجة ملحّة لدى المقيم بضرورة الاقتران بزوجة عراقية تشاطره حياته في المهجر وتعينه على التكيف في ظروف الغربة. وفي حدود اطلاعي فإن الكثير من العائلات والأسر الدينية اقترن فيها رب العائلة بزوجة عراقية أبرزها الملا عطية الجمري الذي تزوج قرينة إحدى الأسر البصراوية، والسيدعلي بن السيد إبراهيم كمال الدين الذي تزوج من عائلة الساعدي النجفية، والوجيه محمد بن مكي البحارنة الذي اقترن بامرأة علوية من عائلة الطباطبائي النجفية، كما عرف عن عائلة فخرو والزياني مصاهراتهم بأهل العراق نتيجة اتصالهم التجاري بالبصرة وبغداد.

ولاتزال اللهجة العراقية بإيقاعها الشجي والمحبب تسم لغة المنبر الحسيني حتى غدت هذه اللهجة بمثابة اللغة الخطابية الكلاسيكية القادرة على استدعاء العبرات، وربما يعود هذا التقليد الضارب في القدم إلى تأثر خطباء البحرين بنظرائهم العراقيين ممن أصابوا نجاحاً كبيراً وشهرة واسعة

في مضمار الخطابة الدينية سواءً في العراق أو ممن قدّر لهم أن يرقوا المنابر الحسينية في البحرين وهم كثر من أمثال عبدالزهراء الكعبي (ت ١٩٧٤)، أحمد الوائلي (ت ٢٠٠٣)، باقر المقدسي، السيدعدنان البكاء، مرتضى الشاهرودي، عبدالحميد المهاجر.

ولقد تركت الأشعار والأهازيج العراقية تأثيرها البالغ على النساء والرجال في البحرين، لاسيما تلك التي تنشد في المناسبات الدينية الحزينة، ومن يعرف قيمة الشعر لدى العراقيين سابقاً وحديثاً، وسطوة البلاغة على العقول، يمكنه أن يقدّر حجم الأثر الذي كانت تلك الأهازيج تتركه في النفوس، وخصوصاً أنها تُقرأ باللهجة الدارجة التي يفهمها الجميع، ولم يقتصر تأثير هذه الأهازيج والأشعار على الترديد والتداول، بل لقد انبرا البحرينيون والبحرينيات بكتابة بعض الأبوذيات والأشعار التي تحاكي النموذج العراقي.

هذه حلقة صغيرة من سلسلة حكاية طويلة قد تسنح الفرص مستقبلاً لبسط الحديث في تفاصيلها بشكل أكثر توسعاً.

الوداعي سيد العطاء

كان الفيلسوف ابن سيناء يقول: «اللهم إني أسألك عمراً عريضاً»... أي عمراً حافلاً بالإنجاز.

ويمكن القول إن حياة عالم الدين السيدجواد الوداعي قد تحقق فيها هذا الدعاء، وفي ظنّي أن تكريم شخصية بوزن ومكانة السيد الوداعي تأخر لأكثر من ثلاثين عاماً على الأقل، والتكريم بكل دلالاته الإيجابية ومغزاه الاجتماعي النبيل جاء مشوباً بنواقص هي بحكم الضرورة سمة من سمات أي جهد بشري، غير أنها هنا نواقص كان بالإمكان تلافيها بقليل من الحرص والعمل والإعداد الجيد لمناسبة يستوجب سمو مكانة المكرّم إيلاءها حرصاً أكبر واستعدادات أكثر جدية. فحتى يؤتي التكريم ثماراً يانعة لابد له من أن يتجاوز الحدود الشكلية واللحظية ليعانق أفقاً أوسع ومدى أبعد لحدث يراد له أن يعيش في ذاكرة الجيل المقبل من الذين ربما لا يعرفون الكثير عن تاريخ وطنهم والأيقونات الذهبية التي صنعت أمجاداً مضيئة في مجتمعاتهم عبر عطاءاتهم العميمة.

لقد شهدت البحرين قبل نحو خمس سنوات تدشيناً لعرف حسن توقعت شخصياً أن تزداد وتيرته لولا موانع السياسة وطوارئها الرديئة، تمثل

هذا العرف القصير الأجل في إقامة عدد من الفعاليات الثقافية على شكل ندوات ومؤتمرات يتنادى لها عدد من الباحثين والشعراء والمؤلفين وأصحاب الاهتمام، وتقدّم فيها أوراق بحثية ذات قيمة معرفية عالية، ثم يجري طباعة المشاركات المتميزة منها في كتاب تعميماً للفائدة في محاولة لنفض غبار الإهمال والنسيان لتراث ثقافي وديني عريق واسع الأكناف، متعدد الجوانب، بعيد الغور.

ولعلي أستذكر من هذه الفعاليات ثلاثاً، هي: فعالية أسبوع «زين الدين الثقافي» الذي عقد في الفترة ٢١-٢٧ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧ في كرزكان؛ والمؤتمر المتميز شكلاً ومضموناً والذي نظمه مجلس الحاج منصور بن إبراهيم آل عصفور وحمل عنوان «العلامة الشيخ حسين آل عصفور: الرسالة والموقف» في الفترة ١٤-١٦ مارس/ آذار ٢٠١٠؛ وأخيراً «ملتقى المحدِّث الشيخ عبدالله السماهيجي» الذي نظمته هيئة الوسيلة ومؤسسات قرية سماهيج في الفترة ٦-٧ مايو/ أيار ٢٠١٠. والقاسم المشترك في كل هذه الفعاليات الثلاث أنها جاءت بمبادرة من جهات أهلية، وتم الإعداد الجيد لها، كما تم استضافة باحثين وشعراء ومؤرخين قدموا رؤى متميزة في جانب من جوانب التاريخ الثقافي والديني في البحرين، لا يحظى في العادة بالاهتمام اللائق في إطار استراتيجية ممنهجة لتشكيل تاريخ بلد يعاني فيه تاريخه من سياسته.

جاءت الوقفة التكريمية للسيد الوداعي (٨٩ عاماً) في حفل افتتاح العام الدراسي للحوزات العلمية في البحرين الذي جرى صباح الخميس ١٣

سبتمبر / أيلول ٢٠١٢، في فقرة خاصة خلال حفلها الذي أقيم في صالة الغدير بمنطقة سار، حيث رأت اللجنة المنظمة لحفل الحوزات إضافة فقرة خاصة بتكريم هذه الشخصية الكبيرة. وهو أمر طيب يُحسب للجنة المنظمة للحفل والتفاتة كريمة منها، وخصوصاً أنها تجري في ظروف استثنائية تمر بها البلاد، غير أن ذلك لا يعفي المؤسسات العلمية في البحرين في اعتقادي من إقامة فعالية أخرى تسلط الضوء على مكانة هذا الرجل وإبراز دوره الديني والاجتماعي والثقافي بشكل أكبر.

لا يمكن اختصار حياة عريضة كتلك التي عاشها السيد الوداعي في مساحة تقصر عن بلوغ جزء يسير من حقه، ليس على مستوى النشاط الديني فقط، بل – وهذا هو الأهم – على مستوى إيجاد التوازن الصعب والضروري في دعم الجهود الحريصة على التماسك الاجتماعي وإبطال مفعول الأصوات النافرة ذات الاهتمامات الضيقة والتي لايزال يتردد صداها في دهاليز الذاكرة، وإن خفّت بشكل كبير على وقع المحنة السياسية وهدير الاستبداد الطاحن الذي نعيش.

شهدت الحياة العريضة للسيد جواد بن السيد فضل الوداعي المولود عام ١٩٢٣ تحولات سياسية ضخمة في البلاد، وعايش خمسة حكام بدءاً من الشيخ عيسى بن علي (ت ١٩٣٢) وكان شاهداً على قرن كامل من الأحداث التاريخية والوطنية الهائلة وله ذكريات يرويها، وبالإمكان تقسيم حياة السيد الوداعي العلمية طبقاً لمراحل حياته:

المرحلة الأولى: تمتد منذ ولادته إلى حين هجرته إلى العراق لتحصيل العلوم الدينية (١٩٢٣ – ١٩٥٦) وتبلغ ٣٣ عاماً، وفيها تفتح وعيه على الحياة والدرس الشرعي.

المرحلة الثانية: مرحلة الدراسة في النجف الأشرف (١٩٥٦م – ١٩٧٤) وتبلغ ١٨ عاماً وفيها عايش كوكبة من كبار علماء الحوزة والمرجعية الدينية، وارتبط بشكل خاص بالشيخ محمد أمين زين الدين ومرجعية السيدمحسن الحكيم وتأثر بالأخير تأثراً بالغاً، ويروي عنه الكثير من الطرائف والقصص.

المرحلة الثالثة والأخيرة: مرحلة العودة والاستقرار في البحرين (بدءاً من العام ١٩٧٤) وتبلغ حتى الآن ٣٨ عاماً، وفيها يبرز عطاء السيد وتتبلور ملامح أبوته الروحية ورعايته للحالة الدينية في البلاد، وتمثل الفترة الأغزر إنتاجاً على الصعيد الاجتماعي والديني.

انخرط السيد الوداعي في دراسة العلوم الدينية بفعل التأثر الكبير والالتصاق اليومي بجده لأمه السيدعلي بن السيد يوسف الوداعي (١٨٦٧–١٩٥٥) الذي كان يحظى بمكانة كبيرة في المجتمع البحريني بسبب نشاطه التبليغي الواسع، متنقلاً على ظهر دابته في قرى البحرين في النصف الأول من القرن الماضي.

يشكل الدين في البحرين، كما في معظم الدول الخليجية، ركناً ركيناً في حياة الناس، فالمنظومة الاجتماعية والفكرية المستقرة إسلامية الواقع والجذور، والإسلام ليس تياراً فكرياً، ولا صرعة اجتماعية، إنما هو وجود

وواقع ونشأة وتاريخ وجغرافيا وبيئة.

وقبل منعطف الثمانينيات، كان الدين غريباً، ليس بمعنى الغياب كسلوك وثقافة، بل بما يعنيه الدين كمنظومة ثقافية، وكوضوح، وهي أمور كانت مرتبطة إلى حد بعيد بملابسات التحول الاجتماعي الذي صاحبت مجتمعاً بدأ للتو يستيقظ على وقع هدير تدفق آبار النفط ونعيم عوائدها الاقتصادية الضخمة، ما يعني حداثة التعليم والنهضة والتنمية الاقتصادية المتعثرة.

أربعون عاماً في تسيير حملات الحج والعمرة، و٣٨ عاماً قضاها السيد الوداعي على أعواد المنابر واعظاً ومؤسساً لخطاب فقهي متفرد، كان يستشعر أهميته في مجتمع مسكون بعطش عارم لثقافة الحكم الشرعي. ونحو أربعين عاماً من العمل المنظم الرامي لتدعيم العمل الإسلامي وإرساء قواعد الحالة الدينية، وتأسيس ورعاية الحوزات العلمية للرجال والنساء، أبرزها حوزة الإمام الباقر للدراسات والمعارف الإسلامية التي تأسست سنة ١٩٩٠ بمباركة وإشراف متواصل من الشيخ محمد أمين زين الدين (١٩١٤-١٩٩٨) تلاها تأسيس الحوزة النسائية في ٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٩١.

فإلى جانب وجود حوزتين علميتين قائمتين آنذاك هما: حوزة السيدعلوي الغريفي (ت ٢٠١١) في منطقة النعيم، والتي أسسها بُعَيد رجوعه من النجف نحو العام ١٩٦٠، وحوزة الإمام زين العابدين للشيخ عبدالأمير الجمري (ت ٢٠٠٦) التي أسسها في العام ١٩٨٥ في بني جمرة، جاءت حوزة الوداعي لتمثل نقلة واعدة في الدرس الشرعي، وبيئة حاضنة للعدد

المتزايد من الطلاب القادمين من الحوزة العلمية في الخارج.

أعتقد أن مسئولية الحوزات العلمية والمؤسسات الأهلية والباحثين تجاه شخصية بمكانة السيد الوداعي، أكبر من وقفة اعتزاز خاطفة وسريعة تجري في قاعة مغلقة.

محنة التراث التعليمي «المباركة العلوية» تستغيث

على الضفة الجنوبية لمسجد الخميس الأثري وبين تلال أثرية يرجع زمانها إلى عهد الملك الروماني دقيانوس، وامتداداً لمدرسة الخميس التي كانت ملحقةً بمسجد الخميس في العصور السابقة حيث كان يتم تدريس العلوم الشرعية والفلسفية والمنطق، تأسّست المدرسة المباركة العلوية كثاني مدرسة نظامية حكومية بعد الهداية الخليفية.

ومثل المدارس الأخرى، جاءت فكرة التأسيس من مجموعة من التجار المثقفين من أبناء الطائفة الشيعية، وكانت المدرسة عبارةً عن حجرتين للدراسة فقط، تفصل بينهما غرفةٌ للإدارة. وكان عدد الطلاب آنذاك ستة عشر طالباً، ثمانية لكل صف، وكان هناك مدرس واحد راتبه الشهري ١٥ روبية فقط. أما أعضاء اللجنة المؤسسة للمدرسة فهم السيدأحمد العلوي، والحاج علي السماهيجي، والسيدمحمد السيدحسن الماحوزي، والحاج إبراهيم عبدالعال.

وافتتحت المدرسة موسمها الدراسي للعام ٢٦ – ١٩٢٧، وكانت تضم طلاباً من جميع قرى البحرين.

لقد أغرى العمل في قطاع الحكومي أبناء البحرين بالالتحاق بالتعليم

النظامي، من أجل إتقان «لغة المال والأعمال» الإنجليزية، فقد كان الإلمام بالانجليزية نادراً في العشرينيات، فاضطرت الحكومة لتوظيف عدد من الكتبة والمساعدين الهنود، ذلك أن مدرسة الهداية التي تأسست - بحسب الرواية الرسمية - العام ١٩١٩ والصحيح أنها تأسست في أحسن الفروض العام ١٩٢١، (راجع ما كتبه محمد الرميحي في أطروحته للدكتوراه عن البحرين)... كانت تستخدم اللغة العربية في التعليم.

أما مدرسة الإرسالية العربية الأميركية فكان معظم طلابها في ذلك الوقت من المسيحيين واليهود الذين لم تستهوهم المناصب الحكومية، ولم يرسل التجار المتدينون من السنة والشيعة أولادهم إلى هذه المدرسة إلا في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، عندما بدأت شركة النفط التي تتكلم الإنجليزية تتدفق إلى منطقة الخليج والجزيرة العربية.

لقد أنشأت الحكومة عشرينيات القرن الماضي «لجنة التعليم» برئاسة الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة للإشراف على المدارس القائمة، وكانت مؤلفة من كبار وجوه السنة، بينما أبعد الشيعة عنها، وقد افتتحت مدرسة الهداية الثانية في المنامة سنة ١٩٢٣، تلاها افتتاح مدرستين في الحد والرفاع، وهو ما أدّى إلى خلق شعور لدى الشيعة بضرورة حصول أبنائهم على تعليم حديث، ولذلك شكّل هؤلاء لجنةً من وجهائهم لجمع الأموال لتغطية نفقات إنشاء مدارس خاصة بهم. وقد حضر المستشار البريطاني تشارلز بلغريف (ت ١٩٦٩) اجتماعات هذه اللجنة ليقدّم لها الإرشادات / الأوامر ويعلق على أعمال هذه اللجنة قائلاً: «كان الشيعة فقراء، ومع ذلك

فقد جمعوا عدة آلاف من الروبيات كمساهمة منهم». أنشأت لجنة الشيعة في قرية الخميس «المدرسة المباركة العلوية». وبعد مضي سنة استطاعت أن تشيد مدرسة أخرى «الجعفرية» والتي كانت مؤلفة من أربعة فصول.

وفيما نجد أن «لجنة السنة» قد استقدمت مدرسين من سورية لمدارسها، فإن «لجنة الشيعة» اتجهت إلى العراق لاستخدام مدرسيها! وفي الواقع فإن الظلال الطائفية ظلت تحكم واقع المحاولات الأولى لولادة المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية في البلد إبان الربع الأول من القرن الماضي، وهو ما ظهر واضحاً في مجالس التعليم والقضاء والمحاكم، بل وحتى في ملابسات المحاولات الأولى لتأسيس الأندية الثقافية، وهي زاوية تحتاج لدراسة تتحلى بقدر كبير من الشجاعة لفضح ونقد حمولاتها السلبية على المستوى الفكري والجمعي.

جاء تأسيس المدرسة المباركة العلوية تتويجاً لتاريخ علمي عريق ضارب الجذور، فلقد كانت البحرين، كما يقول المؤرخ الشيخ محمد علي التاجر في القرون الوسطى (القرون الأربعة الأخيرة): «ذات معارف عالية وسوق للعلم رائجة، وفطاحل العلم يوجدون بكثرة متناهية، فلا تكاد تخلو بلدة أو قرية من وجود عدد منهم فيها، ولكل واحد منهم مدرسة ملاصقة للمسجد الذي يصلى فيه، يلقى فيه الدروس والأبحاث على طلابه، وقد تخرج من تلك المدارس الجمع الغفير من العلماء الأفاضل، الذين سارت بهم الركبان وتحدث بفضلهم القاصي والداني، وكان يقصدها الطلاب من أقاصي البلدان وكانت تدعى (منارة العلم)، كما دعيت بها شيراز بعد ذلك».

وفي حدود الأرض التي شيدت عليها المدرسة العلوية، فلقد أنجبت «البلاد القديم» عدداً من العلماء والأدباء خلال القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، منهم السيدعلي بن إسحق البلادي (ت ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م) وكان أديباً ونحوياً، والشيخ علي البلادي (ت ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) صاحب كتاب «أنوار البدرين» الذي يعد مرجعاً تاريخياً مهماً، والذي تعرف أسرته بـ «البلادي»، وفي السنين الأخيرة تعرف بـ «القديحي»، وهي قرية في القطيف حيث ارتحل إليها الشيخ وعائلته. ومن الأسر المعروفة والتي نزحت إلى قطر «بيت ابن جمال الدين» ومنهم الشيخ أحمد بن جمال الدين البلادي البحراني، والشيخ محمد بن جمال الدين البلادي الذي كان متضلعاً في العلوم العقلية، ومن مؤلفاته «رسالة في الهيئة وعلم الفلك».

مدرسة المباركة العلوية، هذا الصرح التاريخي العريق، يتعرض اليوم لإهمال رسمي غريب ومريب، فقد تحوّل مبنى المدرسة إلى وكرٍ للقوارض والزواحف، وزواياها المتهالكة باتت مكمناً لأعشاش العصافير، وسقطت أسقف بعض غرف المبنى البالغ عددها ٩ غرف في مشهد «يصعب على الكافر»، ويستدر دمع الغيور على تراث وتاريخ الحركة الثقافية في البلد الذي كان منارةً للعلم وقبلةً للمتعلمين على مستوى دول حوض الخليج.

النداء موجّهٌ بشكل عاجل للجهات المعنية بالحفاظ على تاريخنا وتراثنا الوطني في وزارة الثقافة، وباعتبار أن هذا الصرح التاريخي والتعليمي يقع ضمن مسئولية وزارة التربية والتعليم فإنها أيضاً تتحمل المسئولية

الأكبر في إيلاء واجب صيانة هذا المبنى والحفاظ عليه من الانهيار، ويغيب بغيابه جزء مشرق من تاريخ البوادر الأولى لتأسيس الحركة التعليمية الحديثة في البحرين.

الشيخ حسين العصفور في رحاب الذكرى

قبل أيام خلت، مرت علينا ذكرى رحيل شخصية علمية بحرينية فذة، كان لها دور علمي بارز في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. ففي الحادي والعشرين من شوّال ١٢١٦ هـ (١٨٠١م) رحل الشيخ حسين بن الشيخ محمّد آل عصفور الدرازي عن دنيانا بقرية الشاخورة التي دُفن فيها، مخلّفاً مصنفات علمية كثيرة في علوم الفقه والأصول والحديث... وبعد حياة علمية مليئة حافلة بالانجازات.

لقد مثل مؤتمر العلامة الشيخ حسين آل عصفور: «الرسالة والموقف» المنعقد في الفترة من ١٤ – ١٦ مارس/ آذار ٢٠١٠، نقطة مضيئة في طريق إحياء ذكر هذه الشخصيات التي لاتزال مساهماتها العلمية في تاريخ البلاد مجهولةً، ومحطة مهمة من محطات إحياء التراث العلمي البحريني، لولا ما شابه من قصور تمثل الأول في غياب أغلب تراثه العلمي الذي لازال مخطوطاً؛ والثاني في مرور أكثر من ثلاث سنوات ولم تطبع بعد أوراق المؤتمر في كتاب وإتاحتها للباحثين كما وعد منظمو المؤتمر؛ والثالث في الانقطاع الذي تلا المؤتمر دون أية برامج علمية وثقافية كفيلة بإدامة الرسالة التي أقيم من أجلها المؤتمر، الذي نظم من قبل مجلس الحاج

منصور بن إبراهيم آل عصفور، بعيداً عن صخب الإعلام وضجيج المظاهر، والوقت لم يفت بعد، والرسالة والمسئولية يجب أن يستشعرها الجميع.

وحسناً فعل الشيخ فاضل الزاكي الذي كان أحد المشاركين في المؤتمر المذكور، حينما بادر بطباعة ورقة العمل التي قدّمها للمؤتمر، وصدر الكتاب مستقلاً بعنوان «تلامذة العلامة الشيخ حسين آل عصفور»، عن المجلس الإسلامي العلمائي (٢٠١٠)، والأمل لا يزال يحدونا في رؤية كتاب يضم بين دفتيه أوراق المؤتمر الآنف الذكر، وإخراج كل تراث الشيخ العلمي إلى النور.

ولد الشيخ حسين في القرن الثاني عشر الهجري في قرية الدراز، وانتقلت بيوتات متعددة من أفراد آل عصفور بانتقاله الشيخ منها إلى قرية الشاخورة، بسبب الكوارث والغارات الخارجية التي وقعت على البلاد، بينما بقيت أسر أخرى في الدراز للحفاظ على ممتلكات الأسرة ومنازلهم وأملاكهم الأخرى.

وبعد أن حطّ رحاله في الشاخورة، قام بشراء بعض المنازل لسكناه ولسكنى أفراد أسرته، كما قام ببناء مجلسٍ لبحثه ودرسه، ظلّ على امتداد سنوات مهوى لرواد العلم والفضيلة واستقطاب الكفاءات العلمية، بما كان يعد أعظم حوزةٍ علميةٍ شهدها تاريخ البحرين في حينه.

الرواياتُ المتداولة في كتب التاريخ تشير إلى أن سبب وفاة الشيخ حسين كان تعرّضه لطعنة حربة أودت بحياته في إحدى هجمات الغزاة

العمانيين التي تعرّضت لها البلاد وقتئذ، لكن بعض الباحثين يشكّك في قصة المقتل هذه، غير أن الأكيد أن هجرةً جماعيةً واسعة لأسرة آل عصفور أعقبت وفاة الشيخ حسين إلى البلاد والنواحي المحيطة كالمنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية والبصرة وكربلاء وخوزستان (الدورق والفلاحية وغيرها) وبوشهر وشيراز وكازرون وجهرم واصطبانات ويزد وطهران، ومن دجل السياسة ومضحكاتها أن يتم اتهام البحرينيين اليوم بأنهم من أصول ايرانية! والحال أن البحرينيين طوّحت بهم ظروفهم الصعبة في دروب المهاجر القريبة والبعيدة حتى وصلوا إلى قلب الهند وأطراف القارة السمراء في أفريقيا، طلباً للأمن والسلامة.

تتلمذ الشيخ حسين على أبيه الشيخ محمّد، ثمّ سافر إلى العتبات المقدّسة بمعية ابن عمّه الشيخ خلف، ولازما درس عمّهما الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م) في النجف الأشرف، حتّى منحهما إجازته المبسوطة المسمّاة بـ «لؤلؤة البحرين في الإجازة لقرّتي العين خلف وحسين» كما أخذ عن عمه الشيخ عبدعلي بعض الدروس. وكان يجيد الحفظ بشكل عجيب، ويُروى أنه كان يحفظ اثني عشر ألفاً من الأحاديث المعنعنة، وقد تخرج على يده الكثير من العلماء. وقد تأثّر الشيخ حسين كثيراً بعمّه الشيخ يوسف منهجاً وأُسلوباً وصياغةً وتحقيقاً، كما تشهد به كتبه ومصنّفاته.

وقد قال عنه السيّد محسن الأمين (ت ١٩٥١): «كان شيخ الأخبارية في عصره وعلاّمتهم، متبحّراً في الفقه والحديث، طويل الباع، كثير

الاطّلاع». ووصفه الشيخ آقا بزرك الطهراني (ت ١٩٧٠) بأنه «من المصنّفين المكثرين المتبحّرين في الفقه والأُصول والحديث وغيرها»، وقد ذكره في مواطن كثيرة جداً في موسوعته «الذريعة».

تتلمذ عليه الكثيرون، منهم الشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي (ت ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٦م)، والشيخ عبدالله بن علي الجدحفصي، والشيخ محمد بن خلف الستري، والشيخ محمد علي القطري البلادي والشيخ مرزوق بن محمد البحراني وغيرهم.

ولقد ثنيت له وسادة المرجعية العليا، ودانت له بالمرجعية الكثير من شعوب الخليج في جنوب العراق وخوزستان وبوشهر ولنجة وسلطنة عمان وقطر ومدن محافظة القطيف وخراسان وقبائل الهزارة في كابل عاصمة أفغانستان. ولا يزال الكثيرون في البحرين متمسكين بتقليده فقهياً رغم مضي أكثر من قرنين من الزمان على رحيله.

ومن أبرز مؤلّفات الشيخ حسين «رواشح العناية الربّانية في شرح الكفاية الخراسانية»، «عيون الحقائق الفاخرة في تتمّة الحدائق الناضرة»، «مفاتيح الغيب والتبيان في تفسير غريب القرآن»، «الأنوار الوضية في شرح العقائد الرضوية»، «الأنوار اللوامع في شرح مفاتيح الشرائع» (طبع منه أجزاء، وخضع للتحقيق من قبل المرحوم الشيخ علي العصفور، كما أن هناك جهداً آخر للشيخ محسن العصفور في إخراج هذا الموسوعة التي قد تبلغ في حال صدورها بالكامل نحو ٢٠ مجلداً، وجهود أخرى لمؤسسة طيبة لإحياء التراث في إخراج هذا العمل)، «كشف اللثام في شرح أعلام الأنام بعلم

الكلام» (للشيخ سليمان الماحوزي)، «شارحة الصدور ورافعة المحذور»، «القول الشارح في التوحيد»، «سداد العباد ورشاد العبّاد». و»الفوادح الحسينية» الذي قام بتحقيقه الشاب النابه السيد حسن علوي الموسوي، وكتب أخرى في وفيات أئمة أهل البيت النبوي الشريف.

محنة صعصعة ومحنتنا معه

ليس لأنه خطيباً بليغاً، من سادات عبد القيس.. ولا لانه من أسرة آل صوحان التي تشربت محبة آل بيت النبي ﷺ، بل لانه يمثل الدليل الأوضح على "وضاعة" تعاطي الحاضر مع الماضي، والسياسة مع التاريخ، وكيف تتدخل "الأحقاد" في تدمير الإرث الروحي والثقافي لوطننا الغالي.

من أخطر المسائل هي أن يترك التاريخ نهباً لمن ليسوا أهلاً لكتابته، والأخطر أن يتم القبول بنتائج الجهود الفكرية المبذولة وبآلياتها المشبوهة وغير الأمينة في محاولة السيطرة على الذاكرة التاريخية. ومن هذه الزاوية فإن التعدي المادي على مقام ومسجد صعصعة الواقع في قرية "عسكر" على الساحل الشرقي في جنوبي جزيرة سترة يخرج عن كونة جريمة "جنائية" هدفها الازعاج المذهبي، بل هناك جهد فكري ينحط الى مستوى التدمير "المعنوي" يستهدف تزوير تاريخ المقام وهوية صاحبه والمنطقة التي دفن فيها.

أخبار صعصعة كثيرة جداً في كتب التراث والأدب والتاريخ، وتروى عنه أخبار مطولة، حتى أن أبو اسحاق الحصري القيرواني (ت ٤٥٣ ه) عندما وضع كتابه الذائع (زهرة الآداب وثمرة الألباب) قال "ولم أذهب في

هذه الاختيار الى مطولات الأخبار، كأحاديث صعصعة بن صوحان وخالد بن صفوان ونظائرهما" لكثرتها وطولها.

ينتمي صعصعة بن صوحان الى قبيلة "عبدالقيس" من "ربيعة"، أما آل صوحان فرأسهم والد الصحابي زيد بن صوحان، واخوته صعصعة، وسيحان، وعبدالله. وكان صوحان سيداً مطاعاً في قومه ورئيساً نافذ القول فيهم. أما زيد وسيحان فقد استشهدا في موقعة الجمل عام ٣٦ ه. وكان سكن العبديين في البحرين مع أبناء عموتهم "بكر بن وائل"، غير أن لجماعات من هذه القبيلة هجرات الى عمان قبل الاسلام، ومنهم صعصعة وأخوه زيد، فقد عرف انهما من قاطني الكوفة بالعراق زمن الخلافة الراشدة. أما صعصعة فكان بداية ظهور الاسلام من النازحين الى عمان (سالم النويدري، أعلام الثقافة الاسلامية).

عرف ابن صوحان بولائه العميق حتى عُدّ من خلّص أصحاب الامام علي بن أبي طالب وشهد معه مواقعه كلها حتى نفاه المغيرة بن شعبة الى الجزيرة بأمر من معاوية بن أبي سفيان فعاد الى بلاده البحرين، حيث توفي ودفن في هذا موطن أسلافه. وفي الأعلام للزركلي أن وفاته سنة ٥٦ ه وله من العمر ثمانون عاما، وكان قد ولد في دارين قرب القطيف سنة ٢٤ قبل الهجرة.

الغريب أن هذا المعلم الديني والروحي الذي يعد الأهم في المملكة يعاني اليوم من الاهمال المريع عقب سلسلة هجمات تخريبية مقصودة، ففي

العام ٢٠٠٥ شهد المسجد اعتداءاً آثماً، تزايدت بعدها وتيرة الاعتداءات بدءاً من مارس ٢٠١١ حتى لقد سجلت أكثر من ثلاثة اعتداءات دُمرت فيها ممتلكات المسجد وتعرض لتخريب كامل وسط صمت رسمي مطبق !!

المسجد الذي يُعد من أبرز معالم الحياة الروحية في البحرين عوض أن يضع قطاع شؤون السياحة بوزارة الثقافة وهو الجهاز الرئيسي المسؤول عن التسويق، والترويج للبحرين "كبلد حضاري متميز بالحيوية والنشاط الإنساني المتنوع والمنفتح على ثقافات العالم" يترك مرتعاً للقطط والكلاب السائبة بعد سرقة مقتنياته وتدمير مرافقه !!

ومن المعروف تاريخياً أن قرية عسكر، كانت موطناً لأهالي قرية المعامير، يقول المؤرخ الشيخ علي البلادي (ت ١٩٢٢م)، في ترجمة الشيخ علي العسكري من أعلام القرن العاشر :"والعسكر قرية من قرى البحرين في طرفها الجنوبي، وهي الآن خراب غير مسكونة – قبل أن تسكن من غيرهم- وقرية المعامير حدثت بعد خرابها وأهلها أهلها".(أنوار البدرين). ويعدنا الشاب جاسم حسين صاحب موقع (سنوات الجريش) بكتاب سيصدر قريباً يحكي طرفاً من تاريخ قرية "عسكر الشهداء" وقصة هجرة أهالي عسكر الى قرية المعامير.

يذكر المؤرخ النبهاني (ت ١٩٥٠) ويروي:" والمشهور عند أهل البحرين أن من خصائص قرية عسكر عدم دخول الطاعون فيها، ويعدونها كرامة لصعصة بن صوحان رضي الله عنه. وفحص عن ذلك فلم يسمع منذ

سكنتها العرب أن أحداً مات بها مطعوناً قط. والله يختص برحمته من يشاء".

إثر أحداث فبراير ٢٠١١ سعت بعض الأبواق الإعلامية الى ترويج شائعة مفادها أن المساجد التابعة لادارة الاوقاف السنية تتعرض لاعتداءات متكررة على خلفية الغليان الطائفي المندلع في حينه، وكنتُ أتابع الموضوع مع مسئولي إدارة الاوقاف السنية في سياق التغطية الاعلامية الشاملة التي حرصت عليها الصحافة، لكن هؤلاء المسئولين الذين كانوا ينفخون في رماد هذه الشائعة لم يطرحوا دليلاً مادياً واحد على صدق هذه الإعتداءات المزعومة. ولم تمهلنا الحياة سوى أسابيع حتى حدث فتنة "تهديم المساجد" فسكتت الأصوات وسكنت الأنفاس !!

الى الغيارى الذين هزتهم شائعة استهداف المساجد .. مسجد صعصعة بن صوحان العبدي يتعرض للتخريب والنهب فماذا انتم فاعلون ؟

موسم الهجرة إلى كربلاء

دخل الناس هذه البلدة الطيبة من كل فجّ وسكنها البشر من كل بقعة وموضع، وهي أماني الزائرين في كل الأزمنة والأمكنة، يحيطون بمشهدها كما يحيط الجفن بالعين، ويعتصمون بحضرتها كما يعوذ الجسم بالقلب، وهي ملتقى القبائل المجيدة ومثابة البيوتات المعرقة.

أهمية كربلاء المدينة والتاريخ والرمز، تتضاعف في مواسم عاشوراء وذكرى الأربعين (العشرين من شهر صفر من كل عام)، يقصدها زوّار البحرين بالآلاف. ولعل أبرز من فتح عيني على تاريخ كربلاء هو إبن المدينة المؤرّخ الكبير سلمان هادي طعمة خلال مسيرته الطويلة والمستمرة في خدمة تراث مدينة كربلاء عبر العديد من المصنفات التي وثقت لأعلام وأدباء كربلاء وأعمالهم وآثارهم وبيوتاتها العلمية، غير أن اهتمامي بهذه المدينة غذّاه شغفي بتاريخ الهجرة البحرينية في نواحي الإقليم، ومنه ومن المصادر التي وقفت عليها، لاحظت تواجداً بحرينياً مهماً في مدينة كربلاء لم يدرس بشكلٍ واف.

باستمرار ظلت شبه الجزيرة العربية منبعاً يمد العراق منذ القدم بالقبائل، إذ كانت لقبائلها صلات بالعراق منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وبعد الفتح الإسلامي تدفقت على أرض السواد جموع القبائل من شبه الجزيرة واستوطنت الكوفة والبصرة وانتشرت منهما في أغلب ربوعه.

ولم يتوقف سيل الهجرة القبلية عن التدفق، بل استمرت موجاتها في التدفق، خصوصاً في فترات الفوضى والحروب وخلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين. بل إن آخر الهجرات الكبيرة جاءتها في أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي، ما جعل الوجود القبلي في العراق كثيفاً جداً.

ونتيجة لهذا السيل البشري الوافد لجأت الحكومة العراقية في مطلع القرن الماضي إلى إثارة مسألة الجنسية أمام الجاليات الخليجية في العراق، ولما كانت إمارات الخليج العربي بصورة عامة لم يتقرر لها بشكل رسمي جنسية خاصة وقتها، لذا جوبه الخليجيون بصعوبات إدارية كبيرة، حتى أن مراسلات مطولة جرت بين العراق وبريطانيا حول تحديد جنسية أبناء الخليج المتواجدين على أراضيها، وكان من أكثر أبناء الخليج معاناةً لتلك المصاعب البحرينيون والكويتيون.

ولقد كان لكربلاء نصيبها من استقبال الوافدين عليها من البحرين وشبه الجزيرة وإيران والهند، مما كان لتواجدهم وسكنهم في هذه المدينة تأثير كبير في نواحٍ شتى، دينية ومذهبية واجتماعية وسياسية وقومية.

وكانت الهجرة إلى كربلاء تأخذ أسباباً أبرزها:

١ - أنها تضم مرقدي الإمام الحسين وأخيه العباس، ومجاورة الإمام

الحسين كان لها بواعث دينية وروحية.

٢ - إنتقال الحوزة العلمية الدينية إلى كربلاء في فترة معينة أكسبها الزعامة الدينية والفكرية، ومن خلال إنشاء المدارس الدينية التي تعنى بالعلوم الفقهية والأصول والعقائد، ومن نتائجها حدوث الصراعات الفقهية والفكرية وتأسيس فرق جديدة مثل «الاخبارية» و«الشيخية» التى تطوّرت إلى «الكشفية» وغيرها من التيارات.

٣ - ترك الصراع السياسي الفارسي –التركي ظلاله على كثافة الوجود العربي والإيراني في مدينة كربلاء، فخلال السيطرة العثمانية على العراق، عمدت الحكومة الإيرانية –التي ظلت باستمرار تعد نفسها راعية العتبات المقدسة في العراق –على تكثيف تواجدها في مدن العتبات المقدسة من خلال تشجيع الكثيرين للاستقرار للدراسة والتفقه بعلوم الدين أو زيارة المشاهد المقدسة.

٤ - بساطة وطيبة سكان المدينة من العرب الأقحاح الذين كانوا مشغولين بالخدمة في العتبات المقدسة أو بالأعمال التجارية والاقتصادية والزراعية جعل من هذه المدينة واحة سلامٍ وملتقى لأقوام وشعوب مختلفة.

٥ - ظلت مدينة كربلاء باستمرار بمثابة سوق تجاري مهم، أغرى ذوي الطموح التجاري ورجال الأعمال بالإقامة والعمل فيها.

ويشير الشيخ محمد علي القصير المعروف بـ «قصير الأدباء» في مخطوطته «لمعة تأريخية في بيوتات كربلاء والغاضرية» المخطوطة سنة

١٩١٥ (١٣٣٣هـ) إلى عدد من البيوتات البحرينية التي اتخذت من كربلاء موطناً لها، مثل بيت السادة، وبيت آل عصفور، وبيت آل نطاح.

مع الاستاذ الكبير الدكتور سلمان هادي ال طعمة مؤرخ مدينة كربلاء في العتبة الحسينية

فبيت السادة آل السيد ماجد المعروف بآل السيد طالب، منهم السيد أحمد بن السيد ماجد أحد الخدام في الروضة الشريفة، و"آل ماجد أسرة علوية جليلة الشأن ذات جاه واعتبار وسمعة حسنة. وهي من خَدَمَةِ الروضتين، هاجرت من البحرين واستوطنت كربلاء" في القرن التاسع عشر الميلادي/ الثالث عشر الهجري. برز منهم الخطيب الحسيني السيد طالب آل ماجد (ت ١٩٠٤) الذي عاش نيفاً وتسعين عاماً، وكانت له مكتبة خاصة في بيته تحتوي على مجلدات كثيرة في كافة العلوم وتضم نفائس المخطوطات، ودفن في المقبرة الخاصة للأسرة في العتبة العباسية.

وتعد أسرة العصفور من أقدم الأسر العلمية النازحة من البحرين إلى كربلاء في القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري، إذ دشن الشيخ يوسف بن أحمد البحراني (ت ١٧٧٢م/ ١١٨٦هـ) بهجرته إلى كربلاء بداية جديدة للعائلة. وقد شيّد الشيخ يوسف جامعاً كبيراً في محل إقامته يقع في الجهة المقابلة للمدرسة الهندية الدينية، وقد عرف هذا المسجد اليوم بمسجد السلطانية لوقوعه مقابل باب السلطانية للروضة الحسينية.

وبيت نطاح وهم مهاجرون من البحرين التي نشطت في خدمة

الروضة الحسينية، ومن أعيانهم السيد محمد علي والسيد جعفر أولاد السيد نصر الهه بن محمد علي من سلالة الإمام الكاظم.

كما تواجدت في كربلاء أسرة علمية معروفة بلقب (آل البحراني) في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري، وتنتسب إلى الفقيه الكبير السيد عبدالله البلادي البحراني المدفون في بهبهان (إيران). ويشير مؤرخ كربلاء سلمان آل طعمة إلى كتاب صدر في مدينة كربلاء العام ١٩٦٥، يحمل عنوان «الفقيه الطاهر»، وفيه عرض مسهب لأعلام أسرة آل البحراني.

ومن أبرز سلالة هذه العائلة في كربلاء السيد عبدالله بن السيد محمد البحراني المتوفي في كربلاء سنة ١٧٩٥، ونجله السيد محسن بن السيد عبدالله (ت ١٨٨٩)، وقد وُلد وعاش وتوفي في كربلاء. ومن علماء هذه الأسرة السيد محمد بن السيد محسن (ت ١٩٣٧)، وأعقب السيد محمد طاهر (ت ١٩٦٤) الذي كان يقيم الجماعة في المشهد الحسيني، وعقب أولاداً أربعة تناوب اثنان منهم على إمامة صلاة الجماعة في الصحن الحسيني.

كما أن لآل الغريفي تواجداً قديماً في كربلاء يعود إلى بدايات القرن التاسع عشر حين هاجر إليها من البحرين السيد علوي بن محمد بن حسين الغريفي العام ١٨١٦، ومن أبرز أعيانهم السيد هاشم بن السيد حسن بن السيد نعمة الغريفي الموسوي الحائري (ت ١٩٣٤) الذي كان خطيباً حسينياً ومديراً لمدرسةٍ أهلية.

وهناك الشيخ حسن علي بن عيسى المحروس الذي كانت له مكانة علمية مرموقة في البحرين والقطيف والنجف الأشرف، وقد افتقد في العام ١٩٤٣ في كربلاء ولم يعثر له على أثر في زحام الموسم الكبير في ذلك العام. وترك من الأولاد عباس وعبدالحسين وصبار من زوجته العراقية، وكان الأول منهم حاكماً عاماً في كربلاء.

وأسرة آل فرج الله البحرينية الأصل، وجدهم الأعلى الشيخ أحمد بن عبدالله المتوّج الذي ينتمي إلى قبيلة بني أسد الشهيرة، ويرى الأستاذ سالم النويدري أن أول من هاجر من البحرين إلى العراق جدّهم الشيخ علي بن الحسين ابن الشيخ أحمد المتوج البحراني الذي له مرقد معلوم بين البصرة والمنتفك يعرف بـ "مقام علي".

مكتبة الشيخ محمد صالح العريبي

للراحل الشيخ محمد صالح العريبي (١٩٢٤ – ٢٠٠٠) مكتبة غنية بالمخطوطات النادرة، وهي جديرة بأن يتعاقب المحققون على تمهيد السبيل للانتفاع بها والاستمداد منها بوصفها إرثاً وطنياً بالغ القيمة.

لم يعرف عن الشيخ العريبي أنه كان ناشراً للكتب المخطوطة، لكنه كان في طليعة المهتمين بالتراث المخطوط لعلماء البحرين، ومن الذين ساهموا في جمعه وحفظه، ومن الطبيعي أن عملية إحياء التراث تتشكل من حلقات متصلة وخطوات منتظمة تبدأ بالجمع والحفظ وتتواصل في صور شتى من نشر أو تفسير أو تلخيص أو نقد أو تعليق.

كان العريبي إلى جانب انشغاله بتدريس العلوم الدينية والقضاء الشرعي وحل النزاعات بين الناس؛ مغرماً بجمع التراث والمخطوطات، وإن جاءته هذه الهواية والغواية في مرحلة الشيخوخة، وكم تأسف (رحمه الله) على ما فاته من فرص كانت ستضع يده – لو استغلها – على كنوز جليلة من المخطوطات والتراث العلمي غير المنشور.

وقد نقل لي الشيخ محمد عيسى المكباس، وهو من تلامذته الذين ورثوا عنه حب التراث والمخطوطات، أن الشيخ العريبي لطالما كان يتأسف

على أيام شبابه التي قضاها قريباً من الشيخ حسين علي البلادي البحراني (ت ١٩٦٧) صاحب كتاب «رياض المدح والرثاء» وابن الشيخ علي البلادي مؤلف كتاب «أنوار البدرين في تراجم علماء الاحساء والقطيف والبحرين»، والذي «كانت مكتبته تضم نفائس المخطوطات وذخائر التراث، إلا أن اهتماماتي يومها – يقول العريبي – بعيدة عن المخطوطات، وكانت النجف الأشرف إلى ذلك تشهد مزاداتٍ للكتب القديمة والمخطوطات التي كانت تباع بأثمان زهيدة بسبب ما يعيشه طلاب العلوم الدينية والمجتمع النجفي بعمومه من أوضاع مادية صعبة».

إنني من الأشخاص الذين يعتقدون بأن التاريخ لم ينصف إسهامات البحرينيين العلمية والأدبية عبر العصور بالشكل الذي يتناسب مع دورهم الحقيقي والكبير فيه، ولعل أبرز مصاديق ذلك ما نعثر عليه جهلاً أو تجاهلاً بهذا الماضي العريق والجميل لدى الجيل الطالع اليوم من رحم شواغل السياسة ووطأة تداعياتها الإنسانية في الاهتمامات والأولويات، وفي الشعور النفسي المشبع بفكرة واجب تحصين الذات وما يلوذ بها من الأذى المادي.

كرس الشيخ العريبي حياته للدرس والتحصيل، فأخذ عن مجموعة من العلماء في البحرين وخارجها منهم والده الشيخ محسن العريبي (ت ١٩٤٤) والشيخ عبدالحسين الحلي (ت ١٩٥٦) والسيدمحسن الحكيم (ت ١٩٧٠) والسيدمحمد علي الحمامي (ت ١٩٩٨) والشيخ باقر القرشي (ت ٢٠١٢).

التحق بسلك القضاء العام ١٩٧٢، وفي العام نفسه افتتح مكتبة «وليد

الكعبة» وباشر فيها تعليم الصلاة ودروس اللغة العربية والنحو والفقه، والحق أن أستاذنا منصور سرحان قد اشتبه وهو يؤرخ للمكتبات في البحرين، فخلط بين مكتبة العريبي الشخصية، ومكتبة «وليد الكعبة» التي أسسها ونقل إليها «بعض» المخطوطات وهي تختلف عن مقتنياته الخطية الراقدة في مخازن منزله المحجوبة عن أنظار الزائرين. فذكر سرحان «يبلغ محتويات مكتبة وليد ٢١٥٠ مطبوعاً من بينها ١٥٠ مخطوطة».

لم يبخل العريبي بما عنده من الكتب الخطية النادرة في مساعدة طلاب العلوم الدينية وطلاب الدراسات العليا للتحقيق والكتابة. وكان من الذين أفادوا من مكتبته العامرة عددٌ من طلاب الدراسات العليا منهم الشيخ زكريا العويناتي التي جاءت رسالته في الماجستير عن ديوان السيدخليل بن علوي الجدحفصي (ت ١٨٩٢) المعروف بـ «ابن يتيم» قدم فيها دراسة وتحقيقاً لديوانه لجامعة القديس يوسف (٢٠٠٤)، ويبرز الديوان كأهم مخطوط شعري، وضم أغراضاً من الشعر كالغزل والهجاء والمدح، كما ضمّ وصفاً للبحرين وذكر بعض مناطقها كالمنامة والبلاد.

وكان العريبي يعتمد طريقة حذرة ومميزة في مساعدة من يتوسم فيهم الجدية والرغبة في العناية بالتراث والتعامل مع المخطوطات، إذ كان يعتمد طريقة «مبادلة» نسخ من مخطوطة يملكها بنسخة من مخطوطة لا يملكها، وربما أعان الراغب بالحصول على مخطوطة نادرة بإلزامه بطباعة المخطوط نسختين لإتاحة نسخة احتياطية في مكتبته لمن يشاء من الباحثين والمهتمين، إذ كان العريبي يفتح مجلسه مساء كل يوم ظهراً إلى

وقت المغرب.

ويؤكد العارفون بالشيخ أنه كان ضنيناً على إتاحة موجودات مكتبته من المخطوطات، حذراً من وضعها في يد من لا يقدّر قيمتها.

كما ضمّت المكتبة قصائد مخطوطة كثيرة ومتنوعة، من بينها مخطوط شعري لعبدالله بن صالح بن جمعة السماهيجي (ت ١٧٢٣) ومخطوطة «منتظم الدرين» لمحمد علي التاجر وهي بخطه. وللتاجر مخطوطة أخرى بعنوان «عقد اللآل في جزيرة أوال» ونسخة من مخطوطة «لؤلؤة البحرين» للشيخ يوسف البحراني.

وقد وصف الشيخ محمد عيسى المكباس في كتابه «فوائد الأسفار في وصف مخطوطات علماء البحرين الأبرار» نحو ٤٨ مخطوطاً من مكتبة الشيخ العريبي، ويشير المكباس إلى ملاحظات طريفة حول شراء الشيخ العريبي لبعض المخطوطات من مكتبة الشيخ محمد علي التاجر؛ فقد اشترى الجزء الثاني من كتاب «أزهار الرياض» للشيخ سليمان الماحوزي بمبلغ ٨٠٠ فلس، واشترى كتاب «أوراد الأبرار في مأتم الكرار» للشيخ حسن الدمستاني بـ ٢٥٠ فلساً!

كما كانت مكتبة الشيخ العريبي واحدة من المكتبات التي أفاد منها مدير مركز الوثائق التاريخية علي أبا حسين في «فهرس مخطوطات البحرين» الذي أصدره المركز العام ١٩٨٣ والواقع في جزأين، حيث ضم الفهرس وصفاً لعشرات المخطوطات من مكتبة الشيخ العريبي.

ولكن أين ذهبت هذه الذخائر التراثية بعد وفاة الشيخ العريبي؟

انتقلت المكتبة بعد رحيل الشيخ إلى ملكية أكبر أولاده الشيخ عبدالحسين العريبي الذي سلّمها بدوره لابن عمه علي العريبي، ولأن الطموح وقتها كان باتجاه إنشاء مركز إسلامي ضخم ومتكامل الأغراض باسم الوجيه الحاج حسن العالي (ت ٢٠٠٣)؛ فإن هذا الإرث النفيس انتقل إلى يد الوجيه جلال العالي، على أمل أن يشكّل بذرةً لمركز علمي طموح ينمو مع الوقت.

ولسنا نعلم على وجه اليقين كيف سيتم الاستفادة من هذه المكتبة في ظل موانع اليوم، وإن كان بعض مقتنياتها قد أفلت من غبار المخازن المعتمة ووجد طريقه إلى النشر، لكن الأكيد أن إتاحتها للباحثين والمهتمين يعد مسئولية وطنية وواجباً تتضاعف أهميته في ظل محاولات المحق الثقافي المتواصل.

تلك الأيام... البحرين في "سُلافة العصر"

كثيرون هم من كتبوا عن الحياة العلمية والأدبية في البحرين خلال القرون الماضية، وزخرت مؤلفاتهم التاريخية بالكثير من المشاهد الحية لطبيعة المناخ العلمي الذي كان سائداً في القرون السالفة. فقد زار البحرين الميرزا عبدالله الأفندي الأصفهاني في القرن السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري، ودوّن رحلته في كتابه «الفوائد الطريفة». وفي القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري، زارها الشيخ شرف الدين محمد مكي الجزيني وأقام بمنطقة البلاد القديم عامين، ودوّن عن علماء البلاد نصّاً تضمن الكثير من المعلومات التاريخية المنفردة. ولأن نص الجزيني الذي تركه مؤلفه بلا عنوان، لايزال مخطوطاً، فقد تصدى الشيخ إسماعيل الكلداري لتحقيقه وإخراجه، والكتاب ينتظر الطباعة.

أيضاً كتب السيد علي بن أحمد المدني الحسيني الشيرازي المدني (ت ١٧٠٨م/ ١١٢٠ هـ) المعروف بابن معصوم كتابه القيّم «سلافة العصر في محاسن أهل كل مصر»، وللسيد علي هذا أكثر من آصرة ووشيجة تربطه بالبحرين، ليس لأنه أرّخ لشعرائها وأدبائها وأعلامها في كتابه السلافة؛ بل لأنه اختلط بعلماء البحرين (المهاجرين إلى إيران والهند)، وكاتبهم، وأخذ العلم على بعضهم ونشأت له مع البعض الآخر صداقات متينة ومودة غامرة،

وهو ما يتضح بجلاء في «سلافة العصر» الذي طبع في مصر سنة ١٩٠٦.

ذكر السيد المدني في هذا الكتاب، الأكابر من الفضلاء والنبلاء ومجيدي الشعراء والبلغاء من أعلام القرن السابع عشر الميلادي/ الحادي عشر الهجري، واشتمل كتابه على محاسن أهل العصر وأخبارهم وتقييد أشعارهم وشواردهم، حيث ترجم لأكثر من مئة شخصية كان نصيب شعراء البحرين منها إحدى عشرة شخصية.

لقد كتب هذا الأديب الموسوعي والرحالة المغامر عن السيد ماجد بن هاشم الحسيني البحراني (ت ١٦١٨م/ ١٠٢٨ هـ) العالم الأديب والشاعر الذي تولى القضاء في شيراز، وذكر طرفاً من شعره. ومن بديع شعره في الغزل:

حسناء ساءت صنيعاً في مُتيمها ... ياليتها شفعت حُسناً بإحسانِ

دنت إلينا وما أدنت مودتها ... فما انتفاع امرئٍ بالباخل الدّاني

كما ترجم للسيد حسن بن أحمد الحسيني الغريفيّ (ت ١٥٩٣م/ ١٠٠١ هـ)، وقال إنه «بحر علم تدفقت منه العلوم أنهاراً»، و«الفقه كان أشهر علومه»، وكان بالبحرين «إمامها». وهو من تلامذة الشيخ داود بن أبي شافيز (ت ١٦١١م/ ١٠٢٠ هـ) الذي أنشد حين بلغه وفاة تلميذه:

هلك القصرُ ياحمام فغني ... طرباً منك في أعالي الغصونِ

ونتعرف في «السلافة» على السيد محمد بن عبدالله الحسيني بن شبانة البحراني الذي هاجر إلى الهند واجتمع بوالد صاحب السلافة الأمير أحمد بن معصوم قبل أن يقصد إيران ويستقر بمدينة أصفهان التي تولّى فيها

منصب «شيخ الاسلام». وينقل ابن معصوم أن هذا السيد كان قد كاتبه سنة ١٦٦٠م (١٠٧٠ هـ)، ومدحه شعراً.

كذلك يرد ذكر السيد عبدالله بن السيد محمد بن شبانة (ابن السابق)، وهو شخصية أدبية مرموقة كانت لها علاقة وطيدة مع والد صاحب السلافة في الهند، ولكن حدث بينهما — كما يبدو من شعره - ما يستوجب الاعتذار وأورد له شعراً كثيراً في هذا الجانب.

كذلك نقف على شخصية السيد ناصر بن سليمان القاروني، الشاعر الأديب، إذ يروي صاحب السلافة عن شيخه العلامة جعفر بن كمال الدين البحراني أكثر شعر السيد ناصر، وينقل عنه بعض أحواله. ومما رواه أن السيد ناصر أنشد على قبر السيد حسين بن عبدالرؤوف البحراني:

الحكمُ والإمضاءُ والأمرُ والحلمُ والإغضاءُ والصبرُ
فيك اجتمعن وان واحدةً منها يحقّ بها لك الفخرُ

كما يتحدث السيد ابن معصوم عن السيد عبدالرضا بن عبدالصمد المولى البحراني وأخوه السيد أحمد، ويقول عن الأخير ولا يحضرني من شعره غير ما أنشدنيه له شيخنا العلامة جعفر بن جمال الدين البحراني.

كما يفرد للسيد علوي بن إسماعيل البحراني مساحة لترجمته، وقال عنه «فاضل في النسب والأدب»، ويبدو أن السيد علوي هذا قد هاجر إلى القطيف وربما كان مقيماً فيها، حيث يقول: «وهو اليوم شاعر هجر.

كذلك يترجم للسيد عبدالله بن السيد حسين البحراني. قال عنه «وقد صحبني سنيناً ومازلت بفراقه ضنيناً حتى فرق الدهر بيننا»، ومما نظمه السيد

حسين لصاحبه ابن معصوم:

فخر العلا بحر المكارم لـم تـزل بكـمُ المعـالي تـستطيل عُـلاءً

طوقتني طوق السرور فهاك مـن جيـد تطـوق بالـسرور ثنـاءً

ويـرد اسـم الفقيـه الـشيخ داود بـن أبـي شـافيز المـتكلم الجـدلي والشخصية الأدبية المعروفة. ويختم ابن معصوم شخصيات أدباء البحرين بشخصية الشاعر العلم أبو البحر جعفر بن محمد الخطي (ت ١٦١٨م/ ١٠٢٨ هـ)، الذي وُلد في القطيف وعاش أغلب حياته في البحرين وانتقل إلى ايران.

والذي يتضح من خلال ما أورده ابن معصوم في السلافة، أن البحرين كانت تعيش قبل أكثر من ثلاثة قرون ونصف نهضة أدبية كبرى، وكانت مدارسها تكتظ بالعلماء، وتلك صفحة مشرقة من تاريخ البلاد حقّ لنا أن نفخر بها ونعتز.

وضع ابن معصوم كتابه «سلافة العصر» بعد أن قرأ في مكة المكرمة كتاب «ريحانة الألبّا وزهرة الحياة» للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت ١٦٥٨م/ ١٠٦٨ هـ)، وأبدى إعجابه بالكتاب، لكنه قال إنه «أهمل ذكر جماعةٍ من أكابر الفضلاء وأماثل النبلاء، ومجيدي الشعراء ومفيدي البلغاء»، فعزم على استدراك النواقص بكتابٍ يذكر فيه ما فات صاحب الريحانة وما سبقه من مؤلفين، مع حرص على انتقاء الأشعار المفيدة التي لم يخالطها الغثّ والسمين.

ميزة كتاب السلافة، أنه ترجم لشخصيات لم يرد لها ذكر في كتب

أخرى، وأورد أشعاراً لـم تـرد فـي الكتـب الـسابقة عليـه، ممـا يجعـل كتابـه منفرداً ومتميزاً، والميزة الأخرى أنه ترجم لشعراء وأعيـان عـصره مـن الـسنة والشيعة، وهو ما يجعل كتابه يتسم بالشمول والموضوعية، وقد اتـسع أطلـسه الأدبـي إضـافة «محاسـن» أهـل البحـرين والعجـم والعـراق؛ محاسـن أهـل الحرمين والشام ونواحيها، واليمن، والمغرب.

وقد وظّف السيد المدني رصيده العلميّ وثقافته الموسـوعية وخبرتـه الواسعة فـي علـم الحـديث والتـراجم والـرحلات، والـشعر والبـديع والنحـو والصرف، وسكب كل ذلك في «سلافته» التي شرع في تأليفها سنة ١٦٧٠م/ ١٠٨١ هـ وفرغ منها سنة ١٦٧٠م/ ١٠٨٢ هـ سالكاً فيها مـسلك الثعـالبي (ت ١٠٦٦م/ ٤٥١ هـ) في «يتيمة الدهر»، والبـاخرزي أبـو الحسن علـي ابـن ابـي الطيب (ت ١٠٧٥م/ ٤٦٧ هـ) في «دمية القصر.

قدم ابن معصوم في «السلافة» لمحة عن من تـرجم لهـم، فعـرّف بهـم من حيث النسب، وتاريخ الولادة والوفاة، ومكان الـدفن، والمرتبـة العلميـة، والمكانـة الاجتماعيـة، والمـذهب الـديني، والمؤلفـات إن وجـدت، وأورد بعضاً من الشعر. ويزخر الكتاب بالمحسنات البديعيـة التـي أغـرق بهـا كتابـه انسجاماً مع ما كان سائداً في عصره من أساليب الكتابة النثرية.

يبقى أن نشير إلى حاجة هذا الأثر النفيس إلى من يعتنـي بـه ويحقّقـه ويخرجه الإخراج اللائق، وتعكف الباحثة أنيسة المنـصور حاليـاً علـى هـذه المهمة اعتماداً على سبع نسخ خطية، ونترقـب إلـى تلـك اللحظـة التـي نـرى فيها هذا العمل بين أيدي القراء وعشاق المعرفة.

مظاهر الحياة العلميّة في البحرين في العصر الصفويّ

مقدمة

هذه وقفة تاريخيّة من قاريء شغوف لتاريخ وتراث بلده، غير أن هذا الشغف يتحوَّل في حالتنا - نحن البحرانيين - إلى نوعٍ من القتال المضني، والمبارزة المستبسلة في إثبات حق البقاء؛ ذلك أن التاريخ بات يمثل ورقةً لتصفية الحسابات السياسية، تعبث به الأقلام المأجورة، وتُحرّف فيه الأحداث طبقًا لهوى الحكام والمستنفعين.

راعني هذا العبث بذاكرة وطن، قلت فيه يوماً: "إن وطننا هذا يعاني منه تاريخه من سياسته". فعزمت على الخوض في عباب التاريخ بكل تناقضاته، ورواياته المتعددة، وأحزانه الكثيرة، وأفراحه التي لم يصل لنا منها الشيء الكثير، وشخصياته العلميّة والأدبيّة الطموحة، والمغامرة، التي لم يسمع عنها الجيل الجديد الكثير في زمن تْويتر والفيس بوك، والإنستغرام، وشبكات التواصل الاجتماعية الأخرى، وإن سمع، فهي معلومات سطحية يعوزها الكثير من الضبط والمعالجة المعمقة.

اخترت موضوع (**مظاهر الحياة العلمية في البحرين في العصر**

الصفوي)، لاسباب عدة، أبرزها:

١ - نُدرة المصادر والأبحاث العربية التي تتناول التاريخ الصفوي، حيث أن الدولة الصفوية قامت في زمن الدولة العثمانية، وكلتاهما أسست إمبراطورية بعد فترة من الصراع والتناحر عرفتهما البلاد الإسلامية إثر غزوات المغول، وقيام الدويلات والإمارات المتعددة التي كانت أكبرها الدولة الإيليخانية والتيمورية؛ لذا تميزت المصادر العربية بكثير من التحيز، كما بدت محكومة بالآراء المسبّقة، عاكسةً ما تحمله الذاكرة من صور المآسي التي تركها المغول والتيموريون، أو متبنية النظرة العثمانية التي لم تكن حيادية تجاه الصفويين.

٢ - إن هذه الحقبة الزمنية قد أسقطت تمامًا، أو جرى التقليل من أهميته العلمية والسياسية والاجتماعية في الكتابات البحرانية المشبعة بالتوجه الرسمي.

٣ - إن هذه الفترة المجهولة من تاريخ البحرين، تميزت بحراك علمي وثقافي وأدبي واسع، وسمت منطقة ما كان يعرف سابقاً بالبحرين القديمة بمناطقها الثلاث (أُوال، هجر، والقطيف) بميسمٍ ثقافيّ وروحيٍّ خاص، وفي محاولتنا الكشف عن ملامح هذه الحقبة على الصعيد الثقافي والأدبي للمنطقة إعادةُ اعتبارٍ لدور المنطقة الحضاريّ، والمساهمة في فهم تاريخها العام، بعيدًا عن الشطب والمحو والإلغاء استجابةً لأغراضٍ طائفيةٍ، أو نوايا سياسية، أو دوافع هي أبعد ما تكون عن مقتضيات البحث العلميّ الرصين.

٤ – إن هناك وعيًا تاريخيًّا ملتبسًا حول تاريخ البحرين (جزيرة أُوال تحديدًا)، فهذه المنطقة اشتركت في حيز جغرافي واسع المدى، يمتد من خليج البصرة شمالاً حتى ساحل عمان جنوبًا، الأمر الذي أفقد جزيرة البحرين الحالية خصوصيتها على مستوى البحث التاريخي. وهذه إشكالية أشار إليها تقريباً أغلب من كتب في تاريخ البحرين.

٥- إن هناك نوعًا من التمركز في الأدبيات والدراسات التاريخية حول الأبعاد السياسية والاقتصادية للمنطقة، طبقًا لما كان يريده منها ويخططه لها المستعمرون، الذين لم تكن تعنيهم الظواهر الاجتماعية والإنسانية بقدر عنايتهم بالجوانب التي تخدم هدفهم في إحكام السيطرة على ثروات البلاد، وترتيب شؤون النهب المنظم لخيراتها.

لهذا كله، يأتي هذا الموضوع، آملا أن – من خلاله أن أتمكن من إضاءة جانبٍ من جوانب تاريخ بلدنا المغيب.

دخول البحرين تحت حكم الصفويين

شهدت البحرين التي كانت تعرف بجزيرة أُوال في القرن العاشر الهجري – السادس العشر الميلادي) تحولاتٌ كبرى أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المجتمع، وتسببت في هجرة الكثير من البيوتات والأسر البحرانيّة، وكان منهم بطبيعة الحال العديد من رجال الدين، الذين قصدوا المناطق المجاورة كالأحساء، والقطيف، وبلاد فارس، حيث كانت حواضرها العلميّة في شيراز وأًصفهان وبهبهان وكاشان ومشهد وغيرها، مزدهرة

بتدريس علوم الدين في ظل حكم الصفويين الذين كانوا يتمركزون في شمال غربي إيران، ومنذ أولى أيامها أعلنت الدولة الصفوية وبشجاعة أمها تتبع التشيع الامامي مذهباً مع أن أقل من ثلث أهل تبريز كانوا على مذهب التشيع. وقد زين الشاه اسماعيل الصفوي خطبة المنابر ووجه الدنانير بأسماء الائمة الاثني عشر وأظهر مذهب الامامية بعد ان كان مخفياً مدة طويلة بسبب الغلبة السنية[١].

ولقد برز في هذا العصر حدثان فكريان مهمان ساهما في إيجاد الأرضية الملائمة لنشوء الصفويّة الطريقة ثم الدولة، وهذان الحدثان هما:

الأول: انتشار حلقات التصوف والفرق الصوفية، وقد ساهم اضطراب الأوضاع الاجتماعية، واحترام الحكام لمشايخ الصوفية في تحول التصوف إلى تيار وحركة اجتماعية / فكرية أساسية.

الثاني: الانتشار السريع لحركة التشيع.

إن سقوط الخلافة العباسية في بغداد، والحكومات المذهبية المتعصبة الأخرى التي كانت الداعم الأساس للتسنن، ومع جهود علماء الشيعة الذين استفادوا من حالة الليونة والتساهل التي أبداها الإيلخانيون لنشر التشيع، هذه العوامل أوجدت مناخًا مهمًّا لنمو التشيع، وانتشاره في إيران.

وأصبح تنامي هذين التيارين مقدمة لظهور الصفويّة التي شكلت

---

(١) رسول جعفريان: أطلس الشيعة، ترجمة : د. نصير الكعبي، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط ١، طهران ٢٠١٣، ٢٧٠.

الميول والنزعات الصوفية والشيعية عمادها الأساس.

خلال هذه الحقبة أيضا ومع ملاحظة التوجه الدينيّ للدولة، وُجدت فرصة مناسبة لنشاط علماء الدين، وكانت النتيجة أن انتشرت الأبحاث والمتون العلمية الشيعية، وطُرحت الأفكار والنظريات الفقهية والكلامية والفلسفية على بساط واسع.

لقد كانت جزيرة البحرين (أُوال)[1]، في قلب الاقليم الذي كان يطلق عليه اسم البحرين عمومًا من مناطق ساحل شبه الجزيرة العربية الشرقي الممتد من خليج البصرة شمالاً حتى ساحل عمان جنوباً، قبل دخولها تحت حكم الصفويين، خاضعة للبرتغاليين الذين بسطوا سيطرتهم عليها سنة (٩٢١ هـ / ١٥١٥م)، وبنوا فيها غربي المنامة قلعة تسمى (العجاج)، وظلوا باسطي

---

(١) الباحث علي العريبي فقد ذهب في أطروحته للدكتوراه المقدمة الى جامعة ماكجل بمونتريال (سنة ١٩٩٢م) والتي جاءت بعنوان (المدرسة الثيوصوفية في البحرين في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) إلى أنه من المؤكد أن اسم (البحرين) لم يستخدم كعلم على هذه الجزيرة إلا بعد القرن (السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) بمدة طويلة (أنظر أطروحته بالانجليزية

Shicf Renaissance: A case study of the theosophical school of Bahrain in the ٧th / ١٣th century. McGill Univ. Ph. D.

(١٩٩٢) ومازالت غير منشورة وغير مترجمة. بينما يرى آخرون أن البحرين أُطلق على هذه الجزيرة – أو عاصمتها على الأقل – من أوائل القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) تقريبا.

سيطرتهم هذه إلى أن تمكن الشاه عباس الصفوي لهم من البحرين، بقيادة كمال الدين بن يحي الكردي الفيروزأبادي من طردهم منها بعد مقتل الحاكم الذي عينه البرتغاليون، سنة (١٠١١ هـ / ١٦٠٢م).

وقد دفع الخوف بأهل البحرين من عودة البرتغاليين - الذين اضطهدوهم - إلى جزيرتهم مرة أخرى، إلى جانب الصراعات المحلية التي نشبت على حكمها، دفعتهم إلى مكاتبة السلطان الصفوي الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ – ١٦٢٩) لبسط حمايته على البحرين. وقد علل النبهاني ذلك في (التحفة النبهانية) بأنه "لقربه منهم موضعًا ومذهبًا"[١]، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها، فـ"إن تشيع أهل البحرين وقصباتها مثل القطيف والأحساء شائع من قديم الزمان" كما يقول صاحب كتاب (مجالس المؤمنين)[٢].

وتذكر المصادر التاريخية الفارسيّة أن الشاه عباس الكبير قد أمر واليه على فارس (شيراز) إمام قلي خان سنة (١٠٣٠ هـ/ ١٦٢٠م) بالاستيلاء على جزيرة (هرمز) وانتزاعها من أيدي البرتغاليين الذين كانوا يحتلونها منذ العام ٩١٣ ه / ١٥٠٨م وقد تمكن إمام قلي خان من فتح (هرمز) بعد حصار ضربه على ميناء (جمبرون) الذي أصبح اسمه (بندر عباس) منذ ذلك الوقت.

وأغلب الظن أن الدافع الرئيس الذي دفع الشاه عباس الكبير للقيام بهذه الحملة هو التمهيد لإدخال البحرين ذات الأغلبية الشيعية في الحماية

---

(١) محمد خليفة النبهاني: التحفة النبهانيّة ٧٣.

(٢) القاضي نور الله الشوشتري: مجالس المؤمنين ١ : ٧٤.

الصفويّة، حسبما هو معروف من توجهات سلاطين الصفويين المذهبية، وبخاصة الشاه عباس[(١)].

وقد تمكن والي (شيراز) من فرض سيطرته على البحرين، وبذلك بدأت هذه الجزيرة عهداً جديداً نعمت فيه طوال السبعين سنة التي تلت بالاستقرار السياسي والاجتماعي، رغم المظالم[(٢)] التي ارتكبها ضد الأهالي بعضُ الولاة الذين تعاقبوا على حكمها من قِبَل الصفويين.

بدأت مرحلة الحكم الفارسيّ الصفويّ للبحرين[(٣)] في حدود ١٠١١ هـ / ١٦٠٢م واستمرت حتى ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م تقريباً، أي ما يعادل ١٨٦ عاماً من بين قرنين من الزمان هي عمر الدولة الصفويّة (٩٠٧ – ١١٤٨ هـ / ١٥٠١ – ١٧٣٦م)، وتتسم هذه المرحلة بالغموض والضبابية.

سياسيّاً، لم تستقرّ الأوضاع في البحرين للصفويين، فسرعان ما توافدت على البحرين في أواخر القرن (الحادي عشر الهجري / أواخر القرن السابع عشر الميلادي) موجات استيطانية من قبائل (الهولة) و(العتوب)، ونتيجة لضعف الدولة الصفويّة، وتضاؤل سيطرتها على

(١) خالد العطية: الحدائق الناضرة للمحدث البحراني ١٨.

(٢) أنظر: ناصر الخيريّ: قلائد النحرين في تاريخ البحرين ١٩٧ – ٢٠٣ / محمد النبهاني: التحفة النبهانية ٧٢ – ٧٤ / محمد علي التاجر: عقد اللآل في تاريخ أُوال ٩٦.

(٣) المؤرخ النبهاني في (التحفة) يقول إن تملك الدولة الصفوية في البحرين حدث في العام (١٠٣٩ هـ / ١٦٣٠م).

البحرين في عهد آخر سلاطينها الشاه حسين (قتل ١١٤٠هـ / ١٧٢٧م) بدأ (العتوب) بشن غارات على الأهالي، الأمر الذي دفع بشيخ الإسلام في البحرين محمد بن عبد الله بن ماجد بالاستنجاد بقبيلة (الهولة) الساكنة في الساحل الفارسي المقابل، فجاءوا ووقعت الحرب بين القبيلتين، إلى أن هزم (العتوب).

وبعد نحو خمسة عشر عامًا على هذه الحادثة، ومع تزايد ضعف الدولة الصفويّة، وتقلص نفوذها في الخليج، هاجم اليعاربة العمانيون، في عهد إمامهم سلطان بن سيف، البحرينَ في سنتين متواليتين، ونجحوا في الثالثة في الاستيلاء على البحرين، وذلك في العام (١١٢٨هـ / ١٧١٦م).

وبعد سنتين استرجعت البحرين من يد إمام اليعاربة العمانيين بعد مصالحة وتسوية مالية كبيرة، وآلت إلى عرب (الهولة)، فقد انتهز الشيخ جبارة الهولي رئيس قبيلة الهولة فرصة فراغ السلطة ففرض سيطرته على البحرين، واستقل بحكمها عن بلاد فارس.

استمر حكم الهولة حتى عام (١١٤٨ ه / ١٧٣٦م)، ففي هذا العام أمر نادر شاه (ت ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م) - الذي اتخذ من إعادة الحكم إلى الأسرة الصفويّة حجة لتحقيق طموحه - أمر حاكم شيراز محمد تقي خان باستخلاص البحرين من يد جبارة الهولي، فأرسل فوجاً عسكرياً عن طريق البحر انتهى باستيلائه على البحرين؛ لتعود مرةً أخرى تحت النفوذ الفارسي.

لم يدم الاستقرار طويلاً بعد سقوط حكم جبارة الهولي في البحرين، ففي سياق الصراع بين سلطان مسقط ونادر شاه على النفوذ في الخليج عاود

اليعاربة غزوها مرة أخرى، فاحتلها سيف بن سلطان عام (١١٥١ هـ / ١٧٣٩م).

وفي السنة التالية للاحتلال العماني الثاني للبحرين، أمر نادر شاه حاكم ولاية (فارس / شيراز) بالاستعداد لاحتلال مسقط، وتم احتلالها بالفعل بعد استسلام حاكمها السلطان سيف، ثم تم قتله بعد ذلك.

في أعقاب ذلك تم إخراج العمانيين من البحرين، وأوكل الحكم فيها باسم نادر شاه إلى الشيخ غيث وأخيه الشيخ ناصر من آل مذكور، ومن بعدهما آل الحكم إلى أخيهما الشيخ نصر الذي استقل به، وإن بقي اسميًّا للفرس طوال مدة دولة الزنديين، وأوائل دولة القاجاريين في إيران، حتى قدوم العتوب، وتولي آل خليفة حكم البحرين عام (١١٩٨ه / ١٧٨٣م).

عدم الاستقرار السياسي هذا أوجد بعض اللبس لدى بعض الباحثين في تحديد المدة الزمنية الفعلية التي استمر فيها نفوذ الدولة الصفويّة على البحرين، فمنهم من قدّره بمائة وثمانين عاماً، ومنهم من أكد أن الحكم أو السيّادة الفارسية على البحرين لم تتعد أكثر من تسعين عاماً[1].

وبطبيعة الحال، كان لعدم الاستقرار السياسي نتائج كارثية على الأصعدة الإنسانيّة والاجتماعيّة والثقافيّة؛ أبرزها: غياب السلم الأهلي والاجتماعي، النزوح الجماعي إلى دول الجوار، ضياع الكثير من التراث العلمي لعلماء البحرين، تضعضع وانحسار الحركة العلميّة فيها، وسقوط

(١) جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي ١: ٣٦٢.

ضحايا من رموز المؤسسة الدينيّة كالشيخ محمد بن يوسف البلادي (ت ١١٣٠هـ)، والشيخ حسين العصفور (ت ١٢١٦هـ / ١٨٠٢م)، والشيخ محمد الضبيري (ت ١١٣٠هـ)، والجريح الشيخ ياسين البلادي الذي كاد أن يفقد حياته بسبب سوء الاضطرابات السياسيّة.

ظواهر في الحياة الثقافية في البحرين

يتضح من المعطيات التي توفرها كتب الإجازات والتراجم، التي أرّخَت لسير علماء البحرين في هذه الحقبة، بروز دور واضح لرجال الدين في الحياة العامة، وبخاصة تولي الأمور الحسبية والقضاء، إلى جانب تولي الوظائف الدينيّة العامة الأخرى المقررة للعلماء، في سائر نواحي الدولة الصفويّة، كإمامة صلوات الجماعة وإقامة صلاة الجمعة، التي أصبحت من الشعائر الرسمية في عموم أرجاء المملكة الصفويّة.

كما حفلت مساجد البحرين وحوزاتها المنتشرة في جميع قراها وبلداتها بنشاط واسع في تدريس العلوم الدينية، أثمر وصول كثير من علمائها إلى مراتب علمية عالية أهَّلتهم لتبوء مناصب مشيخة الإسلام، والحسبة[1]، والقضاء وغيرها من الوظائف الدينية، ليس في البحرين

(١) الأمور الحسبية هي الأمور الكفائية التي لا بدَّ أن تقام وتحتاج إلى إذن الحاكم الشرعي إلَّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والظاهر أنها من أبرز وظائف السلطة التنفيذية في الدولة، وقد عرف الإصطلاح عليها بالأمور الحسبية؛ لأن القائم بأمرها يتولى أمرها حسبة إلى الله، كما اصطلح على المؤسسة المفوضة لها بإدارة ←

فحسب، وإنما في بعض المراكز والمدن الكبرى في إيران الصفويّة وبلاد الهند أيضاً.

فممن تولوا هذه المناصب في البحرين:

الشيخ محمد بن الحسن بن رجب البحرانيّ المقابيّ (كان حيّاً في العقد الخامس من القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي)، والسيد عبد الرؤوف الموسوي الجدحفصي (ت ١٠٦٠ هـ / ١٦٥٠م)، والشيخ زين الدين علي بن سليمان بن درويش القدميّ (ت ١٠٦٣ هـ ١٦٥٣م)، الشخصيّة التي لعبت دورًا بارزًا في نشر علم الحديث في البحرين حتى اشتهر في إيران بـ(أمّ الحديث)، والشيخ محمد بن سليمان المقابيّ البحرانيّ، والشيخ محمد بن ماجد البحرانيّ (ت ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م)، والسيد هاشم بن سليمان البحراني (ت ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥م)، والشيخ محمد بن عبد الله بن ماجد البحراني (كان حيّاً في سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٦م).

وممن تولوها في إيران والهند: السيد محمد بن عبد الحسين بن إبراهيم بن أبي شبانة البحرانيّ (المعاصر للشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزيّ المتوفي ١١٢١هـ / ١٧١٠م)، والشيخ جعفر بن كمال الدين البحرانيّ، والشيخ صالح بن عبدالكريم الكرزكانيّ (ت ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٦)

←

الحسبة والأشخاص المتصدين لها بالمحتسبين. (أنظر: ياسين عيسى العاملي: الاصطلاحات الفقية في الرسائل العملية ٦٨. عن مكتبة أهل البيت (ع) – الإصدار الثاني).

وغير هؤلاء.

وقد انعكس ذلك بشكل كبير، كما سنوضح بالتفصيل، على واقع الحركة العلمية في البحرين القديمة، بمناطقها الثلاث (أُوال)، (الخط = القطيف) و(هجر = الأحساء)، والتي كانت معرقة في الأدب والعلم، وقديماً قال ابن سلام (ت ٢٧٦هـ) "في البحرين شعر كثير جيد وفصاحة"[١].

وقد برز في البحرين عبر العصور سلسلة طويلة من الشعراء والأدباء والعلماء، كما اضطلعت بدور مهم على صعيد الحياة الفكرية، وأصبحت مركزاً من مراكز العلم، ويذكر أنها منذ القرن (العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) غدت هي والديار الهجرية محط رجال علماء الإماميّة[٢].

وقد علق الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ /١٦٩٢م) من علماء (القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي) إثر زيارته للبحرين بأنه "غرق في بحرين: بحر العلم وبحر الأدب"[٣].

ويقول الشيخ محمد علي التاجر (ت ١٩٦٧): (كانت البحرين في القرون الوسطى (القرون الأربعة الأخيرة) ذات معارف عالية، وسوق العلم فيها رائجة، وفطاحل العلماء يوجدون فيها بكثرة متناهية، فلا تكاد تخلو بلدة أو قرية من وجود عدة منهم فيها، ولكل واحد منهم مدرسة ملاصقة

---

(١) طبقات الشعراء ٦٩.

(٢) محمد باقر الخوانساري: روضات الجنات ٧ : ١٧٠.

(٣) الحر العاملي، أمل الآمل ٢: ١٤٦.

للمسجد الذي يصلي فيه، يلقي فيها الدروس والأبحاث على تلاميذه، وقد تخرج من هذه المدارس الجم الغفير من العلماء الفضلاء الذين سارت بذكرهم الركبان، وتحدث بفضلهم القاصي والداني، وكان يقصدها الطلاب من أقاصي البلدان، وكانت تُدعى بدار العلم كما دعيت به شيراز بعد ذلك"[١].

وقال السيد محسن الأمين (ت ١٩٥١) في كتابه (أعيان الشيعة): "خرج من البحرين جماعة كثيرون من علماء الشيعة وأفاضلهم قديماً وحديثاً"[٢]، و قد أرخ (الأمين) لحياة العشرات منهم.

تكشف المقولات السابقة عن دور البحرين في العطاء الفكري، وتظهر انتعاش العلم فيها منذ القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)، القرن الذي تأسست فيه الدولة الصفويّة في إيران، رغم اضطراب أوضاعها السياسة.

واتسعت العلاقات العلمية بين البحرين وجاراتها، فأخذت أفواج من طلاب العلم والعلماء تنتقل بين المراكز العلمية المختلفة في العراق، وإيران، وغيرها تنهل من مدارسها الفكرية وتشارك في نشاطها العلميّ.

فقد وَفَدَ على البحرين عددٌ من العلماء البارزين نشَّطوا حياتها الفكرية كالحر العامليّ (ت ١١٠٤هـ /١٦٩٢م)، وعبد الله أفندي الأصفهانيّ (ت

---

(١) عقد اللآل في تاريخ أُوال، محمد علي التاجر ٢٥ – ٢٦.

(٢) الأعيان، السيد محسن الامين ٣: ١٧٢.

١١٣٠ هـ / ١٧١٨م)، والشاعر أبو البحر الخطيّ (ت ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)، وممن استقر فيها وقضى نحبه بين ظهرانيها الشيخ مفلح الصيمري (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، والشيخ حسين بن عبد الصمد العامليّ (ت ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م) الذي كان شيخاً للإسلام في إيران، الذي قدم على الارجح للبحرين عقب وفاة والده، خصوصاً وأن إيران اضطربت اضطراباً خطيراً في عهد الشاه اسماعيل الثاني بن طهماسب، ذلك الاضطراب الذي حمل الشيح حسين على الفرار من إيران واللجوء إلى البحرين، أقرب مأمن له في ذلك الوقت.

المراكز والمدارس العلمية

لقد أدت المساجد وظيفة المؤسسات التعليمية كما كان عليه الحال في العهود الإسلامية الأولى، فكانت تغص بالعلماء والمتعلمين. ومن المساجد التي نالت شهرة في هذا الصدد:

١ - مسجد (السدرة)، ويقع في قرية (جدحفص)، مركز البلاد آنذاك، ويوصف بأنه مدرسة العلم، ومجمع أولى الفضل والحلم، وكان يحضر ما يلقى فيه من دروس كبراء البلاد وأعيانها، ومن هؤلاء السيد حسين بن عبد الرؤوف، قاضي القضاة، والسيد ناصر القاروني[١].

٢- أما الشيخ محمد بن ماجد الماحوزيّ (ت ١١٠٥هـ/١٦٩٣م تقريباً)

---

(١) علي بن حسن البلادي: أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين ١٠٧.

شيخ الإسلام في البحرين فاتخذ من المسجد المجاور لمسجد الخميس – الذي يعد أقدم مساجد البحرين، وأشهرها –مكانًا لدرسه، وكان يجتمع فيه جمع كبير من المتعلمين وأعيان البلاد، وممن كان يداوم على حضور جلسات درسه محمد بن ماجد الحاكم من قبل إيران الصفويّة، وكان يتولى الإنفاق على الحلقة[١].

٣ – و مدرسة (الشيخ داود) التي كانت في الأصل مسجدًا، وتقع في قرية (جدحفص) أيضًا، وهي تنسب للشيخ داود بن أبي شافيز – أو شافين أو شافير – (ت ١٠١٢ ه / ١٦٠٣م)، وكانت ضيوف البلاد من الشخصيات العلمية تحضر حلقات هذا الدرس.

٤– مدرسة (أبو أُصيبع) والتي ذكرها الشيخ السماهيجيّ في مقام تَعَداد الدروس التي تلقاها الشيخ ناصر الجاروديّ[٢].

٥– مدرسة (البلاد القديم) في القرن التاسع والعاشر الهجري / الخامس والسادس عشر الميلادي، ومن روادها الشيخ ياسين البلادي وغيره من العلماء.

٦– مدرسة (بوريّ)؛ وقد ذكرها الشيخ عبد الله السماهيجيّ في إجازته الكبيرة للشيخ ناصر الجارويّ بقوله: (وقد سمع مني وقت مهاجرته البحرين – حميت في ظل واليها عن الحين – خصوصاً في مدرستي بوريّ

---

(١) الأنوار/١٣٤.

(٢) محمد عيسى ال مكباس: مدرسة أبي صيبع العلمية ٥ (بحث غير منشور).

والقَدَم صانهما الله تعالى عن العَدَم).

٧ – مدرسة (الحَجَر)؛ قال السماهيجي في ذكر أستاذه الشيخ سليمان الماحوزيّ: (البحرانيّ الستراويّ أصلا من قرية الخارجيّة، الماحوزيّ مولداً ومنشأ، الحجريّ تحصيلاً)[١].

٨- مدرسة (سترة)؛ وكان من روادها الشيخ أحمد بن سعيد بن سعادة البحرانيّ، وتلميذه الشيخ علي بن سليمان الستريّ، وكانت في القرن (السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي).

٩- مدرسة (القَدَم)؛ وقام بتأسيسها الشيخ علي بن سليمان القدميّ، والذي كان له الدور في إثراء وتدعيم حركة علم الحديث في البحرين، فلذا لقب بأم الحديث، كما مرّ، وقد ذكر هذه الحوزة الشيخ عبد الله السماهيجيّ في إجازته الكبيرة للشيخ ناصر الجاروديّ[٢].

١٠- مدرسة (الماحوز)؛ وكان الشيخ سليمان المحاوزيّ (ت ١١٢١هـ / ١٧٠٩م) من أعمدة هذه المدرسة، ومن أبرز تلامذتها أيضًا الشيخ أحمد بن إبراهيم العصفور، والشيخ عبد الله السماهيجيّ، والكثير من العلماء في القرن (العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي).

١١- مدرسة (مقابا)؛ من مدارس القرن (التاسع والعاشر الهجري / الخامس والسادس عشر الميلادي)، ومن روادها الشيخ محمد بن سليمان

(١) محمد عيسى ال مكباس: إجازات علماء البحرين/ ١٢٧.

(٢) إجازات علماء البحرين/ ١١٨.

المقابيّ، والشيخ محمد بن علي المقابيّ.

١٢- مدرسة (المقشع)؛ ذكرها الشيخ السماهيجيّ في ترجمة الشيخ علي بن عبدالله بن عبد الصمد المقشاعيّ[١] وحضر درسه جم غفير من الطلبة والفضلاء، وكانت في القرن العاشر والحادي عشر الهجري / السادس والسابع عشر الميلادي.

١٣- مدرسة (النعيم)، أورد ذكرها الشيخ عبد الله السماهيجيّ في آخر رسالته المسماة (التحرير لمسائل الديباج والحرير)، التي وصف نفسه في خاتمتها بـ "السماهيجيّ أصلاً ومولدًا ومنشأ، الماحوزيّ والنعيميّ تحصيلاً ...)[٢].

وكثيراً ما تتوسع دائرة هذه الدروس لتتحول إلى مناقشات علمية يشتد فيها الجدل، ويحتدم الحوار حول القضايا الفقهية أو غيرها من قضايا العلم. وكان لبعض العلماء باع طويل في الجدل وإدارة الحوار. ويذكر أن الشيخ داود بن أبي شافيز كان جدليًا حاذقًا في علم المناظرة، وله مع السيد حسين بن حسن الغريفي مجالس ومناظرات وكثيرًا ما تختم تلك الجلسات فيكون الغريفي أشد إحاطة بالعلوم، وأدق نظرًا، والشيخ داود أشدّ بديهة وأدق في صناعة الجدل، فتكون الغلبة في الظاهر للشيخ داود، لكن الحق مع الغريفي، فكان الشيخ داود يأتيه ليلاً ويعترف بأنه على الصواب ويعتذر

---

(١) م. ن ١٢٥.

(٢) مدرسة ابي صبيع العلمية/ ١٢.

إليه[(١)].

وحدث أن الشيخ حسين بن عبد الصمد العامليّ بعد قدومه إلى البحرين حضر إحدى جلسات النقاش تلك، ولم ترُق له؛ لأنها ربما تعدت الحدود، وتحولت إلى جدل عقيم فعلق عليها بقوله:

أناسٌ في (أُوال) قد تصدوا لمحو العلم واشتغلوا بلم لم
إذا جادلتهم لم تلق فيهم سوى حرفين: لم، لم، لا نسلم[(٢)]

حركة التأليف العلمي في البحرين

تميّزت البحرين بنهضة علمية ودينية على مر العصور، وكان واضحًا أن البحرين؛ بعلمائها، ساهمت في تسجيل حضورها العلمي المدهش في كل الأدوار التي مرت على المؤسسة الدينية منذ أيام مدرسة بغداد في القرن (الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) وحتى عصور متأخرة نسبيّاً.

ولقد كان علماء البحرين يسهمون بشكل مباشر في تدعيم النشاط العلمي في العالم الإسلامي، وكان هذا التوجه الطموح يحظى بدعم وتشجيع من البلاط الصفوي، منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي؛ فالشيخ سليمان الماحوزي (ت ١١٢١هـ / ١٧٠٩م) يؤلف كتاب (الأربعون حديثاً)؛ ويُهديه للشاه حسين الصفوي، وقد صنّفه باسمه على

(١) انوار البدرين/ ٨٠.

(٢) انوار البدرين/ ٨٠.

عادة القدماء؛ فيكرمه الشاه الصفوي بـ (ألفي درهم)[(١)].

حكمت الأسرة الصفويّة إيران قرنين وقرابة الثلاثة عقود (١٥٠٢ – ١٧٣٦م/ ٩٠٧ – ١١٤٨هـ)، بعد أن كانت مجرد (طريقة صوفيّة) تنسب إلى الشيخ صفي الدين (ت ٧٣٥هـ / ١١٣٥م) في أردبيل. وبعد أن سقط حكمهم في العام (١١٤٩هـ / ١٧٣٦م)، اعتزل من نجا منهم من سيف السياسية، وغادروا إيران إلى الهند ليعودوا صوفيّين كما بدأوا.

شكّلت المراسلات العلمية التي جرت بين علماء البحرين وبين علماء العالم العربيّ والإسلامي، إحدى الظواهر العلمية التي ميّزت مجتمع البحرين في العصور المختلفة، إلى جانب ظواهر أخرى أهمها الهجرة العلميّة؛ فقد درس بعض علماء البحرين القدامى في العراق رغم ازدهار الحركة العلميّة في البحرين قديمًا، وكان الشيخ ناصر الدين راشد بن إبراهيم البحرانيّ من العلماء المتقدمين قد أقام في العراق مدةً، وقرأ فيها على كبار العلماء.

وكان بعض علماء البحرين أساتذةً لعلماء مشاهير من بلدان أخرى كالعلامة الشيخ ناصر بن أحمد المتوّج، الذي كان من تلامذة العالمين الفاضلين الشيخ أحمد بن فهد الحلي، والشيخ أحمد بن فهد الأحسائي.

كما أن العلامة المعروف بالفيض الكاشاني من مريدي العلامة السيد ماجد الجدحفصيّ البحرانيّ (ت ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) المتوفى في شيراز. وقد

(١) يوسف العصفور: لؤلؤة البحرين ١٠.

درس الفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسيّ (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م) الفقه على يد العلامة الشيخ ابن ميثم البحرانيّ (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م)، كما كان الطوسيّ أستاذًا له في الحكمة.

لقد دأب علماء البحرين على إرسال الرسائل إلى نظرائهم العلماء في شبه الجزيرة العربية، والعراق وإيران، كما كان علماء البحرين بدورهم يتلقون مثل هذه الرسائل العلمية التي كانت تتضمن أسئلة عقائدية وفقهية، وكان هذا اللون من المراسلات سائدًا في ظل الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة ؛ وضعف نظم الاتصال، فالفقيه العلامة الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزيّ (ت ١١٢١هـ / ١٧٠٩م) يُجيب على رسالةٍ بعث بها الميرزا عبد الله أفندي الأصفهانيّ (ت ١٧١٨ م/ ١١٣٠ هـ)، صاحب (رياض العلماء) يسأله فيها عن علماء البحرين، فيجيبه الشيخ الماحوزي برسالة مختصرة ستكون أول مصنّف رجالي عن علماء البحرين، وهي التي ستعرف بـ (فهرست علماء البحرين).

ويذكر المؤرّخ البلاديّ أنه وردت إلى البحرين مسائل من علماء أصفهان ليجيب عنها علماؤها، ووصلت إلى حاكم البحرين من قبل الدولة الصفويّة، فأرسل الحاكم مندوبيه إلى العلماء ليجيبوا عن هذه المسائل، وكان من ضمن هؤلاء العلماء الشيخ حسن الدمستانيّ (ت ١١١٨ هـ / ١٧٠٦م)[(١)] في قصة معروفة ذكرتها كتب التراجم.

---

(١) أنظر : أنوار البدرين ١٩٠- ١٩١.

وكان للنقد العلميّ نصيبٌ من نشاط علماء البحرين، ويُعد كتاب الشيخ يوسف آل عصفور (ت ١١٨٦هـ /١٧٧٢م) (لؤلؤة البحرين) أنموذجًا ممثلاً لظاهرة المثاقفة والسجال العلمي الخصب الذي كان يعيشه علماء البحرين. فهو كتابٌ يطفح بالكثير من الملاحظات التاريخية القيّمة بما يكشف عن أفق واسع وموسوعية علمية لمصنّفه، وفي الكتاب إشارات تاريخية هامة حول الدولة الصفويّة في سياق ترجمته لحياة بعض العلماء، كالشيخ علي الكركي (ت ١٥٣٤م/ ٩٤٠ هـ) المعروف بـ(المحقّق الثاني).

ولقد كان للشيخ لطف الله بن محمد آل لطف الله الجدحفصيّ تصحيحٌ لبعض أجزاء من (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد، فرغ منها العام (١١٦٤هـ /١٧٥١م).

وقد تلقى بعض العلماء البحرانيين في الماضي إجازاتهم العلمية من علماء كبار في العالم الإسلامي، من أمثال المحدث محمد باقر المجلسيّ، والشيخ بهاء الدين العامليّ. وفي كتاب (بحار الأنوار) للمجلسيّ العديد من إجازات المؤلف لعلماء البحرين منهم الشيخ أحمد بن محمد بن يوسف السماهيجي وغيره، سنشير لهم في مكان آخر.

وفي المقابل، أجاز علماء البحرين غيرهم من علماء المناطق المختلفة، كإجازة الشيخ السماهيجيّ للجاروديّ المعروفة، ويسرد الشيخ آغا بزرك الطهرانيّ (ت ١٩٧٠م) في كتابه (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) الكثير من نماذج الإجازات المتبادلة بين علماء البحرين وعلماء المناطق الأخرى عبر العصور.

أما المؤلّفات، فقد اعتنى علماء البحرين بالمؤلفات العلميّة في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا التفاعل العلمي يأخذ أشكالاً عدّة، منها: الشرح، والاختصار، والنشر، والحفظ، وإعادة النسْخ، بما ساعد على انتقال الكثير من الكتب التي كتبها علماء البحرين إلى الخارج في شبه الجزيرة العربية، والعراق، وإيران، والهند، واكتسبت رواجاً ملحوظاً.

وقد ألف السيد هاشم البحرانيّ كتاب (حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار) للوزير العارف (إيماني بيك) توجد منه نسخ متعددة في إيران بمشهد، وقم، وهمدان.

ولقد كانت حركة الترجمة من الظواهر العلمية البارزة في المشهد الثقافي السائد وقتها، فقد ترجم السيد ماجد بن محمد آل شبانة للشاه سليمان الصفويّ (ت ١٦٩٤م/ ١١٠٦هـ) عهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمالك الأشتر، إلى اللغة الفارسية، وكذلك أمر السلطان القاجاريّ ناصر الدين شاه بعض خاصته بترجمته كتاب (غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام) للسيد هاشم البحرانيّ إلى الفارسيّة، وهو الشيخ محمد تقي بن علي الدزفوليّ، وحملت الترجمة عنوان (كفاية الخصام)، ولخّص (غاية المرام) الآقا نجفي الأصفهانيّ (ت ١٣٣١هـ)، وللكتاب حواش كتبها الميرزا نجم الدين جعفر الطهرانيّ (ت١٣١٣هـ)[1].

وقد أشارت دراسة حديثة إلى وفرة هذا العطاء العلميّ البحرانيّ

(١) آقا بزرك الطهرانيّ: الذريعة الى تصانيف الشيعة ١٦ : ٢٣.

فقالت: (خلَّفَ رجال العلم والأدب نتاجاً كبيرًا وكثيراً متنوعاً يُعدُّ بعضه من المصادر المهمة قي الثقافة والمعارف والعلوم العربية والإسلامية). وتشير إلى غزارة ما خلفوه فتقول: (عددت الفهارس نحو أربعمائة كتاب كبير في مئات المجلدات لستة عشر من مشاهير علماء البحرين في القرون الأربعة الأخيرة بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر الهجري)[١].

وقد غلب الطابع الدينيّ التقليديّ على هذه الحياة الفكرية، وكانت حلقات العلم تتزين بالشعر، سواء أكان من إنشاء أولئك الفقهاء، أو من محفوظهم الواسع من كنوز الشعر العربيّ القديم.

لقد أسهم علماء ذلك العصر في الكتابة في المجالات الدينية الصرفة، وكانت المتون العلمية التي خلفوها تجنح إلى مقاربة المواضيع العقائدية، في (أصول الدين) على وجه الخصوص، التي حظيت بالنصيب الأوفى، ومن المؤلفات في هذا المجال[٢]:

(شرح أسماء الله الحسنى) للشيخ صالح بن عبد الكريم الكرزكانيّ

---

(١) قدّم الدكتور حسين محفوظ (ت ٢٠٠٩م) في بحثه (مصادر دراسة تراث البحرين) دراسة قيمة تتبع فيها تلك المؤلفات ونشر البحث ضمن أبحاث الندوة العلمية العالمية الثانية لمركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة ونشر في ج ١ من ص ١٧٦ – ٢٦٩.

(٢) أنظر الدراسة القيّمة للدكتور سالم النويدري: السيد هاشم البحراني، مجلة الساحل، العدد التاسع – السنة الثالثة، شتاء ٢٠٠٩.

(١٠٩٨هـ/١٦٨٦م).

(رسالة في البداء) للشيخ أحمد بن محمد المقابيّ. (١١٠٢هـ/١٦٩٠م).

(رسالة في عالم البرزخ) للشيخ علي بن سليمان القدميّ (١٠٦٤هـ/١٦٥٣م).

(هدايّة القاصدين في أصول الدين) للشيخ سليمان الماحوزيّ (١١٢١هـ/١٧٠٩م).

(رسالة في أصول الدين) للشيخ سليمان بن أبي ظبية (١١٠١هـ/١٦٨٩م).

(حاشية على تجريد الاعتقاد) للشيخ محمد بن سعيد المقابيّ (١١٢٥هـ/١٧١٣م).

أما (علم الفقه) فلا يكاد يضاهي البحث فيه لدى العلماء في البحرين أي علم آخر، فقلما نجد عالمًا منهم تخلو مؤلفاته من أثر فقهي، وقد يقصر بعضهم اهتمامه في التأليف عليه. ومن الآثار الفقهية في هذه الفترة:

(الروضة الصفويّة) للشيخ محمد بن ماجد بن مسعود الماحوزيّ، أستاذ السيد هاشم البحرانيّ وشيخه في الإجازة (١١٠٥هـ/١٦٩٣م).

(الخمائل) في الفقه الاستدلالي للشيخ أحمد المقابيّ.

(المقاصد العليّة) للشيخ عبد الله بن حسن المقابيّ (١٠٨٧هـ/١٦٧٦م).

وفي (علم أصول الفقه) تبرز من مؤلفات هذه الفترة:

(رسالة في أصول الفقه) للشيخ أحمد المقابيّ.

(العشرة الكاملة) للشيخ سليمان الماحوزيّ.

(الرسالة النُّوحيّة) للشيخ عبد الله السماهيجيّ (١١٣٥هـ/١٧٢٢م).

وكان (علم الرجال) مما عني به علماء البحرين أيضًا في تلك الفترة، ومن مصنفاتهم في هذا العلم:

(معراج أهل الكمال) للشيخ سليمان الماحوزيّ.

(منظومة تحفة الرجال) للشيخ السماهيجيّ.

(ترتيب فهرست الشيخ الطوسيّ) للشيخ علي بن عبد الصمد المقشاعيّ (١١٢٧هـ/١٧١٥م).

و من علماء هذا العصر من كتب في علوم إسلامية أخرى، منها (علم التجويد)، مثل:

(الكامل في الصناعة) وهي منظومة في علم تجويد القرآن المجيد للشيخ جعفر بن كمال الدين الرويسيّ (١٠٩١هـ/١٦٨٠م).

كذلك اهتم علماء البحرين بـ(العلوم العقلية والطبيعية) وإن كان بدرجة أقل من مساهماتهم في العلوم الدينية البحتة؛ فهي محور اهتمامهم في البحث والتأليف آنذاك، أما الخوض في العقليات والطبيعيات فهو مما يهدف إلى تعزيز المقولات الدينية من وجهة نظرهم، ليس غير.

ومن آثارهم في (الفلسفة وعلم الكلام):

(رسالة في وجود الكلّيّ الطبيعيّ) للشيخ سليمان الماحوزيّ.

(رسالة في إثبات اللذّة العقلية عقلا ومنعها شرعًا) للشيخ السماهيجيّ.

(كتاب في الحكمة) للشيخ عليّ بن إبراهيم العصفور (١١٢٠هـ/١٧٠٨م).

(كتاب في الحكمة) للشيخ عليّ بن عبد السلام (بعد ١١٠٩هـ/١٦٩٧م).

(رسالة في الحسن والقبح) للشيخ أحمد المقابيّ.

(الشافي في الحكمة النظريّة) للشيخ سليمان الماحوزيّ.

و(علم المنطق) من العلوم الآلية التي لا يُستغني عنها الباحث في الفلسفة وعلم الكلام، بل الدارس في علم أصول الفقه، وغيره من العلوم الدينية ذات السمة العقلية. ومن مدونات علماء البحرين المنطقية يومئذ:

(المشكاة المُضيّة) للشيخ أحمد المقابيّ؛ وله في المنطق أيضاً: (الرموز الخفية).

(رسالة في مسائل المنطق) للشيخ محمد بن ماجد الماحوزيّ.

(كتاب في المنطق) للشيخ محمد بن سعيد المقابيّ.

ولعلوم (الفلك والجغرافيا والطب) نصيب محدود في مؤلفات العلماء البحرانيين آنئذٍ، ومن آثارهم في هذا المجال:

(رسالة في علم النجوم) للشيخ عبد الله بن حسن المقابيّ.

(قبلة الأقاليم) للشيخ سليمان بن صالح العصفور (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م).

(الطب الأحمديّ) للشيخ أحمد بن صالح العصفور (١١٢٤هـ/١٧١٢م).

وللشيخ السماهيجيّ (رسالة في علم الأنساب)، وأخرى في (علم النحو). وفي (السياسة الشرعية) وقد ترجم السيد ماجد بن محمد آل أبي شبانة للشاه سليمان الصفوي (ت١١٠٦هـ/١٦٩٤م) إلى اللغة الفارسية عهد

الإمام علي عليه السلام إلى مالك الأشتر.

وكانت للشعر يومئذ سوقُ رائجة، فأغلب علماء البحرين في ذلك العصر قد تعاطى نظم الشعر، وفي مقدمتهم:

عبد الرؤوف الجدحفصيّ المدفون في جدحفص (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م): ومن شعره قوله في وصفه لشعره (*):

فما الدرُّ منظوماً سوى عقد نظمها وما الروض إلا ما حوت من بدائعِ

السيد أحمد بن عبد الرؤوف الجدحفصي (ابن السابق): كان حيًّا سنة (١١١٨هـ/١٧٠٦م). ومن شعره قوله في الوعظ:

فلا تأمَنَنَّ الدهرَ في حال سلمه فكم علقت بالآمنين المخالبُ

والشيخ عيسى بن صالح العصفور (١٠٨٨هـ/١٦٧٧م): ومن أبياته

(*) قبله جده السيد عبد الرؤوف أبو جفعر، قاضي القضاة له قصيدة تعد من روائع قصائد الفخر، وهي التي درج خطباء المنبر الحسيني على اختتام مجالسهم بأبيات ومنها:

منازلنا هل بعدنا من ينوبنا وهل عض بالأضياف منك مقام؟

ألا لا تنير الدار إلا بأهلها على الدار بعض الظاعنين سلام

وهي في الفخر وشكوى الزمان، ولكن الخطباء وجدوا فيها ما يفيدهم. مطلعها:

متى هب قمريٌّ وناح حمام تأوه مشتاق، وزاد غرام

(انظر ترجمته في ملحق ديوان أبي البحر الخطي، تحقيق عدنان محمد العوامي ٢: ٣٠٢).

الذائعة الصيت قوله متشوقًا إلى معالم وطنه أيام الغربة في بلاد الهند:

يا ضيعة العمر بل يا زلة القدمِ الهندَ(*) بعد صلاة الليل في (القَدَمِ)

والشيخ أحمد بن حاجي البلاديّ (١١٢٤هـ/١٧١٢م): ومن شعره في آل البيت عليهم السلام:

كفى حزناً أنّ الديار خوالي وآل علي آذنوا بزوالِ

وانطلاقاً من ذلك يمكن القول إن المنطقة كانت تعيش مرحلة من الانطلاق الفكري، انتعشت فيها الحياة العلميّة، وترعرت في إطارها حركة بعث أدبيّ جديدة منطلقة من التراث الفكري والأدبيّ في عصور ازدهاره، وقد أوجدت الحالة العلميّة النشيطة في البحرين، وقتذاك، ظواهر علميّة واجتماعية أخرى أبرزها ظاهر الهجرة العلميَّة.

الهجرة العلمية الى ايران الصفوية

تعرضت البحرين لعدد كبير من الغزوات الأجنبيّة التي أفقدتها استقرارها، وأجبرت سكانها على هجر ديارهم إلى بلاد أخرى، بعدما دمرت قراهم ومدنهم، وقد لاحظ الرحالة الدنماركيّ (نيبور) الذي زار الخليج عام ١٧٦٥م آثار تلك الغزوات على البحرين بقوله: (إن الحروب خفضت عدد قرى البحرين من ٣٦٠ مدينة وقرية إلى ستين "قرية بائسة)[(١)].

(*) حفها النصب بحذف الخافض، وهو حرف الجر، والمعنى: أفي الهند؟ أو أإلى الهند؟

(١) نقلا عن: جيمس بلجريف: البحرين ترحب بكم، منشورات وكالة الخليج للإعلان ←

كما تطالعنا كتب تراجم الرجال بأسماء عدد من العلماء الذين تركوا البحرين عندما كانت بلادهم تتعرض لعملية غزو خارجي، هذا في الوقت الذي كانت بلاد فارس في الجوار تعيش أزهى عصور الاستقرار في ظل الحكم الصفوي، الذي بسط سيطرته كاملة على ماكان يعرف قديماً بالاراضي الايرانية فوحدها تحت راية دولة موحدة بدءً من خراسان التي سيطر عليها الاوزبك عشية ظهور الصفويين بعد ان كانت في قبضة التيموريين ، مروراً بوسط ايران حتى خوزستان التي كان يحكمها المشعشيون[1].

من هنا كانت إيران في العهد الصفوي مقصداً لرجال المؤسسة الدينية في البحرين خلال قرنين من الزمن، قبل أن تتعرّض هي الأخرى للغزو الأفغانيّ سنة ١٧٢٢م/ ١١٣٥هـ وبانهيار الحكم الصفوي في البحرين، في أعقاب الهجوم الأفغانيّ على إيران في العقد الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، تحولت أنظار البحرانيّين إلى العراق كمقصد جديد للهجرة، وازدادت في هذه الفترة وتيرة هجرة علماء البحرين إلى كربلاءً والنجف، وتبنى القسم الأعظم منهم الاتجاه الأخباريّ الذي كان سائدًا وقتها في الحواضر العلميّة.

←

والخدمات بالبحرين (د.ت) ١٤١ ، ينظر أيضا : أحمد محمود صبحي: البحرين ودعوى إيران (الإسكندرية ، ١٩٦٢) ٦٩ .

(١) أطلس الشيعة، مصدر سابق، ٢٧٠.

لقد اتخذت الهجرة البحرانية إلى إيران في العصر الصفوي جملة من البواعث والدوافع:

يقع في صدارتها، الهدف العلمي واستكمال التحصيل العلمي لدى العلماء، وهي الدافع الأقوى والأهم، والأكثر تجذراً في التاريخ، وتحصل هذه الهجرة بعيداً عن أي دوافع سياسية واجتماعية أخرى.

السياحة الدينية، وزيارة العتبات المقدسة، والتزاور الاجتماعيّ، وتكثيف الصلات بين المعاهد والمراكز والشخصيات الدينية بين البلدين.

البحث عن الأمان الشخصيّ والاجتماعيّ.

ومثل هذه الهجرات تكون متصلة اتصالاً وثيقًا بطبيعة الظرف الاجتماعيّ والسياسيّ الذي تمر به البلاد.

طلب الرزق؛ فكثير من علماء البحرين كانوا يتجهون لإيران بقصد إكمال تحصيلهم الديني، وممارسة الزراعة للتعيش بها، كما فعل الشيخ يوسف العصفور، وغالباً ما تختلط هذه الدوافع مع بعضها.

سنشير هنا أيضاً إلى شخصية محورية لعبت دوراً علميّاً كبيراً في الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة للدولة الصفويّة، وهي شخصية المحدث العلامة محمد باقر المجلسيّ (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م) صاحب الكتاب الذائع الصيت (بحار الأنوار) الذي يوصف بـ "دائرة معارف المذهب" ومن خلال معرفة عدد تلامذة هذا العالم من البحرانيّين، من الذين ذكرتهم كتب التراجم والسير سندرك حجم ظاهرة الهجرة (العلمية - السياسيّة) التي كانت سائدة في ذلك العصر.

وضع الشيخ المجلسي (بحار الأنوار) الذي يقع في ٢٥ مجلداً (والطبعة الحديثة في ١١٠ مجلدات)، ويحتوي على ٢٣٢٧ باباً. وبلغت صفحاته نحو أربعين ألف صفحة، وكان نتيجة وثمرة ما يقارب من أربعين سنة، اعتباراً من (١٠٧٠ - ١١٠٦هـ) من السعي والتحقيق المتواصل في جميع المجالات العلمية، ويبلغ عدد الكتب التي كتبت حول هذا الكتاب أكثر من ١٣٠ كتاباً من نحو مستدرك، وتلخيص، ومعجم، وشرح، وحاشية، وتعليق، وترجمة[١].

ومن خصائص ومميزات هذا الكتاب الخالد: الاهتمام بالنص، فقد فصل الرواية العينية عن الدراية الذهنية (فصل المتن عن الشرح)، والنقل عن المصادر الأصلية والقديمة، وإعطاء ببلوغرافيا لأصول المصادر، والاختصار في أسانيد الروايات، والتعمق في الشرح وتفسير الأحاديث، والتبويب والتنظيم الموضوعيّ للروايات.

لقد كانت لشهرة العلامة المجلسيّ العلميّة في حوزة أصفهان العلمية، وانتشارها في سائر مدن إيران والمدن الشيعيّة العربيّة السبب الأكبر في قدوم الكثير من طلاب العلوم الدينيّة، وخاصة طلاب علم الحديث في أصفهان ليحضروا درس العلامة المجلسيّ، بحيث كان مجلس درسه من أكثر المجالس ازدحاماً بالطلاب. وحسب ما ينقل عن السيد نعمة الله الجزائري والميرزا عبد الله الأفندي أن عدد تلامذة العلامة المجلسيّ قد بلغ

(١) جميع من المؤلفين: التعريف بالعلامة المجلسي ٢: ١١٢.

الألف[1]. ومنهم من ينزل كثيراً بعدد تلامذته، ويشمل تلامذته المقربين الأفراد الذين حصلوا منه على إجازة في رواية الحديث.

وبملاحظة مقدمة المجلد الأول من (بحار الأنوار) يتضح جيداً مسلك العلامة المجلسيّ الأخباري في المسائل الفقهيّة، والأصوليّة والاعتقاديّة، ولا يَخفى أن العلامة كان أخباريّاً معتدلاً.

إن هدف العلامة المجلسيّ من اهتمامه بعلم الحديث، وتأليف كتب الحديث هو هداية وإرشاد المجتمع العلمي إلى علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام وإبعاد الناس عن الاهتمام بالعرفان والتصوف والحكمة والفلسفة.

توفي العلامة المجلسي بعد ٧٢ سنة من عمره الذي قضاه في تربية وإعداد المئات من التلاميذ، وتأليف العشرات من الكتب والرسائل وذلك في سنة (١١١١ هـ / ١٦٩٩م).

وقد كتب السيد أحمد الحسيني الاشكوري كتابه (تلامذة العلامة المجلسي والمجازون منه) بمناسبة مرور ثلاثة قرون على وفاة العلامة، وتضمن كتاب الأشكوري ترجمة لمائتين وأحد عشر تلميذا، منهم ثمانية من كبار علماء البحرين. وهم على النحو التالي:

---

(١) السيد نعمة الله الجزائري: الأنوار النعمانية ٢ : ٣٦٢.

الشيخ أحمد الساري البحرانيّ

أحمد بن علي بن الحسن الساري الأُوالي البحرانيّ. أجازه العلامة المجلسي بإجازة مبسوطة في شهر ذي القعدة من سنة ١٠٩٧ a / ١٦٨٦م. يروي عنه جماعة منهم الشيخ عبد الله السماهيجي.

الشيخ أحمد بن محمد البحرانيّ

(ت ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١م)

أحمد بن محمد بن يوسف بن صالح الخطيّ المقابيّ البحرانيّ، خطي الأصل، مقابي المنشأ، والتحصيل. قال عنه الشيخ سليمان الماحوزي: (كان أعجوبة زمانه ذكاءً وفضلاً؛ ونادرة عصره كمالاً ونبلاً ... وكان أعبد من رأيناه في عصرنا وأشرفهم في الأخلاق). وقال الشيخ يوسف البحرانيّ: (وعندي أنه أفضل علماء بلادنا البحرين ممن عاصره وتأخر عنه، بل وغيرهم).

وقد ذكر بعض تلامذته في رسالة له، أنه في سفره إلى أصبهان كان المولى الفاضل محمد باقر الخراسانيّ صاحب (الكفاية) و(الذخيرة) يخلو معه في الأسبوع يومين للمذاكرة معه والاستفادة منه). وقال العلامة المجلسي : (إنه كان من غرائب الزمان، وغلط الدهر الخوّان، بل من فضل الله عليّ ونعمه البالغة لديّ، اتفاق صحبة المولى الأولىّ الفاضل الكامل الورع البارع التقيّ الزكيّ، جامع فنون الفضائل والكمالات؛ حائز قصب السبق في مضامير السعادات، ذي الأخلاق الرضية، والأعراق الطيبة البهية،

علم التحقيق، وطود التدقيق، العالم النحرير، والفائق في التقرير والتحرير، كشاف دقائق المعاني ... فوجدته بحراً زاخراً في العلم لا يُساحل، وألفيته حَبْراً ماهراً في الفضل لا يُناضل). يروي عن جملة من المشايخ منهم والده الشيخ محمد بن يوسف المقابي، والعلامة المجلسي، وقد أجازه عند سفره إلى أصبهان، وأدرجت الإجازة مبتورة في مجلد إجازات (البحار). ويروي عنه جماعة منهم الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي البحرانيّ، والمولى أبو الحسن الشريف العاملي الفتوني. له كتب منها (رياض الدلائل وحياض المسائل) و(الرموز الخفية في الدقائق المنطقية) و(المشكاة المضيئة) في المنطق ؛ و(وجوب صلاة الجمعة عينا) ؛ ورسالة في (استقلال الأب بولاية البكر البالغة الرشيدة) ؛ و(البداء) ؛ و(الحسن والقبح العقليان). توفى سنة (١١٠٢هـ/ ١٦٩١م) بطاعون العراق مع أخويه في حياة أبيه ؛ ودفن في جوار الإمامين الكاظمين ﷺ.

الشيخ حسن البحرانيّ حسن بن النديّ البحرانيّ

حسن بن النديّ البحرانيّ عالم جليل تقي. قرأ على العلامة المجلسيّ كثيرًا من العلوم الشرعية؛ من التفسير والحديث، ومما قرأ عليه كتاب (الكافي) فأجازه في سنة ١٠٩٧ a / ١٦٨٦م. وقرأ (الكافي) أيضا على السيد هاشم البحرانيّ، فكتب له إجازة فيه في سنة ١٠٩٧ هـ/ ١٦٨٦م.

الشيخ سليمان الماحوزيّ (ت ١١٢١ هـ / ١٧٠٩م)

سليمان بن عبد الله بن علي بن الحسن بن أحمد بن يوسف بن عمار

الماحوزيّ الستريّ البحرانـيّ، مـن أعـاظم علمـاء عـصره المرمـوقين، كـان أعجوبة في الحفظ والدقة وسرعة الانتقـال فـي الجـواب والمنـاظرات. ولـد عـام (١٠٧٥ a / ١٦٦٥م) فـي قريـة (المـاحوز) مـن قـرى البحـرين. حفـظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، ودرس على علماء البحرين.

له إجازة الحديث من العلامـة المجلسيّ، والسيد هاشـم بـن سـليمان الكتكـاني البحرانـيّ، والـشيخ صـالح البحرانـيّ، والـشيخ جعفـر بـن علـي البحرانيّ. أجاز كثيراً من الأعلام.

له أكثر من ستين مؤلفا منها (بلغـة المحـدثين) i و(جـواهر البحـرين) i و(أزهـار الريـاض) i و(حاشـية تهـذيب الأحكـام) i و(شـرح البـاب الحـادي عشر) i و(العشرة الكاملة) i و(فهرست آل بابويه) i و(معراج أهل الكمال إلى معرفة الرجال) i و(النُّكت البديعة في فرق الشيعة) i و(هداية القاصـدين إلـى عقائد الدين). توفى في السابع عشر من شـهر رجـب سـنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م ودفن في قرية (الدونج) إلى جنب الشيخ ميـثم بـن المعلّـى جـد الـشيخ ابـن ميثم البحرانيّ.

الشيخ عبد الله البحرانيّ

عبد الله بن نـور الله البحرانـيّ. فاضـل i محـدث، متتبـع خبيـر نقـاد، لـه تنسيق جيد في ترتيب الأحاديث وتبويبها. من تلامذة العلامة المجلسيّ، قرأ عليه عشرون سنة، وله منه إجازة الحـديث. لـه (عـوالم العلـوم والمعـارف) i مقسم على مائة كتاب في مائة وتـسعة وعـشرين جـزءاً، مـأخوذ مـن كتـاب

أستاذه (بحار الأنوار) مع تنظيم دقيق. وقد انتقد عليه جماعة واعتبروا كتابه تحويراً شائناً عن البحار.

الشيخ على البحرانيّ

علي بن سليمان البحرانيّ، وصف في بعض الإجازات بـ (شمس سماء المحدثين، وبيت قصيد المدرسين المقدس الجناني). يروي عن العلامة المجلسي؛ ويروي عنه الشيخ سليمان بن علي الأُواليّ البحرانيّ.

الشيخ محمد البحرانيّ (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤م)

محمد بن ماجد بن مسعود الدونجيّ الماحوزيّ البحرانيّ، شاعر أديب. كان رئيس البلاد؛ ومن أعيان علمائها؛ وشيخ الإسلام بها، متوليا للأمور الحسبية، إماماً للجماعة والجمعة، مجتهداً دقيق النظر، مدرساً يحضر بحثه كثيرٌ من فضلاء البحرين. يروي عن العلامة المجلسيّ. ويروي عنه الشيخ سليمان الماحوزيّ؛ والشيخ علي بن الحسن البلاديّ، والشيخ محمد بن يوسف البحرانيّ. له (الروضة الصفويّة في فقه الصلاة اليوميّة)؛ و(الرسالة الصفويّة)؛ وغيرهما. توفي سنة ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤م عن عمر قارب السبعين، وقبره في (مقبرة المشهد) بالماحوز.

الشيخ محمد بن كنبار الضبيريّ البحرانيّ

(ت ١١٣٠ هـ / ١٧١٨م)

محمد بن يوسف بن علي بن كنبار الضبيريّ؛ النعيميّ؛ البلاديّ؛

البحرانيّ. فقيه فاضل؛ وأديب. له شعر جيد أكثره في أهل البيت عليهم السلام. أصله من (البلاد)؛ وبها نشأ، وسكن القطيف مدة، ثم عاد إلى البحرين، وعلى أثر فتن الخوارج وإصابته بالجروح انتقل إلى القطيف فتوفي بها بعد أيام من عودته سنة (١١٣٠ هـ / ١٧١٨م)؛ ودفن في مقبرة (الحبَّاكة). تتلمذ على الشيخ محمد بن ماجد البحرانيّ حتى توفي، ثم تتلمذ على الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي حتى وفاته.

يروي عن العلامة المجلسي، وأستاذه الشيخ محمد بن ماجد البحرانيّ، والشيخ سليمان الماحوزيّ؛ والسيد نعمة الله الجزائريّ وغيرهم. ويروي عنه الشيخ عبد الله السماهيجيّ، والشيخ ناصر بن محمد الجاروديّ.

الخاتمة

استعرضنا خلال الصفحات الماضية طبيعة الحياة العلمية والاجتماعية في البحرين في ظل الدولة الصفويّة في القرن (العاشر والحادي عشر الهجري / السادس والسابع عشر الميلادي)، وقد استند الموضوع على فرضية مفادها أن الحركة العلمية في البحرين في العصر الصفوي كانت استمرارًا للمسيرة العلمية في عصور سابقة، ولكن في إطار ظروف ذلك العصر، ومن أجل الكشف عن ذلك كان لا بُدَّ من إلقاء الضوء على حركة التأليف العلمي في ذلك العصر، وذلك عن طريق البحث في أسباب استمرار هذه الحركة، والنتائج التي تكشَّفت عنها في مختلف مجالات العلوم في ذلك الوقت.

وقد أوضحنا أن الحياة العلميّة في البحرين في ذلك العصر كانت نشيطة، وأن البحرين كانت في ذلك الوقت زاخرة بالعلم والعلماء والمصنفات في مختلف فنون العلم والمعرفة، وقد تبين لنا ذلك من خلال البحث في الأسباب والمظاهر، أما البحث في الأسباب فقد تحدثت عن جملة من الأسباب أدت إلى هذه النهضة العلمية، وأهمها تشجيع الملوك الصفويون للعلم والعلماء، حيث ظهر لنا تقدير الصفويين ملوكاً ووزراء للعلم وتشجيعهم لأهله.

وأما العامل الثاني؛ فكان دُور العلم، وتعددها في ذلك العصر، حيث

ظهر لنا أن حواضر البحرين في ذلك العصر كانت زاخرة بمراكز العلم، أو ما تعرف بالحوزات العلمية، حيث التخصصات العلمية المختلفة من علوم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، وعلوم اللغة وغيرها.

أما العامل الثالث؛ فهو هجرة العلماء من البحرين، حيث تبين لنا أن إيران كانت في ذلك العصر محط أنظار العلماء من مختلف أنحاء العالم، خصوصا في العراق وجبل عامل والبحرين، فقد وَفَد إليها علماء من هذه المناطق، وقد ساهم هؤلاء العلماء مساهمة فاعلة في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية؛ إذ تخرج على أيديهم جُلّة العلماء، وأغنوا المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة في شتى فنون العلم والمعرفة. كما لاحظنا احتضان البحرين لعدد من العلماء الوافدين من الذين أسهموا مع إخوانهم في هذه البلد في دفع حركة العلم دفعة قوية، مازلنا نحن في عصرنا الحاضر نجترّ ثمارها المباركة.

وكان من نتائج هذه العوامل، أن تبين لنا أن هذا العصر قد حفل بحركة علمية واسعة في مختلف مجالات العلم والمعرفة في ذلك الوقت، وقد تكشف لنا استيعاب علماء هذا العصر لعلوم أسلافهم وفنونهم، حيث حظيت المؤلفات السابقة من علماء هذا العصر باهتمام واسع، فقد أسهموا في شرحها، أو تلخيصها، أو نظمها، كما أسهموا في إضافاتهم الجليلة لهذه الميادين المختلفة، فقد تعددت اتجاهات التأليف في كل مجال منها، كما تبين لنا أن الازدهار والتقدم كان من نصيب العلوم الدينية، وعلوم اللغة العربية، أو ما قام من العلوم الأخرى على خدمتها؛ كعلم الحساب الذي

ارتبط بعلم الفرائض، أحد فروع علم الفقه المعروفة، وكذلك علم الفلك والهيئة الذي ارتبط أيضًا بالعلوم الشرعية.

التركة الثقيلة

قراءة في كتاب (لؤلؤة البحرين) للشيخ يوسف العصفور

يُعد الشيخ يوسف بن أحمد العصفور البحراني (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) أحد أهم الوجوه الفقهية الامامية اللامعة؛ فلقد كان شخصية علمية متعددة المواهب والقابليات، وقد ترك العديد من المؤلفات التي تكشف عن غزارة علم، ويد طولى في مضمار علم الفقه والرجال والتاريخ.

الشيخ يوسف، هو نجل الشيخ أحمد بن إبراهيم بن صالح بن أحمد بن عصفور بن أحمد بن عبد (........) الشيخ بن عطية بن شيبة الدرازي البحراني، المعروف بالشيخ يوسف العصفور، صاحب الموسوعة الفقهية (**الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة**)، والتي أصبحت من أمهات كتب الفقه الشيعي.

الشيخ يوسف العصفور ... السيرة والمحنة

سنحاول، في هذه القراءة، تسليط الضوء على الأبعاد الشخصية للشيخ يوسف، ونقدم قراءة لكتابه الرجالي الشهير (**لؤلؤة البحرين في الاجازة لقرتي العين**). يمكن تقسيم مراحل حياة الشيخ العصفور الى خمس مراحل هي:

المرحلة الأولى: من الطفولة الى الصبا

ولد الشيخ يوسف في (الماحوز) إحدى قرى جزيرة البحرين في عام ١١٠٧هـ / ١٦٩٦م، حيث هاجر والده الشيخ أحمد من مسقط رأسه قرية (الدراز)؛ ليستكمل مراحل دراسته العالية على المحقق الشيخ سليمان الماحوزي. وكان الشيخ يوسف الابن الذكر الأول لأبيه، وقد اختصه جده لأبيه التاجر الصالح الحاج ابراهيم الذي كان يملك سفناً يستخدم فيها عدداً من البحارة، ويمتهن حرفة الغوص على اللؤلؤ، ويتعاطى التجارة، فشب وصلُب عوده في كنف رعاية جده الذي أحضر له معلماً في البيت يعلمه القراءة والكتابة، كما أحاطه والده (الشيخ أحمد) برعايته، وتصدى لتدريسه.

عاصر الشيخ يوسف في مراحل عمره العديد من الاضطرابات السياسية والاجتماعية في وطنه البحرين، الأمر الذي فرض عليه أن يعيش في ترحال دائم، فتوزعت حياته بين البحرين والقطيف وايران والعراق، فما أن مضى من عمره خمس سنوات حتى بدأت الحرب القبلية بين (الهولة) و(العتوب) في البحرين، واستشرت مظاهر الفوضى والدمار.

اشتغل الشيخ يوسف – في صباه – بجمع أشعار المحقق الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله الماحوزي (ت ١١٢١ هـ / ١٧٠٩م)، وترتيبها على

حروف المعجم في ديوان مستقل[١]، ولكن سرعان ما تعرضت البحرين لهجوم عنيف من قبل اليعاربة العمانيين، فأسهَمَ اشتعالُ الأحداث في ضياع جهد الشيخ، اذ باغت العمانيون أهل البحرين بهجومين عسكريين، وتمكنوا - في الهجوم الثالث - من محاصرة الجزيرة بسد منافذها البحرية الى أن احتلوها، "وكانت واقعة عظمى، وداهية دهما، لما وقع من عظم القتل والسلب والنهب وسفك الدماء"[٢]. وقد حدثت - على إثر ذلك -هجرة جماعية واسعة، وحيث أن أقرب منطقة الى البحرين هي القطيف، فقد قصدها عدد كبير من الاهالي وأكابر البلد، ومنهم والده الشيخ أحمد، الذي أخذ أسرته وأبقى ابنه الأكبر الشيخ يوسف في البحرين؛ ليحفظ أملاك العائلة في بيت العائلة بالشاخورة. وكان والده قد أوصاه بالحفاظ على الكتب وممتلكات العائلة التي كانت مخفية في البيت، واسترداد الكتب المسلوبة.

وقد هاجر الشيخ يوسف لزيارة أبيه وعائلته بالقطيف، ومكث هناك ثلاثة أشهر، وكانت العائلة تعيش محنة اقتصادية شديدة في القطيف، حتى لقد صمم والده على العودة الى البحرين؛ نتيجة سوء الاوضاع الاقتصادية في المهجر القطيفي. لكن القدر كان يخفي ما هو أسوأ، فقد هجم حينها

---

(١) يوسف بن أحمد العصفور البحراني، لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم الحديث، (تحقيق محمد صادق بحر العلوم)، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٦ ٩.

(٢) المصدر نفسه ٤٤٣.

الفرس على البحرين محاولين تخليصها من يد اليعاربة العمانيين، فدخلت البلد في أتون اضطراب سياسي خانق، وهو ما أخّر عودة عائلة الشيخ الى البحرين، وفي إطار الأحداث الدامية التي كانت تعصف بالبلد، أُحرق بيت والده الشيخ أحمد فازداد الوالد غمّاً على غمٍّ، وتضاعف ألم الفقر والمهجر بمصيبة فقد الاملاك، فمرض شهرين حتى توفي في ١١٣١هـ

المرحلة الثانية: الهجرة إلى القطيف

بعد وفاة والده تحمل الشيخ يوسف مسؤولية إعالة إخوانه غير الاشقاء، وأكثرهم أطفال فجعوا بفقد أمهاتهم، بقي الشيخ يوسف في القطيف بعد وفاة والده لمدة سنتين، وقرأ في هذه الفترة على يد الشيخ حسين الماحوزي، أحد العلماء المبرزين في علم الحديث، وكان الشيخ يوسف - في هذه الفترة -يتردد على البحرين للاشتغال بالزراعة، وتعهد أملاك العائلة في الماحوز إلى أن ارتخت قبضة اليعاربة العمانيين على البحرين، وأخذت منهم، ورجع الشيخ يوسف الى وطنه، وبقي فيها مدة خمس سنوات، فدرس على الشيخ أحمد بن عبد الله البلادي، والشيخ عبد الله بن علي، ثم سافر - في هذه الفترة - الى الحج، ومر على القطيف؛ لأخذ الحديث عن الشيخ حسين الماحوزي مرة أخرى، حيث فضّل الأخير المكوث في القطيف على العودة الى الوطن بعد عملية إجلاء اليعاربة العمانيين، ورجوع غالبية أهل البحرين.

رجع الشيخ يوسف الى البحرين، لكن ضيق ذات اليد، وتراكم

الديون قد أقلقاه، وشغلا باله، زاد من صعوبة الوضع استيلاء الهولة على البحرين وحكمها بعد استيلاء الأفغان على إيران وقتل الشاه سلطان حسين.

المرحلة الثالثة: الهجرة إلى إيران

دفعت هذه الأوضاع الشيخ إلى الهجرة لإيران، وبقي في كرمان[١]، ثم انتقل إلى شيراز حيث اشتغل بالتدريس في مدرسة السلطان الميرزا محمد تقي خان، وأقام الجمعة والجماعة، وقد اشتغل الشيخ يوسف - في هذه الفترة - في التأليف والتصنيف، فألّف جملة من مصنفاته وأجوبة المسائل الواردة اليه، وانشغل بالمطالعة، لكن الاضطرابات ما لبثت أن اجتاحت شيراز، فخرج منها الى بعض القرى، وأقام في قصبة (فسا)[٢]،

---

(١) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، يصفها ياقوت الحموي بأنها "كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع تشبه البصرة في كثرة التمور وجودتها وسعة الخيرات". (أنظر: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٨، ٤/٤٥٤)

(٢) فسا: مدينة بفارس، وحسبها يقول ياقوت الحموي هي "أنزه مدينة بها فيما قيل، بينها وبين شيراز أربع مراحل، قال الاصطخري: وأما كورة دارابجرد فإن أكبر مدنها فسا، وهي مدينة مفترشة البناء واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز وهي أصح هواء من شيراز وأوسع أبنيةً، وبناؤهم من طين وأكثر الخشب في أبنيتهم السرو، وهي مدينة قديمة ولها حصنٌ وخندقٌ، وهي مدينة يجتمع فيها ما يكون في الصرود والجروم من البلح والرطب والجوز والاترج وغير ذلك". (مصدر سابق، جـ٤/٢٦١).

وأرسل أولاده الى البحرين، وبدأ بتأليف (**الحدائق الناضرة**) إلى باب الأغسال، كما اشتغل بالزراعة لمعاشه، وكان حاكم شيراز آنذاك الزعيم (محمد علي) الذي كان يكن اعتزازاً ومحبة للشيخ، حتى ثار نعيم دان خان عام ١١٦٣هـ (١٧٥٠م) وهجم على قصبة (فسا) مكان إقامة الشيخ، واقتحمت داره وهو مريض، ونُهبت أمواله، وأكثر كتبه ومؤلفاته.

وفر منها مريضاً بعائلته صفر اليد يجوب الجبال والقفار حتى استقر بناحية (اصطهبانات)، ولبث فيها مدة، ليجعل منها منطقة عبوره من ايران الى العراق حيث سيقصد كربلاء التي ستكون محكته الأخيرة في الحياة.

لقد تركت الأحداث التي تعرض لها ألماً كبيراً في نفسه، فلا يكاد يوجد للشيخ يوسف قصيدة إلاّ ويذكر فيها شيئاً مما عاناه في حياته، وفي قصيدة بعثها إلى إخوته من (اصطهبانات) يشتكي بقوله:

وقد أصبحت في دهر كنود ... به الغارات تشعل بالتهاب
وقد خلت المساكن من ذويها ... فراراً في الوهاد وفي الهظاب
مصائب قد غدت منها دواماً ... دموع العين تجري بانسكاب
علتني نارها فغدوت منها ... طريداً في الصحاري والشعاب
وأعظم حسرةً أضنت فؤادي ... تفرُّق ما بملكي من كتاب
لقد ضاقت عليّ الأرض طرّاً ... وسدّ عليّ منها كلَّ باب
طوتني النائبات وكنت ناراً ... على علم بها طي الكتاب[1]

---

(١) يوسف بن أحمد العصفور البحراني: جليس الحاضر وأنيس المسافر أو الكشكول، ←

وأكثر ما آلم الشيخ يوسف وأحزنه فقدُه لكتبه، فقد كرر لفظ "فقد الكتب" أو ما يشير اليها أكثر من عشر مرات[1] في كتاب اللؤلؤة؛ وهو ما يعطي دلالة على مقدار الألم النفسي الذي كان يشعر به الشيخ من ألم وحسرة حتى قال:

وأعظم حسرة أضنت فؤادي تفرق ما بملكي من كتاب

المرحلة الرابعة: الهجرة إلى كربلاء

تعد كربلاء المحطة الاخيرة من حياة الشيخ، وهي المحطة التي قرر أن تكون الأخيرة في حياته، حيث عزم على البقاء فيها حتى يتوفاه الله، ولا يُعرف - على وجه التحديد - متى نزل الشيخ يوسف كربلاء، لكن السيد عبد العزيز الطباطبائي يشير الى أن (الذي يظهر من تاريخ بعض تآليفه أنه حل بها قبل عام ١١٦٩هـ)[2] (١٧٥٦م). وعلى فرض أن تاريخ نزول الشيخ كربلاء هو في العام ١١٦٩هـ فإنه، بذلك، بقي يزاول نشاطه العلمي في

➔

الكشكول، إعداد محمد عيسى آل مكباس، آل مكباس للطباعة والنشر، قم المقدسة ٢٠٠٢ ٨٥.

(١) انظر (لؤلؤة البحرين)، مصدر سابق ٤٢،١٠، ٦٣، ٩٥ ،١٦٤، ١٦٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٥، ٣٣٣، ٤٤٨.

(٢) انظر: مقدمة كتاب الحدائق الناضرة بقلم السيد عبد العزيز الطباطبائي، دار الكتب الاسلامية، مطبعة النجف، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

كربلاء ١٧ عاماً حتى عام وفاته. ولكن لماذا قصد الشيخ يوسف كربلاء؟

يرى الدكتور عبد الهادي الفضلي أن (المرحلة الثانية للحركة الاخبارية تبدأ بموقف الشيخ يوسف المعتدل، وكان هذا في كربلاء؛ وذلك لأن كربلاء كانت - في القرن الثاني عشر - مركز تجمع للاخباريين من علماءَ وطلاب، وكان هذا هو السبب الحافز للشيخ البحراني أن يتخذ منها موطناً)(١).

وفي الحقيقة لم تكن كربلاء مركزاً لتجمع الاخباريين فحسب، بل كانت المركز العلمي الأهم للشيعة في ذلك الوقت (فعلى إثر انهيار الدولة الصفوية، وشيوع الفوضى في إيران انتقل مركز العلم الى كربلاء، وظل فيها حتى أواخر القرن الثامن عشر، ومنذ ذلك الحين أخذ المركز يتحوَّل الى بلدة النجف)(٢).

في ثنايا اللؤلؤة ثمة تعبيرات للشيخ العصفور حاثّة على اجتناب الحديث عن الصراع الاخباري/الأصولي، ونكأ الجراحات التي من شأنها أن تمزق وَحدة الصف، وتحدِث شروخاً عميقة في جسم المؤسسة الدينية، خصوصاً وأن ظهور مدرسة محمد الامين الاسترابادي الاخبارية فجّرت جدلاً عنيفاً كثيراً ما اتخذ لوناً شخصيّاً، وابتعد عن المناقشة العلمية الرزينة.

---

(١) عبد الهادي الفضلي: تاريخ التشريع الاسلامي، الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م ٤٣٧.

(٢) علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم ١٤١٧هـ جـ ١١/١.

وقد دافع الشيخ يوسف عن الشيخ محمد بن ادريس العجلي الحلي، وهو الفقيه الأصولي الذي كان (مجتهداً صرفاً)، بل دافع عن قضية الاجتهاد، فالشيخ يذكر بأنه (أول من فتح باب الطعن على الشيخ الطوسي — وهو جدّه لأمه- وقال في سياق رده على الشيخ صاحب (**أمل الآمل**): (فضل الرجل المذكور وعلو منزلته في هذه الطائفة مما لاينكر، وغلطه في مسألة من مسائل الفن لا يستلزم الطعن عليه بما ذكره المحقق، وكم لمثله من الاغلاط الواضحة ولا سيما في هذه المسألة، وهي مسألة العمل بخبر الواحد من تأخر منه من الفضلاء حتى مثل المحقق والعلامة اللذين هما أصل الطعن — قد اختارا العمل بكثير من أقواله)(١).

يقول الميرزا محمد بن سليمان التنكابني بعد أن يستل ترجمة الشيخ يوسف من اللؤلؤة: (وصاحب الحدائق غالباً ما مشى - في كتابه الحدائق - على طريقة أهل الاجتهاد، ويذكر أقوالهم، ويذكرهم بالتعظيم، وقد مدحهم في إجازته، وأثنى عليهم، وطعن على الملا محمد أمين الاسترابادي، ورد عليه كما قدح الملا محسن الفيض، بل اعتبره - في كتاب النفحات الملكوتية - فاسد العقيدة)(٢).

وفي سياق ترجمته للعلامة الحلي ذكر الشيخ يوسف بأن العلامة

---

(١) لؤلؤة البحرين ٢٧٩.

(٢) انظر: قصص العلماء، ترجمة الشيخ مالك وهبي، دار المحجة البيضاء، بيروت ١٩٩٢ ٢٩٣.

(كان لاستعجاله في التصنيف، ووسع دائرته في التأليف، يرسم كل ما خطر بباله الشريف، وارتسم بذهنه المنيف، ولا يراجع ما تقدم له من الاقوال والمصنفات، وإن خالف ما تقدم منه في تلك الأوقات، ومن أجل ذلك طعن عليه بعض المتحذلقين، الذي يحبون أن تشيع الفاحشة في الدين. بل جعلوا ذلك طعنا في أصل الاجتهاد، وهو خروج عن منهج الصواب والسداد، فإن غلط بعض المجتهدين – على تقدير تسليمه – لا يستلزم بطلان أصل الاجتهاد متى كان مبنيّاً على دليل الكتاب والسنة الذي لا يعتريه الإيراد)[1].

ولعل هذا النص يمثل – أبلغ تمثيل – النهج الاعتدالي للشيخ يوسف في نظرته الى الاجتهاد الفقهي.

لقد احتدم الصراع الفكري بين الاخباريين والأصوليين في كربلاء، وكان للشيخ يوسف دور مهمٌّ في محاولة إحداث توازن وتقريب لتخفيف حدة الصراع الناشب بين الفريقين، واتخذ موقفاً وسطاً، وشجب المواقف المتطرفة للمحدث الاسترابادي والفيض الكاشاني وأمثالهما. يقول في ترجمته للأمين الاسترابادي: (وهو أول من فتح باب الطعن على المجتهدين، وتقسيم الفرقة الى أخباري ومجتهد، وأكثر في كتابه (**الفوائد المدنية**) من التشنيع على المجتهدين، بل ربما نسبهم الى تخريب الدين، وما أحسن وما أجاد، ولا وافق الصواب والسداد، لما قد ترتب على ذلك

(١) لؤلؤة البحرين: ٢٢٦ – ٢٢٧.

من عظيم الفساد)[١].

وقال في ترجمة الفيض الكاشاني: (وهذا الشيخ كان فاضلاً، محدثاً، أخبارياً صُلباً، كثير الطعن على المجتهدين، ولاسيما في رسالته (**سفينة النجاة**)، حتى أنه يفهم منها نسبة جمع من العلماء الى الكفر، فضلاً عن الفسق، مثل ايراده الآية: (يا بني اركب معنا) (هود،٤٢) أي: (ولاتكن مع القوم الكافرين)، وهو تفريط، وغلو بحت، مع إن له من المقالات التي جرى فيها مذهب الصوفية والفلاسفة ما يكاد يوجب الكفر – والعياذ بالله – مثل ما يدل – في كلامه – على القول بوحدة الوجود، وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة في القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن العربي الزنديق، وأكثر فيها النقل عنه، وإن عبَّر عنه ببعض العارفين، وقد نقلنا من جملة من كلامه في تلك الرسالة وغيرها في رسالتنا التي في الرد على الصوفية المسماة بـ(**النفحات الملكوتية في الرد على الصوفية**)، نعوذ بالله من طغيان الأفهام، وزلل الأقدام)[٢].

سيتعامل الشيخ مع التصوف تعاملاً حدّيًّا نوعاً مّا، بل سيضع كتابه (**النفحات الملكوتية في الرد على الصوفية**)، وسيعيب على الشيخ أحمد بن فهد الحلي [ت ٨٤١ هـ] الذي رغم اعترافه له بأنه: (فقيه مجتهد زاهد عابد ورع تقي الا أن له ميلاً إلى مذهب الصوفية، بل تفوه به في بعض

(١) المصدر نفسه ١١٧ – ١١٨.

(٢) المصدر نفسه ١٢١.

مصنفاته)[1].

التعريف بـ "اللؤلؤة"

كتاب (**لؤلؤة البحرين في الاجازة لقرَّتي العين**) هو عبارة عن إجازة كبيرة كتبها لابني أخويه الشيخ حسين ابن الشيخ محمد، والشيخ خلف ابن الشيخ عبد علي، اشتملت على تراجم أكثر علماء الشيعة الى عصر الصدوقَين، وفيها أظهر الشيخ يوسف تتبُّعاً منقطع النظير للرجال، وإحاطة بالتراجم، مع إلماعات تاريخية مهمة، واكب الكثير من أحداثها، ودوَّن فصولها كشاهد عيان.

ويعدّ الكتاب موسوعة رجالية ذات قيمة تاريخية هامة، وسيأتي بعد الشيخ يوسف؛ الشيخ علي البلادي البحراني (ت ١٣٤٠هـ) بعد حوالى قرن ونصف ليضع كتاب (**أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين**) من أجل استكمال هذه المهمة التاريخية الهامة في توثيق تراجم رجال العلم البحرانيين، فالشيخ يوسف العصفور توفي في عام ١١٨٦هـ أي إن الفارقَ الزمني بين وفاة الرجلين تقدر بـ ١٥٤ سنة.

ورغم أن الأولى هي (إجازة كبرى)، والمصنف الثاني موسوعة رجالية، وليست إجازة، إلاّ أن الكتابين يؤديان غرضاً معرفياً يتشابه في وظيفته، يتلخص في الكشف عن تاريخ البلاد، وإبراز رموز الحركة العلمية

---

(١) المصدر نفسه ١٥٦.

فيها. ومعنى أن تكون (**اللؤلؤة**) إجازة: أنها تتخطى حواجز الجغرافيا للبلدان، فيؤرخ مصنفها عن من يروي عنهم، وبالتالي قد يترجم صاحب الاجازة لعالم دين إيراني في بهبهان، أو مجتهد عراقي من كربلاء، أو محدّث لبناني من جبل عامل، في حين يغفل - عن عمد - الترجمة لفقيه بحراني من أهل جدحفص أومقابه أو بوري؛ لأنه يروي عن أولئك، ولا يروي عن هؤلاء. وليس نسبة اللؤلؤة الى "البحرين" في تسميتها الأصيلة إلا من قبيل نسبة ما يكتبه المُصنف الى الارض التي يكون فيها وقت اشتغاله في تصنيف ما يكتب، وهو أمر تعارف عليه العلماء ذلك الوقت، فحين يكون المصنف في شيراز قد يكتب (الرسالة الشيرازية)، أو يكون في بهبهان تكون (البهبهانية)، أو يكون في القطيف تُنسب إليها وهكذا.

اللؤلؤة إجازة كبرى إذن، في حين أن (أنوار البدرين) هو كتاب تراجم خصصه مؤلفه لتراجم علماء (القطيف والإحساء والبحرين)؛ لذلك فهو يفرد مساحته الأولى والأوفر من كتابه لترجمة (علماء أوال في البحرين)، ثم ينتقل الى (ذكر القطيف وتراجم علمائها) وينتهي بذكر (الاحساء وتراجم علمائها وأدبائها).

يُضمّن الشيخ يوسف كتابه بجملة من الفوائد والوقفات التحقيقية للعديد من المسائل، سواء ما تعلق منها بتاريخ الشخصيات التي يترجم لها، أم بالمسائل العلمية التي يشار إليها بشكل عرضي، ثم يعلق عليها الشيخ في الكتاب، أو يحيل الى عدد من كتبه بقوله: (وقد خصصنا لمناقشة هذه المسألة في كتابنا...).

ففي معرض حديثة عن الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠م) يشير تحت عنوان (فائدة) إلى عدد الأحاديث المدونة في الكافي، وعدد الصحيح منها، والحسن، والموثق، والقوي، والضعيف[1]. وهكذا يتحدث عن كتاب (**من لا يحضره الفقيه**) و(**الاستبصار**) و(**التهذيب**).

ينهي الشيخ إجازته بعد أن يأتي على ذكر أحمد بن عبدون، أحد مشائخ الشيخ الطوسي، بقوله: (هذا ما تيسر الآن من ذكر المشائخ والطرق المتصلة بالمحدثين الثلاثة الذين هم أصحاب الأصول المعتمدة التي عليها المدار في جميع الأقطار والأدوار، ومن تلك الأصول تُعرف طرقهم بالأسانيد المتصلة إلى الأئمة الأطهار، صلوات الله وسلامه عليهم، ما دام الفلك الدوار، وأعقب الليل والنهار، وبطريق كل متأخر إلى متقدمه؛ نروي كتب ذلك المتقدم ومصنفاته ومقروءاته ومسموعاته ومجازاته). ويضيف مخاطباً ابنا أخويه: (وقد أجزت لكما - أيها الولدان الأعزان، حرس الله مجدكما وكبت عدوكما وضدكما - رواية جميع ذلك عني)[2].

مدفوعاً بتجاربه المرَّة في فقد الكتب والمؤلفات، أوصى الشيخُ يوسف ابني أخويه بجمع مصنفاته المكتوبة بيده، والاحتفاظ بها والاكثار من نسخها؛ محافظة على بقائها والانتفاع بها[3]. كما نبه الى أن الكتب

(١) المصدر نفسه ٣٩٥.

(٢) المصدر نفسه ٤١٩.

(٣) المصدر نفسه ٤٥٠.

المنقول عنها في مخطوطة اللؤلؤة غير خالية من الغلط.

مصادر اللؤلؤة

رغم أن المصادر المكتوبة، وكتب تراجم الرجال التي سبقت جهد الشيخ في اللؤلؤة تمثل ركناً أساسيّاً اعتمد عليه في (الإجازة)، الا أن المصادر الشفهية تشكل معيناً دافقاً للشيخ يوسف في لؤلؤته، فاعتماده على ما ينقل (بعض أصحابنا)، وما يذكره عن بعض (مشايخنا المعاصرين)، أو ما ينقله (بعض الأعلام)، أو ما سمعه ورواه له والده الشيخ أحمد العصفور، أو ما طالعه ووقف عليه من مخطوطات في البحرين أو شيراز أو خراسان، كل ذلك يضفي على الكتاب صفة مرجعية، ويمنح عمله بُعداً توثيقياً ذا ملمح خاص قد لا يتوفر في مصنف رجالي له أهميته التاريخية بالنسبة لتاريخ المنطقة التي يغطيها الكتاب. وفي الغالب كان يفرد مساحة لرأيه الشخصي تحت عبارة: (أقول)، ويعطي أحكاماً وتقييمات لبعض المصنفات التي قرأها واطلع عليها، بينما كان يكتفي بذكر المصنف دون أن يعلق عليه حين لا يكون قد وقف عليه وقرأه، أو يقول عن المترجم له: (ولم أقف على ما ذكر له شي من التصانيف".

يعمد الشيخ يوسف الى تلخيص ترجماته التي يستلها من أمهات كتب التراجم والاجازات متخلصاً من الأشعار والاستطرادات التي لا يجدها ضرورية، وقد بدا ذلك على سبيل المثال في ترجمته للسيد المرتضى[(١)]

(١) المصدر نفسه ٣١٤.

الذي له ديوان شعر يتضمن أزيد من عشرين ألف بيت شعر لم يشر في ترجمته الى بيت شعر واحد منها، وإن ذكر له أبياتاً في ترجمته لأخيه السيد الرضي، بيد أن الشيخ يوسف، ومن منطلق أمانته العلمية، يذكر المصادر التي يعتمد عليها عند التعرض لأي شخصية علمية.

فما هي المصادر التي اعتمد عليها الشيخ يوسف في كتاب اللؤلؤة؟

يعتمد اللؤلؤة بصورة رئيسية على كتاب الشيخ محمد بن الحسن الحر المشغري العاملي الشهير (**أمل الآمل**)، بل إن اللؤلؤة ينهض على أساس مرجعية نص الحر العاملي في كتابه، ثم يُدخل عليه الشيخ يوسف - من مصادر أخرى - ما يُكمل الصيغة العامة لبناء سلسلة سند الترجمات الرجالية. (**أمل الامل**) إذا يعد أهمَّ وأكثر المصادر التي أفاد منها الشيخ في اللؤلؤة.

أتم العاملي تأليف كتابه (**أمل الآمل في علماء جبل عامل**) في السنة ١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م. ويُعد الكتاب من أهم الكتب التأسيسية لتاريخ (جبل عامل)، ومراكزها العلمية ورجالها. ولو لاه لضاع تاريخ كثير، وقد ترجم العاملي لأكثر من عرف في الوطن والمهجر. كما أنه استفاد من معرفته الواسعة كمحدّث فذ بالاجازات ورجالها.

يلي كتاب (**أمل الامل**) في الاهمية، الإجازات التي يمنحها العلماء لطلبتهم، وفي اللؤلؤة اعتماد كبير على عدد واسع من الإجازات؛ كإجازة الشهيد لابن نجدة. وإجازة الشيخ عبد الله بن صالح البحراني الكبيرة للشيخ ناصر بن محمد الجارودي القطيفي التي فرغ من كتابتها في بلدة بهبهان سنة

١١٢٨هـ وأحياناً ما كان يذكر وقال: (بعض مشايخنا المعاصرين في بعض إجازاته" دون أن يسمي.

كما ينقل عن (**الفهرست**) للشيخ الطوسي (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م) الذي جمع فيه الشيخ العلماء المعاصرين له ومن تأخر عنه الى زمانه. و(**الفهرست**) للشيخ منتجب الدين علي بن عبيد الله بن الحسن الذي يقول فيه: (... أكثرنا النقل عنه في هذا الكتاب)[١].

كما يعد كتب (**معالم العلماء**) لزين الدين محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني الملقب بـ "شيخ الطائفة" الشهير بابن شهراشوب (ت ٥٨٨هـ)[٢] من مصادر اللؤلؤة. ويبدو أن النسخة التي كانت بيد الشيخ يوسف من (**المعالم**) لم تكن دقيقة، ومحكمة النسخ، لذا نجده في ترجمة الشيخ أبي الفتح الكراجكي، وبعد أن نقل عن ابن شهراشوب يقول: (والكتاب المنقول منه، لا يخلو من غلط. نسأل الله التوفيق لحصول نسخة صحيحة ليصحح منها هذه المواضع، وألتمس من الإخوان المؤمنين ممن وقع بيده هذا الكتاب إصلاح ما أمكنه من الغلط في هذه المنقولات حيث أنا في موضع لا توجد فيه الكتب المعتمدة)[٣].

ومن مصادر اللؤلؤة كتاب (**السلافة البهية في الترجمة الميثمية**)

---

(١) المصدر نفسه ٣٣٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٣٢، ٣٢١.

(٣) المصدر نفسه ٣٣٨.

للمحقق الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي، والسلافة أوردها بنصها صاحب اللؤلؤة في كشكوله (**أنيس المسافر وجليس الحاضر**). ومن المصادر (**كتاب الرجال**) للشيخ حسن بن داود الحلي (ت ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م)، وكتاب (**الدرجات الرفيعة**) للسيد علي خان المدني.

كما اعتمد الشيخ على (**مجالس المؤمنين**) للشيخ نور الله التستري، وقد وضع التستري كتابه هذا ليقرأ في مجالس المؤمنين، بحيث اشتمل على معلومات لا ينظمها منهج سوى الغرض منها، الذي هو تثقيف القارئ. ولكنها تعكس ثقافة مؤلفه الواسعة جدًّا، واهتماماته المتعددة.

ومن مصادر اللؤلؤة كتاب (**خلاصة الأقوال**) للعلامة الحلي، واعتمد عليه في ترجمته للشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢م)، و(**كتاب الرجال**) لأحمد بن العباس النجاشي الأسدي؛ كما في ترجمته للشيخ المفيد، و(**محبوب القلوب**) للشيخ قطب الدين الأشكوري، وهو في طرف من الملح والنوادر وأحوال العلماء، ويرد اسم الكتاب في اللؤلؤة (**حياة القلوب**)، وربما هي من سقطات من النسّاخ.

كما اعتمد صاحب اللؤلؤة على (**البداية والنهاية**) تاريخ ابن كثير في الاشارة الى الشيخ المفيد. و(**معجم البلدان**) لياقوت الحموي، و(**الاحتجاج**) لأبي منصور أحمد بن طالب الطبرسي الذي استفاد منه في الحديث عن الشيخ المفيد، و(**روضة العارفين**) للعلامة السيد هاشم البحراني، و(**إيضاح الاشتباه**) للعلامة الحلي، و(**نقد الرجال**) للسيد

مصطفى التفريشي، وكتاب (**العدة**) للشيخ المفيد في ترجمة الشيخ الطوسي، و(**الأنوار النعمانية**) للسيد نعمة الله الجزائري، و(**الدر المنظوم والمنثور**) للشيخ علي بن الشيخ محمد بن الشيخ حسن.

وفي نهاية الكتاب يختتم الشيخ بقوله: (هذا ما سنح على الخاطر، ومر على البال الفاتر من ذكر المشائخ والمصنفات، ومن أراد الإحاطة بما زاد على ذلك فليراجع فهارست أصحابنا، ومطولات إجازاتهم، ولاسيما كتاب الاجازات للسيد رضي الدين ابن طاووس، وكتاب الاجازات لشيخنا صاحب كتاب بحار الانوار، وفهرست الشيخ، وكتاب ابن شهراشوب، وكتاب منتجب الدين، ورسالة ابي غالب ونحوها)[1].

ويحيل الشيخ يوسف قارئ اللؤلؤة إلى بعض كتبه؛ ككتاب (**الحدائق الناضرة**)[2]، وكتاب (**سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد**)[3]، و(**أنيس المسافر وجليس الحاضر**)[4]، و(**الدرر النجفية من المقتطفات اليوسفية**)، و(**النفحات الملكوتية في الرد على الصوفية**) في سياق ترجمته للرجال.

---

(١) المصدر نفسه ٤٤١.

(٢) المصدر نفسه ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه ٢٨٢، ٣٠٥، ٣٦٢.

(٤) المصدر نفسه ٤٩، ١٤٩.

من الفقه والى الفقه

يتضح من طبيعة الشهادات التي يوردها الشيخ العصفور، أنه كان غارقاً في العلم، منصرفاً، كليًّا، إلى البحث والتصنيف والمدارسة والنقاش العلمي. وهو ما سبب انصرافاً واضحاً عن الاحتاك المباشر بأحداث العصر، وهموم الواقع السياسي الذي كان يمر بالبحرين وقتها، ولم ينعكس هذا الواقع الذي كان يموج بالمتغيرات السياسية الدراماتيكية على مستوى الانتاج الفقهي لدى الشيخ، ولربما يكشف هذا النص القصير عن المنهج الذي كان الشيخ يوسف يتمثله في حياته، ويعدّ أهم أبعاد شخصيته العلمية، يقول في حديثه عن كتابه (**الحدائق الناضرة**): (... فمنها كتاب الحدائق المذكور إلى كتاب الحج، وأنا الآن في الاشتغال بكتاب المتاجرة، وأعرضت عن ذكر كتاب الجهاد وما يتبعه؛ لقلة النفع المتعلق به الآن تبعاً لبعض علمائنا الأعيان، وإيثاراً لصرف الوقت فيما هو أحوج وأحق لأبناء الزمان)[1].

طبعاً، ليس هذا هو موقف عموم رجال المؤسسة الدينية الشيعية في البحرين، فمن العلماء من كانت له إسهامات واجتهادات فقهية في مسألة الجهاد، فالشيخ عبد الله بن علي البحراني البلادي (ت ١١٤٨هـ / ١٧٣٥م) الذي هو من العلماء الضالعين في الفلسفة والمعقولات، وأستاذ الشيخ يوسف، كان قد كتب رسالة في (**وجوب جهاد العدو في وقت**

(١) المصدر نفسه ٤٤٦.

الغيبة)[1]. والذي يظهر، أن الجدل لا يتصل بطبيعة الموقف من مسألة (جهاد العدو) بشكل عام، بل إن مدار الجدل بين العلماء كان يرتكز - بصورة أساسية - على حكم الجهاد في زمن غيبة الامام الثاني عشر المهدي بن الحسن عليه السلام.

لاشك أن ثمة مناخاً عامّاً من الرعب والدهشة كان سارياً في الأوساط الاجتماعية والمؤسسات الدينية إزاء ما كان يجري من أوضاع في البحرين، وكان هناك شعور معبأ بالاستسلام واليأس أسهما في إحداث إنشطار واضح بين ثقافة فقهية نظرية تستمد عناصر وجودها من المصادر الأساسية للتشريع وهو القرآن والسنة النبوية وبين ما كان يجري على أرضع الواقع، وقد ظلت رواسب هذا الوضع تُغذي واقع الانفصال الذي كان يحكم العلاقة بين النظرية والواقع في المتون الفقهية الامامية لاحقاً.

ولقد ساهم نموذج الفقيه المنفصل عن الواقع السياسي، والذي يمثله الشيخ يوسف أبلغ تمثيل، في إنتاج أجيال متعاقبة من الفقهاء الذين كانوا يتماهون مع ثقافة فقهية تجد دنياها الكاملة في كتب الفقه والحديث وعلوم أهل البيت، بعيداً عن تفاصيل الواقع اليومي للانسان وهمومه، حتى وإن كانت هذه الهموم باتساع وطن وبحجم آلام أُمة.

يبدي الشيخ العصفور مرونة عالية في التعامل مع الاختلافات الفقيهة في الدائرة الشيعية، ونراه يتحدث - باحترام منقطع النظير - عن المجتهدين

---

(١) المصدر نفسه ٧٣.

أيّاً تكن مشاربهم الفقهية وانتماءاتهم المعرفية. نراه مثلاً - بعد أن يستعرض ما ورد في الرسالة التي وضعها الشيخ ابراهيم بن سليمان القطيفي المسماة (**الرسالة الحائرية في تحقيق المسألة السفرية**) في مناكفة الشيخ علي الكركي - قال: (هذه طريقة جرى عليها جملة من العلماء من تخطئة بعضهم بعضاً في المسائل، وربما انجرَّ إلى التجهيل والطعن في العدالة كما وقفت عليه في رسالة للشيخ علي ابن الشيخ محمد بن حسن — صاحب حاشية اللمعة — في الرد على المولى محمد باقر الخراساني، صاحب الكفاية، والطعن فيه بما يستقبح نقله، وما وقع لشيخنا المفيد والسيد المرتضى بناء على الخلاف في المصنف لهذه الرسالة في الرد على الصدوق في مسألة جواز السهو على المعصوم من الطعن الموجب للتجهيل، وما وقع للمحقق والعلامة في الرد على ابن ادريس والتعريض به ونسبته الى الجهل ونحو ذلك، سامحنا الله وإياهم بعفوه وغفرانه)[1]. وربما يعكس النص، ميزة من مزايا الشيخ، وهي اتساع أفقه الفكري، ورحابة وعيه بضرورة احتواء الخلافات الفقهية عبر حصرها في دائرة النقاش الاكاديمي الهادئ، الذي يكرس لمراكمة فكرية، وينظر للآخر بوصفه مكملاً للأنا.

البعد النقدي لكتاب (لؤلؤة البحرين)

تطفح اللؤلؤة بالكثير من الملاحظات القيمة للشيخ يوسف تعليقاً على الكتب نقداً وتقويماً، أو مدحاً وإطراء، وهي ملاحظات تكشف - في

(١) المصدر نفسه ١٦٣ — ١٦٤.

مجملها – عن ثقافة واسعة، وعلم موسوعي لهذا الرجل. وربما أشار الى بعض الكتب بقوله: (لم أقف عليه). حتى يتجنب إصدار حكم عليه، أو حتى يكون معذوراً أمام قارئه في عدم إعطاء رأيه في الكتاب، بما يكشف عن نباهة وإحترام لعقلية القرّاء، فضلاً عما ينطوي عليه التصرف من أمانة وشجاعة علمية. كذلك يقف الشيخ العصفور وقفات في تحقيق رجال السند الواردة في متن إجازات العلماء. فقد صحح للشيخ الحر العاملي قوله: (إن الشيخ ابن داود قد ذكر الشيخ محمد بن ادريس، واعتبره شيخ الفقهاء، وكان الشيخ الحر العاملي قال في الآمل: (ولم أجده في كتاب ابن داود في الممدوحين، ولا في المذمومين من النسخة التي عندي)[1].

ثم أننا نراه يرجح في أقوال العلماء، بما يشير الى ملكة تحقيقية في التثبت من الحوادث التاريخية، فعند الكلام عن الشهيد الأول (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) ينقل قصة تأليفه كتاب (**اللمعة الدمشقية**) بحسب رواية نقلها الشهيد الثاني، ويختم بالقول: (أقول وفي هذه الحكاية ما يدل على بطلان ما ذكره في كتاب (**أمل الآمل**) من أنه صنف اللمعة في الحبس في قلعة دمشق)[2]. أو تأكيده على أن للشيخ أحمد بن محمد الاردبيلي شرحاً لكتاب العلامة الحلي (**الارشاد**) أسماه (**مجمع الفوائد**)، فلا يلتفت الى

---

(١) المصدر نفسه ٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه ١٤٦.

إنكار بعض أبناء هذا الوقت بأن الكتاب ليس له وأنه مكذوب عليه)[١].

وفي الكتاب طرفاً من بعض تاريخ الدولة الصفوية في سياق ترجمته لحياة بعض العلماء والمحققين، كما في ترجمته لحياة الشيخ علي الكركي (ت٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤م)ـ المعروف بالمحقق الثاني[٢].

ويقول في ترجمة الشيخ محمد أمين الاسترابادي (ت ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م): (ورأيت بخطه – رحمه الله – حاشية على شرح المدارك مسودة تتعلق ببعض كتب الطهارة تشهد بفضله ودقته وحسن تقريره)[٣].

وفي حين أنه يعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب (**أمل الآمل**) إلا أنه يشير إلى بعض الهفوات التي وقع عليها الحر العاملي في هذا الكتاب، فمثلاً - في سياق ترجمته لميرزا محمد بن علي بن ابراهيم الاسترابادي (ت ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) – يقول: (والعجب من صاحب كتاب أمل الآمل - مع كون هذا الرجل من أفاضل علماء جبل عامل - نسي ترجمته في الكتاب)[٤]. وفي الواقع - كما يشير السيد محمد صادق بحر العلوم في تحقيقه للؤلؤة فإن صاحب (أمل الآمل) لم ينس ترجمته، فقد ترجم له بعنوان: (إبراهيم بن علي العاملي الميسي)، ولعل نسخة صاحب اللؤلؤة من

---

(١) المصدر نفسه ١٥٠.

(٢) المصدر نفسه ١٥١ – ١٥٣.

(٣) المصدر نفسه ١١٩.

(٤) المصدر نفسه ١٢٠.

مخطوطة (أمل الآمل) سقطت منها هذه الترجمة.

كذلك يشير في ترجمته الى الشيخ محمد بن محمد العاملي بقوله: (...ولعل كونه ابن عم الشهيد [الثاني] باعتبار أخوَّة أبيه لوالد الشهيد من الأم، وإلاَّ فالأب مختلف، كما لا يخفى، فإن أبا الشهيد مكي بن أحمد- كما تقدم – وأبا هذا الرجل محمد، فاطلاق ابن العم بالمعنى الأعم بعيد هنا)[1].

وقد أظهر الشيخ يوسف تشكيكاً في صحة ما ذكره الشيخ حسن بن داود عن أن الشيخ فخر المحققين (ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م) بلغ رتبة الاجتهاد وهو في سن الرابعة. وعلق على هذا القول بقوله: (لا دلالة على أن حفظ العلم في هذا السن يدل على ذلك ما ذكره ابن داود قبل هذا الكلام في المقام حيث قال: "حفظ القرآن في مدة يسيرة وله إحدى عشرة سنة، فانه اذا كان القرآن الذي هو معظم أدلة الاحكام لم يحفظه الا في هذا السن فكيف يمكن القول بما ذكره بأنه رزق العلم – أو بلوغ الاجتهاد في سن الأربع سنين كما يفهم من كلامه؟)[2].

كما خطّأ الشيخ الحر العاملي في (**أمل الآمل**) الذي عدّ كتاب (**الرجال الكبير**) وكتاب (**الكشكول في ما جرى على آل الرسول**) من مؤلفات العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)، وأشار إلى أن ورود اسم

(١) المصدر نفسه ١٧١.

(٢) المصدر نفسه ١٩٤.

كتاب (**الرجال الكبير**) في كتاب (**الخلاصة**) **لا** يعني أنه من تصنيف العلامة الحلي نفسه، و(أما ما عده من (**كتاب الكشكول فيما جرى على آل الرسول**) فهو غلط، وإن عدَّه غيره، أيضاً، من مصنفاته قدس سره وإنما هو من مصنفات أفضل المتألهين حيدر بن علي العبيدلي الحسيني الآملي). واستدل الشيخ يوسف على ذلك بما ذكره كتاب (**مجالس المؤمنين**) من نسبة الكتاب الى الآملي. ولم يكتف الشيخ بهذا الدليل، بل عمد الى تحليل منهج وأسلوب الكتاب، وانتهى إلى أن (سياق عبارات الكتاب وأسلوبه يكشف عن أنه ليس على ذلك طريق مشرب العلامة رحمه الله، ولا نظم كلامه)[1].

وبعدما نقل عن الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي في رسالته عن الشيخ ميثم (**السلافة الهبية في الترجمة الميثمية**) أنكر على الشيخ سليمان نسبة كتاب (**الاستغاثة في بدع الثلاثة**) الى الشيخ ميثم البحراني، واعتبره "غلط" أخذه عن من تقدمه، ولو أن الشيخ سليمان رجع عن هذا القول: (فيما وقفت عليه من كلامه) كما يقول الشيخ يوسف. فكتاب الاستغاثة هو لعلي بن أحمد الكوفي من قدماء علماء الشيعة في الكوفة، وقد ذكره النجاشي في جملة كتبه، وكعادته، يشير الشيخ يوسف إلى أن (من عرف سليقة الشيخ ميثم في التصنيف، ولهجة أسلوبه في التأليف لا يخفى عليه أن

(١) المصدر نفسه ٢٢٢.

الكتاب المذكور ليس جارياً على تلك اللهجة)[١].

كما لاحظ الشيخ يوسف أن الشيخ الطوسي (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣م) رغم اعترافه له بالفضل وأن (فضله أعظم من أن تحويه السطور) إلا أنه وقع في كتابه (**التهذيب**) في (السهو والغفلة والتحريف والنقصان في متون الأخبار وأسانيدها، وقلما يخلو خبر من علة ذلك كما لا يخفى على من نظر في كتاب (**التنبيهات**) الذي صنفه السيد العلامة السيد هاشم في رجال التهذيب، وقد نبهنا في كتابنا (**الحدائق الناضرة**) على ما وقع له من النقصان في متون الأخبار، حتى أن كثيراً ممن يعتمد عليه في المراجعة عليه ولا يراجع غيره من كتب الأخبار وقعوا في الغلط، وارتكبوا في التقصي منه الشطط كما وقع لصاحب (**المدارك**))[٢].

ويعلق الشيخ يوسف في الكثير من مواقع الكتاب تعليقات في غاية الأهمية عن المترجم له، فيضيف معلومات جديدة عن مصنفاته غير المذكورة في الكتب التي سبقته، أو يشير الى مكان قبره، أو يقارن بين تاريخ ميلاده ووفاته؛ مستخلصاً عمره حين وفاته، أو يمتدح فكرة أو يقدح ظاهرة، أو ينقل مشاهدة من واقع تجربة شخصية له ترتبط بشخصية المترجم له.

كما يعلق الشيخ على ترجمة الشيخ المرتضى بقوله: (كان مجتهداً

---

(١) المصدر نفسه ٢٦١.

(٢) المصدر نفسه ٢٩٧- ٢٩٨.

أصوليًّا بحتا، قليل التعلق في الاستدلال بالأخبار وإنما تعلق بالأدلة العقلية، كما لا يخفى على من راجع كتبه الفقهية)[1]. ويرد الشيخ هذا المنحى للشيخ المرتضى الى (ما اشتهر نقله عنه من حكمه بأن هذه الاخبار أخبار آحاد لاتوجب علماً ولا عملاً كما طريقة ابن ادريس قدس سره).

كما نبّه الشيخ يوسف في ترجمته الى الشيخ أحمد بن علي الطبرسي صاحب (**الاحتجاج**) الى ما وقع فيه بعض العلماء من نسبة كتاب التفسير له: (وقد غلط جملة من متأخري أصحابنا رضوان الله عليهم، في نسبة كتاب (**الاحتجاج**) المذكور الى أبي علي الطبرسي، صاحب التفسير، منهم المحدث الامين الاسترابادي، وقبله صاحب (**رسالة مشائخ الشيعة**)، وقبله الفاضل المتكلم محمد بن أبي جمهور الأحسائي في كتاب (**غوالي اللئالي**[*]))[2].

---

(١) المصدر نفسه ٣١٩.

(*) كذا يرد رسم هذا الكتاب هذا في معاجم الكتب وكتب التراجم والسير، وهو خطأ إملائي بين، إذ إن الهمزة لا تكتب على نبرة إلا إذا كانت مكسورة أو سبقت بكسرة، وحقه أن يرسم هكذا: غوالي اللآلي. الواحة.

(٢) لؤلؤة البحرين ٣٤٢ - ٣٤٣.

إضاءات حول مكانة السيدة الزهراء عليها السلام

في التراث البحراني

كان للحضور الدائم للسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام في يوميات أهل البحرين عبر القرون أثرٌ واضحٌ انعكس في تراث هذا الشعب الذي عرف بشدة ولائه لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، ويزخر التراث الأدبي والشعري بشواهد دالة على عمق هذا الولاء وتجذره في نفوس أهل البحرين.

وهذه الورقة تحاول ان تلقي الضوء على نتاج علمي وأدبي وتقاليد ثقافية عريقة وراسخة، امتدت لمئات السنين حول شخصية السيدة فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) وظلامتها في تراث البحارنة، وسنعمد الى تقسّيم هذا البحث ضمن أربعة محاور أساسية:

المحور الاول: السيدة الزهراء عليها السلام في ثقافة الإحياء الشعائري.

المحور الثاني: السيدة الزهراء عليها السلام في الثقافة الشعبية لأهل البحرين.

المحور الثالث: السيدة الزهراء عليها السلام في تراث أهل البحرين النثري.

والمحور الرابع: السيدة الزهراء عليها السلام في تراث أهل البحرين الشعري.

آملين من هذه البحث أن تعطي فكرةً عامة عن مكانة السيدة الزهراء عليها السلام في التراث الادبي والفكري وموقعها في الثقافة الشعبية والممارسات الاجتماعية التي تعكس وتختز ل أبعاداً روحية وفكرية ودينية عميقة الغور.

(١)

السيدة الزهراء عليها السلام في ثقافة الإحياء الشعائري

يحفل الوعي الاسلامي منذ صدر البعثة حتى عصر الامام الثاني عشر عليه السلام، بنصوص تأسيسة مكثفة صادرة عن النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في حث المسلمين على إحياء أمر البيت عليهم السلام، إذ نلمس تفاصيل هذه الأحاديث تأكيداً على إحياء ذكراهم بأشكال العزاء المختلفة، بين بكاء وتباكٍ وإنشاء شعر وإقامة مجالس المصيبة وتسيير المواكب وما سوى ذلك.

كما أكدت الاحاديث على عدم ترك زيارتهم، وأولت عناية كبيرة للاجتماع في مأتم سيد الشهداء وعموم مجالس ذكر أهل البيت عليهم السلام، حيث يسجل الامام الصادق عليه السلام نصاً: "إن تلك المجالس احبها، فأحيوا أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا"[١].

وفي حديث آخر: "من تذكّر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم

---

(١) قرب الاسناد: ص ١٨ تفسير علي بن ابراهيم بن هاشم: ج ٢ ص ٢١٢، وسائل الشيعة: ج ١٤ باب ٦٦ ح ٢ ص ٥٠١.

تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب"[(١)].

ولقد كان للتشيع الذي عرفت به البحرين منذ بواكير الرسالة الاسلامية أثر كبير في تعميق محبة أهل البيت عليهم السلام، فهذا المؤرخ ابن المجاور الشيباني (ت ٦٩٠ ه / ١٢٩١م) ينص على أنّ جزيرة أوال كان بها ٣٦٠ قرية إماميةَ المذهب ما خلا قريةً واحدة[(٢)]. ولاغرو في رسوخ ظاهرة التشيع في نسيج المجتمع البحراني، فقبيلة ربيعة سكان البحرين الأصليين، وعلى الخصوص عبد القيس، كانوا يتميزون بولائهم لأمير المؤمنين علي عليه السلام فهم أنصاره في مواقعه كلها، وكان يُرى في الحروب تحت راياتهم، ويقول "إنها رايات الحق"[(٣)].

أصالة الشعائر الفاطمية

حرص أهالي البحرين على إحياء ذكرى مناسبات أهل البيت عليهم السلام، والتي تتكثف فيها مراسم الاحياء في "عاشوراء" وهي الأيام العشر الأولى من شهر محرم منذ سماعهم بمقتل الأمام الحسين عليه السلام من الحجاج الذين

(١) أمالي الصدوق: ٦٨، ٤ ، عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٢٩٤، ٤٨ وسائل الشيعة: ج ١٤ باب ٦٦ ص ٥٠٢.

(٢) أنظر: ابن المجاور الشيباني: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز؛ الصفحات: ٣٠٨، ٣٣١.

(٣) سالم النويدري: أعلام الثقافة الاسلامية في البحرين، ج ١ ص ٥١.

زاروا مكة والمدينة آن ذاك، وكانوا يقيمون مأتم العزاء في البيوت ثم خصصت أماكن سميت "مأتم" أو حسينيات نسبة للحسين عليه السلام واليوم قد وصل عدد لمآتم المرخصة كا يزيد عن ٦٠٠ حسينية ومأتم في المناطق المختلفة من المملكة[1]. وبينت الاحصاءات أن ما نسبته ٥٢٪ من تلك المآتم والحسينيات للرجال ومانسبته ٤٨٪ للنساء وأن ما يربوا على ٢٠٠ من تلك المآتم والحسينيات تأخذ من البيوت مقراً لها في إحياء فعالياتها.

ويرتفع البعض بعدد المآتم الموجوده في البحرين مؤكداً انه تزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة حسينية للرجال، ثلث هذا العدد فقط له أوقاف مسجلة لدى إدارة الأوقاف الجعفرية، والثلثان الباقيان بلا أوقاف حيث تعتمد في تمويل مصروفاتها على أموال المؤسسين الخاصة، وكذلك القائمين عليها ومن التبرعات والنذور التي ترد من الاخرين[2]. وأياً يكن الاختلاف في عدد المآتم الموجودة في البحرين، فهي بلا شك تعكس الثقل الديموغرافي والإجتماعي لشيعة البحرين ومبلغ اهتمامهم وعنايتهم بهذه المؤسسات والنشاطات الدينية التي ترعاها.

ما أن يهل هلال المحرم، تتشح الطرقات والشوارع بالرايات السوداء وتعلق على المباني والبيوت وجدران "المآتم والحسينيات" إعلانا لموسم

---

(١) منبر الأوقاف، دورية تصدر عن إدارة الأوقاف الجعفرية، العدد الثالث، يوليو ٢٠٠٧.

(٢) عبدالله سيف: المأتم في البحرين، ص ٢٥.

الحزن على مأساة المسلمين بمقتل الامام الحسين بن بنت رسـول الله صلى الله عليه وآله، يسمى ذلك اليوم بيوم "تركيب السوداء". كما يحـرص شـيعة البحـرين علـى تقديم الموائد لجميع الطوائف والاديان في مشهد يعكس مدى قـدرة هـذه المناسبة على جمع الاديان على قيم الخير والفـضيلة، فتجـد مـشاركة فاعلـة وواضحة الى الاشقاء الـسنة والمـسيحيين واليهـود والبـوذيين خـصوصاً فـي مراسم الإحياء الحاشدة التي تجري في العاصمة المنامة، و التي يتواجد فيها جالية أجنبية كبيرة متعددة المذاهب والأديان، ولهذا سرى مثـل شـعبي بـين البحرانيين يقول :"اللي ينوح واللي ماينوح يأكل عيش الحسين" فـي إشـارة دالّة على كرم أهالي البحرين الذي لـيس لـه حـدود، حيـث توضـع الموائـد على حب أهل البيت عليهم السلام.

إن معظـم المـآتم تـصرف المبـالغ الطائلـة علـى إقامـة هـذه المحافـل الحسينية من مدخرات أهل الكرم والجود الذين رصـدوا مبـالغ كبيـرة لهـذا الغرض المقدس، هذا إلى جانب التبرعات المادية مـن محبـي أهـل البيـت. وفي الزمن السالف وحتى وقت متأخر نسبياً كان لكل مـأتم رايتـه الخاصـة، وتقـوم مجموعـة مـن الـشباب بـالمرور فـي الأحيـاء وهـم يحملـون "الرايـة" للحصول على المساعدات الماديـة مـن النـاس والأهـالي، كمـا تقـدم دائـرة الأوقاف الجعفرية مبالغ نقدية من الأوقاف المخصصة من أهل الخير .

تاريخياً، عرفت البحرين إقامة المجالس الحسينية منذ زمن مبكر، قـد يرجع الى الـسنين الأولـى مـن مـصرع الامـام الحـسين عليه السلام وأهـل بيتـه فـي كربلاء، وكان أهالي البحرين يقومون بعقد المجالس الحسينية – كما أشرنا

— في بيوتهم ومجالسهم الخاصة أو في بساتينهم ومساجدهم منذ سمعوا باستشهاد الإمام الحسين في كربلاء، وكلما شهد الأهالي إنفراجاً أمنياً من الحكام توسعوا في إقامة هذه المجالس علناً، وكلما شعرو بالتضييق والإضطهاد إنكمشوا في إحياء هذه الذكرى وأقاموا هذه المجالسَ في السر.

غير أن الحسينية كمؤسسة أهلية قائمة بذاتها كبناء له كيان مستقل لم يعرفه المجتمع البحراني إلاّ في العصر الحديث وربما منذ حوالى أربعمائة عام، أما بالنسبة للمواكب الحسينية المنظمة؛ فالمظنون أن المجتمع البحراني لم يعرفها إلا في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة (ت ١٩٣٢) الذي تولى حكم البلاد في الفترة ما بين عام ١٨٦٩ وعام ١٩٢٢[١].

وحينما تأتي مناسبة وفاة الزهراء تنشغل مآتم البحرين وحسينياتها خصوصاً في السنوات المتأخرة بإقامة مايُعرف بـ "العشرة الفاطمية" حيث سرت هذه العادة التي يضع فيها الكثير من الخطباء والرواديد والمحاضرين من النساء والرجال في قضية الزهراء عليها السلام كل طاقتهم فيها وامكانياتهم فإيضاح ظلامتها وسيرتها العطرة.

ولايقتصر إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام في ذكرى الوفيات والمواليد، بل يتعداه. ولعل ظاهرة النذورات وقراءة العوائد المعروفة في أوساط المجتمع البحراني تعد أبرز مظاهر هذا الإحياء، فلقد عرف مجتمع البحرين

---

(١) عبدالله سيف: مصدر سابق، ص ٢٦.

ما يعرف بـ "العوائد" التي كانت تمثل ظاهرة من ظواهر الحياة الدينية في المجتمع البحريني قبل ان تنحسر شيئاً فشيئاً في نهاية القرن الماضي. فقد إعتاد الناس عند بناء بيوتهم أن يفردوا مكانا خاصا منعزلا عن سكن البيت يسمى "المجلس" خاص لاستقبال الضيوف، وكثيراً ما كانت هذه المجالس التي يقصدها الناس عامرة بالمستمعين للخطابة الحسينية المسماة "العادة الأسبوعية".

وتزداد وتيرة النشاط الديني والثقافي لهذه المجالس طوال ليالي شهر رمضان الكريم من أجل التبرك بقراءة القرآن والأدعية المأثورة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ضمن عرف سنوي له رسوخ قديم في المجتمع، ورغم قسوة الفقر وشظف العيش الذي عاشه الآباء والأجداد إلا أنهم كانوا حريصين على هذه التقاليد الدينية مدركين لأهميتها العقائدية والاجتماعية في نفوس النشيء.

أوقاف أهل البيت عليهم السلام

تمثل ظاهرة كثرة الأوقاف المخصصة لإحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام إحدى مميزات المجتمعات الاسلامية الشيعية، ومع وجود أوقاف لمختلف الأغراض الدينية والعلمية والانسانية في المجتمعات الشيعية، إلا أن النسبة الغالبة من الاوقاف لدى الشيعة مخصصة لأهل البيت عليهم السلام وخاصة الامام الحسين عليه السلام.

وفي مجتمع البحرين، تتجلى هذه الظاهرة بوضوح، إذ تكثر

الموقوفات المخصصة لاهل البيت، من مزارع ودكاكين وأراض وحضور. ويشير مدير دائرة الاوقاف الجعفرية في البحرين أن الأوقاف على أهل البيت تزيد على نسبة ٧٥٪ من مجمل الأوقاف في البحرين[١]. وتشرف إدارة الأوقاف الجعفرية على عدد كبير من العقارات الموقوفة للمساجد والمآتم، وأخرى للذريات وكذلك للعبادات وللكتب ولخطباء لمنبر الحسيني ولطلبة العلم والمحتاجين من الفقراء في البحرين.

ولقد دون السيد عدنان الموسوي (ت ١٩٢٨) أول رئيس للأوقاف الجعفرية في الربع الأول من القرن الماضي أغلب هذه الأوقاف[٢] ويصاب المطلع على هذا السجل بالذهول لحجم الأوقاف المخصصة لأغراض إحياء مناسبات أهل البيت والصرف عليها[٣]. مما يدلل على تعلق أهل

---

(١) حسن موسى الصفار: الاوقاف وتطوير الاستفادة منها، ص ٢٢.

(٢) شغل السيد عدنان منصب القضاء الجعفري في أيامه، ومنصب رئاسة الأوقاف الجعفرية، وأموال القاصرين، وخلال هذه الفترة بذل السيد الجليل جهداً كبيراً في حفظ الأوقاف المعروفة ضمن فترة توليه الأوقاف (١٩٢٧ – ١٩٢٨م)، إذ قام بعملية مسح كاملة وشاملة لجميع الأوقاف في جميع قرى ومدن البحرين، وتحديد حدودها وذكر الواقفين لها، وبيان أوجه الصرف لها، حيث قام بتدوينها في دفتر سمي باسمه "سجل السيد عدنان" الذي يعتبر بمثابة وثيقة تاريخية ومرجعا أساسيا تستند إليه إدارة الأوقاف في تسجيل أراضيها وأملاكها غير الموثقة.

(٣) أنظر: سجل السيد عدنان الموسوي، إدارة الاوقاف الجعفرية في مملكة البحرين، النسخة الالكترونية ٢٠٠٦

البحرين وعمق ولائهم وحرصهم على أهمية استمرار عملية تأصيل ثقافة الإنتماء المذهبي بوعي تاريخي يتواصل عبر الأجيال.

و يلاحظ الباحث الكثير من مسميات "المزارع" مثلاً المنتشرة في طول البلاد وعرضها حتى أواخر القرن الماضي، يقال: (دالية الزهراء) أي أنها موقوفة فقط على إقامة وإحياء وفاة الزهراء، وفي قرية جدحفص مثلاً ونظراً لتعدد مناسبة وفاة الزهراء عليها السلام بحسب الروايات المتعددة في وفاتها عليها السلام بين ١٣ جمادى الأولى و ٨ ربيع الثاني و ٣ جمادى الثانية كأشهر الروايات من بين ما يذكره أرباب السير من السنة والشيعة في تاريخها، هناك بعض الموقوفات في هذه المنطقة وقفاً خاصاً بإحياء يوم ٨ ربيع الثاني، حتى لاتُنسى هذه المناسبة ويستمر إحياؤها، رغم كونها من أقل الروايات عملاً بها بين الأوساط الشيعية.

يمتاز دور أوقاف أهل البيت في المجتمع الشيعي بميزة إضافية عما تقوم به سائر الأوقاف في المجتمعات الإسلامية، وتلك الميزة هي توفير الاستقلال للنشاط الديني والثقافي، حيث تعتمد الجهة الدينية في تمويلها على الأوقاف والخمس الشرعي.

فالحوزات العلمية الدينية، وشؤون المرجعية والإفتاء، وإقامة الشعائر والمناسبات الدينية، ودور الخطباء والمبلغين، كل هذه المهام يجري تمويلها من وارد الأوقاف والخمس، وهو ما يمكنها من الاستمرارية والاستقلال المالي عن الجهات الرسمية.

إن هذا الإقبال الكبير على تخصيص الأوقاف لأهل البيت عليهم

السلام في المجتمعات الشيعية نابع من الأسباب الآتية:

١- عمق المودة والولاء لأهل البيت عليهم السلام في نفوسهم، إذ يرتضعون ذلك من تربيتهم ونشأتهم ضمن عوائلهم، كما تسود في مجتمعاتهم ثقافة المحبة و الولاء والارتباط بأهل البيت عليهم السلام عبر المناسبات الدينية وإرشاد العلماء و وعظ الخطباء .

٢- دافع التقرب إلى الله سبحانه و تعالى، فإحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام أمر محبوب عند الله سبحانه، ومظهر من مظاهر المودة التي أوجبها الله لهم، وهو ينسجم مع نهج القرآن الكريم في إحياء ذكر الأنبياء و الأولياء، والإشادة بهم، والحديث عن سيرتهم و مواقفهم.

٣- كما يشكل استجابة لتوجيهات أئمة أهل البيت الذين دعوا شيعتهم لإحياء ذكرهم و أمرهم، كالخبر المروي عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام "أحيو أمرنا، رحم الله عبداً أحيا أمرنا. قلت: كيف يحي أمركم ؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو عرفوا محاسن كلامنا لاتبعونا" [(١)].

٤- إن إحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام يعني إحياء الحالة الدينية في المجتمع. ذلك أن حضور سيره أهل البيت في النفوس و الاذهان تعني حضور القيم والمباديء التي يمثلونها، مما ترك أثراً و انعكاساً واضحاً على الفكر والسلوك.

---

(١) محمد بن علي بن الحسين الصدوق: عيون أخبار الرضا ج٢ ص ٢٧٥.

٥- إن المظلومية التي عاشها أهل البيت في حياتهم بإقصائهم وتهمشيهم و الإساءة لهم من قبل أغلب الحاكمين في عصورهم، أوجدت في نفوس أتباعهم تعاطفاً عميقاً، يدفعهم لتحدي حالة المظلومية التي تعرضوا لها، بالمزيد من مظاهر الاحتفاء و التخليد لذكرهم وسيرتهم، في مقابل محاولات التعتيم على ذكرهم و آثارهم.

٦- وبسبب الظروف الصعبة التي مرت على المجتمعات الشيعية أصبح إحياء ذكر أهل البيت جزءاً من "الهوية"، و الإهتمام به يعني حماية الذات من الذوبان، و حفظاً للخصوصيات المذهبية.

وأخيراً فإن الأوقاف على أهل البيت تعني ضمان التمويل الذاتي للنشاط الديني و الفاعلية الاجتماعية، حيث يلمس الواقف أثر وقفه في جذب الجمهور نحو المناسبات الدينية، وفي توفير فرص الوعظ و الإرشاد لأبناء المجتمع، وفي تهيئة الأجواء لتربية النشء على العقيدة والمبدأ، وفي تكريس تلاحم المجتمع ورفع معنوياته و إظهار قوته.

النذورات والعوائد

كذلك، عرف المجتمع النذورات كشكل من اشكال التعبد الديني في المجتمع البحراني، وكان أيضاً لأهل البيت عليهم السلام موقع الصدارة في عقل ووجدان البحرانيين في نذوراتهم، والنذر هو "أن يجعل الشخص لله على ذمته فعل شيء أو تركه".

ومن المعروف أن للنذورات أحكام فصلها فقهاء الإسلام في كتبهم

ومـدوناتهم الفقهيـة، وللنـذورات وظيفـة اجتماعيـة علـى جانـب كبيـر مـن الاهمية، فقد لايكون موضوع النذر موضوعاً شخصياً مـرتبط بـدائرة الـذات (كالحج، والصلاة، والزكاة) بل يتعداه ليلامس الإطـار الاجتمـاعي الأوسـع، وكثيراً مـا يكـون لمثـل هـذه النـذورات مكاسـب اجتماعيـة كبيـرة وتـؤدي أغـراض إنـسانية تعـزز روح التكافـل وتغـرس الاحـساس بالمـسئولية تجـاه الفئات المحرومة في المجتمع كالصدقة وكفالة اليتيم ومظاهر برّ الوالدين.

وضمن هذا الفهم الشرعي، شكلت النذورات المتعلقة بزيارة مقامـات أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام عنصر من عناصر الثقافة الدينية لـدى البحـرينين، وكانت كثير مـن النـذورات تخـصص لقـراءة مـصائبهم وإحيـاء أمـرهم، أو تخصيص المال لمشهد من المـشاهد المـشرفة لكـي يُـصرف فـي مـصالحه، كأن ينفق على عمارته أو إنارته، أو لأداء أُجور خدمه والقائمين على حفظه وصيانته، أو ينفق على زواره الفقراء أو على ما فيه إحياء ذكره ونحو ذلك.

(٢)

شخصية السيدة الزهراء عليها السلام في الثقافة الشعبية البحرانية

يعكس الأدب الشعبي لكل شعب خلجاته النفسية واهتماماته الروحية، فالأدب الشعبي ينبع من الوعي واللاشعور الجمعي، ومن المعروف أن نشاط اللاشعور الجمعي كبير ومتشعب للغاية، وعنه تصدر الأفعال والتعبيرات الواعية التي لايمكن إدراك مغزاها إلا إذا بحثنا عن جذورها النفسية، والغوص عميقاً في استكناه الاهتمامات الروحية التي دفعته للظهور.

فالحكاية الشعبية واللغز والمثل الشعبي والنكتة، والأغنية والأهزوجة الشعبية، كلها أنواع أدبية شعبية، ولكنها ولاشك أشكال يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً جوهرياً، ولكل نوع من هذه الأنواع أشكال تعبير مختلفة ومجال وغرض ودافع مختلف[١]. وبالطبع فإن العادات والتقاليد

---

(١) أنظر: نبيلة ابراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.

البحرانية كغيرها من عادات وتقاليد الشعوب الأخرى تتأثر بعدة عوامل متداخلة منها التأثير الديني أو التمازج الحضاري.

ففي مجتمع مشبع بالروحانية والتعلق بالدين كمجتمع البحرين، كان للدين قوته الروحية في تشكيل ثقافة وأدب مخيال شعبي مرتبط الى حد كبير بالشخصيات الاسلامية، وقد ساهم تعلق أهل البحرين الروحي والعقائدي بالنبي وأهل البيت عليهم السلام في ظهور الكثير من الممارسات التي أخذت موقعها في الثقافة الشعبية للأهالي بعيداً عن الأطر العقائدية وتخومها النصيّة، بل أخذت العقلية الجمعية تبتكر وتبتدع بعفوية وسائل وممارسات جديدة كلياً من وحي تراثها الديني بما يلائم حاجاتها الروحية ويحقق له الطمأنينة واليقين في حياتها اليومية.

لقد كانت شخصية الزهراء مرتبطة بهوية هذا الشعب وثقافته، كشعب إرتباطاً وثيقاً مؤصلاً يظهر بين خفايا أدبيات هذا الشعب من عمق ذاكرته، ويمكن أن نتدرج في فهم هذه المظاهر من تراثنا من عدة نواحٍ وهي كالآتي:

أناشيد الزاجرة والغوص

كان أهالي البحرين يرددون الأناشيد الزاجرة وهي الأناشيد التي تُردد عند استخراج الماء من العيون بإستخدام الثيران عادة لري الزرع، وهي طريقة تقليدية موجودة من مئات السنين، وقد اعتاد أهل البحرين أن يلقوا نوعاً من الشعر أثناء استخراج الماء بالطريقة السابقة، بشكل إنشادي مميز،

ذكر الأديب محمد علي الناصري (ت ١٩٩٩) هذا النوع في بعض مؤلفاته، ولم تغب شخصية الزهراء عن الذكر أثناء الكدح والعمل ومنه على سبيل المثال قولهم:

البضعة الزهـرا علـي نالهـا والصخرة الصم عن بير العلم زالها

ومنه على سبيل المثال أيضاً قولهم:

أمس الضحى ريت ريمٍ يرتعي ياعلي ويصيح يابا الفضايل يا إمامي علي

يامظهر الدين بدروب الهدى ياعلي من حين ماعودت تبغي علي فاطمة

وربـت ومـن بعـد الربـا فاطمـة أم الحسن والحسين امفضّلة فاطمة

بنت الرسول المكرّم زوجتك ياعلي

كذلك هناك نوع آخر من المواويل المعروفة التي يرددها "النهّام"، حيث اشتهر عن غاصة البحرين سنة وشيعة في فن النهام الذي هو من أغاني البحر، ومن فنون النهامة الفن المعروف بـ"الفجري" الذي اشتهر به الغاصة من أهل السنة[١]، وعن النهام حسن بن صالح (الجوري) من منطقة رأس رمان تُنقل بعض الأبيات في هذا الإطار، والتي لا تخلو عادة من الإشارات والرموز الدينية منها ما يخص السيدة الزهراء عليها السلام وأهل البيت.

وتنقسم الأغنية الشعبية وفقاً للوظيفة التي تؤديها الى ثلاثة أقسام[٢]:

١- أغنيات المناسبات الاجتماعية.

٢- أغاني العمل.

(١) مي محمد الخليفة: محمد بن خليفة الاسطورة والتاريخ الموازي، ص ٤٩.

(٢) نبيلة ابراهيم: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص ٢٣٧.

٣- الموال.

وهذا التقسيم ينطوي على أهمية بالغة، فكل نوع من هذه الأنواع يؤدي من ناحية وظيفة محددة في حياة الشعب، كما أنه يسهم من ناحية أخرى في استجلاء الملامح الأساسية لبناء المجتمع الشعبي والشخصية الشعبية التي تعيش فيه.

فأغاني المناسبات الاجتماعية التي يُتغنى بها في كل مناسبة يحتفي بها المجتمع، مثل الزواج أو الختان أو الحج أو مواليد الأولياء وغيرها، لابد أن تخدم مناسبتها. ومعنى هذا أن أغاني الأفراح والختان تثير الإحساس بالسعادة والفرح، وأن الأغاني التي تنشد في مناسبات دينية تتمثل وظيفتها في إيقاظ القيم الدينية والإحساس الديني عند أفراد.

بينما تتثمل وظيفة أغاني العمل في حثّ الجماعة على العمل في إيقاع واحد، ولهذا قد تفتقد أغاني العمل "الوحدة الموضوعية"، ذلك أن فترة العمل قد تطول بحيث يضطر المغني إلى أن يضيف إلى الأغنية كل ما يطرأ على ذهنه من كلام ينساق مع لحن الأغنية، كما قد يستعين المغني بالموروث الديني وترديد قصائد تمجّد الشخصيات الدينية مدحاً أو رثاءً.

أما "الموال" في حياة المجتمعات العربية، فينقسم الى نوعين: "الموال الأخضر "و "الموال الأحمر". والموال الأخضر كما يبدو من تسميته يرتبط بالنضرة والحياة، أي الموال الذي يتغنى بالحب، أما الموال الأحمر فهو الموال الذي يبث فيه الإنسان لوعته وألمه، لا من الحب بل من خوفه على

ضياع القيم الأخلاقية[1]. وهنا يمكن القول أن الموال ينبّه المجتمع في الغالب إلى قيمة الأخلاقية الاصيلة التي يخشى أن تضيع في زحمة الإندفاع الحضاري وفي زحمة تكالب الناس على المكسب المادي حيث يمكن أن تختلق الأمور على الناس، فإذا هم يرفعون من قدر الرجل الغني ويحطون من شأن الفقير غير عابئين بمبدأ الأصالة.

دخول الزهراء في "أداء القسم"

من الأعراف القديمة المتوارثة لأهل البحرين ذكر أهل البيت عليهم السلام في أقسامهم، وهي ظاهرة انحسرت الى حد كبير بفعل الانفتاح المذهبي الذي شهده المجتمع البحريني في العقود الأخيرة وتزايد الوعي الديني، لكن هذه النوع من الأقسام لازال كبار السن من الرجال والنساء يمارسون كتقليد متوارث، كسلوك عفوي في إجراء صيغة القسم، فقد إعتاد البحرانيون على أداء القسم أو "الحَلف" بها، حيث تضمنت صيغة أداء القسم شخصية الزهراء عليها السلام، لما لها من مكانة مقدسة عند هذا الشعب، ومن هذه الأقسام الشائعة: وحرمة الزهراء، وحرمة أم الحسن والحسين، وحق فاطمة الزهراء، وحق ضلع الزهراء.. الخ. وكلها تدل على مدى الإرتباط بشخص السيدة الزهراء عليها السلام.

---

(١) نبيلة إبراهيم، المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

الزهراء في الألعاب الشعبية

مما يتناقله الأطفال من تراثهم الشعبي ومازال متداول، أثناء تقسيمهم أو عدهم لبعضهم وإخراج المقسوم بهذه الكلمات:

"الله، محمد، وعلي

يافاطمة بنت النبي

إخذي كتابش (كتابك) وانزلي

على محمد وعلي ..".

التسمي بأسماء السيدة الزهراء:

عن يونس بن ظبيان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: "لفاطمة تسعة أسماء عند الله عزّ وجل: فاطمة والصدّيقة والمباركة والطاهرة والزكيّة والراضية والمرضيّة والمحدّثة والزهراء"[(١)]. ومن الملاحظ أن ظاهرة التسمي بأسماء السيدة الزهراء لدى شعب البحرين ظاهرة موغلة في التاريخ، وتعد ظاهرة اجتماعية ملفتة. إذ لايوجد بيت من البيوتات البحرانية إلا و إسم : فاطمة، أو زهراء أو طاهرة، أو بتول، يتردد في جنابات المنزل، ولانحتاج الى عناية كبيرة لنصل الى قناعة بأن هذه الأسماء هي من أكثر الأسماء النسائية شيوعاً في أوساط المجتمع البحراني، وهو ما يدل دلالة واضحة على التعلق الواضح والولاء الكبير لأهل البيت عليهم السلام وللمكانة القدسية العظيمة للسيدة

---

(١) أمالي الصدوق :٤٧٤، ح ١٨، علل الشرائع : ١ / ١٧٨، الخصال : ٤١٤، ح ٣، روضة الواعظين : ١٧٩.

الزهراء في نفوس البحرانيين.

أعراف اجتماعية أخرى

ويمثل توديع الزائرين الى العتبات المقدسة حتى زمن متأخر أبرز العادات والتقاليد البحرانية، إذ يجتمع الأهل والصحب والجيران رجالاً ونساءً وأطفالاً لتوديع الزائرين المتوجهين الى كربلاء والنجف وخراسان والمدينة المنورة ويصحبونهم حتى "فرضة المنامة" مرسى العاصمة القديمة، وذلك في موكب حزين، حيث يتقدمهم شخص يحمل راية عالية، وهو يطلق صيحات الألم والحزن لمصاب آل البيت عليهم السلام والندم على عدم التوفيق لزيارة عتباتهم المقدسة مع أولئك الزائرين. ويعرف الشخص الذي يؤدي ذلك الدور بـ "الشاووش"(١).

كذلك يحظر أهل البيت عليهم السلام في أفراح المجتمع البحراني وأحزانه بصورة مكثفة، ففي الأعراس تقام الولائم، وفي الإحتفالات تنشد الجلوات، وهي عبارة عن أهازيج خاصة بالمناسبة، وتغلب عليها اللغة الفصحى البسيطة، وفيها إشادات بصفات الرسول صلى الله عليه وآله، وآله الاطهار، ولهذه الجلوات أشخاص متخصصون بالإنشاد، أما جماهير الناس فيرددون معهم بعفوية وحماس.

أما في التعازي، فإن سيرة أهل البيت عليهم السلام تكون حاضرة بصورة أوضح وأكثر جلاءً، فذكر ما كابدوه عليهم السلام من فجائع ومآسٍ يمثل خير عزاء

---

(١) النويدري: مصدر سابق، ج ١ ص ٥٤.

وسلوان لأهل الفقيد وذويه، فقد جرى التقليد المتبع أن الفقيد إذا ما كان رجلاً كبيراً ذُكرت مصيبة الحسين عليه السلام ومصرعه في كربلاء، وإن كان كهلاً روي مصرع العباس بن علي عليه السلام، وإن كان يافعاً ذُكر استشهاد علي الأكبر أو القاسم بن الحسن، أما إذا كانت الفقيدة إمرأة فيتم الإشارة إلى مصاب السيدة الزهراء عليها السلام وشهادتها.

وهكذا نرى أن سيرة أهل بيت النبي عليهم السلام حاضرة في مفاصل عديدة من حياة الناس والمجتمع، في الأفراح والأتراح، وفي الأعراف والتقاليد المتوارثة، وتتجسد هذه الحقيقة في الكثير من الممارسات الاجتماعية والحياة الشعبية في هذا البقعة التي عُرفت بولائها المبكر لأهل البيت.

(٣)

السيدة الزهراء عليها السلام في تراث أهل البحرين النثري

لقد كتب بعض علماء الشيعة الأقدمين في سيرة أهل البيت عليهم السلام وتاريخ حياتهم كالشيخ المفيد (٣٣٦- ٤١٣هـ) في كتابه (الإرشاد في معركة حجج الله على العباد)، والشيخ الصدوق (٣٠٦- ٣٨١هـ) في (عيون أخبار الرضا عليه السلام)، لكن الاهتمام بهذا الجانب لم يتواصل من قبل كبار العلماء في العصور اللاحقة إلا نادراً كالجهد الموسوعي الذي قام به الشيخ المجلسي (١٠٣٧- ١١١١هـ) في (بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار) .

ويشير المحقق السيد عبدالعزيز الطباطبائي (ت ١٩٩٥) الى ظاهرة ضخامة التراث المكتوب عن أهل البيت بقوله :".. وربما يستكثر القارئ عند ما يرى مئات الكتب المؤلّفة في أهل البيت، مع شدة المحنة ومعارضة الحكم القائم في أغلب أطوار التأريخ لنشر فضائلهم: وإذاعة علومهم، بل قد حُرّم في بعض الأحيان ذكرهم، والناس على دين ملوكهم.

فكان المحدّث يتحاشى ذكرهم حتى أن بعض المحدّثين يعبّر عن

علي عليه السلام بأبي زينب، فيقول: حدّثنا أبو زينب ...

ولكن ما كان لله ينمو ، ويريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ...

فشاع وذاع من الأخبار عنهم: ومن الشهادات في فضلهم والاعتراف بأحقّيّتهم كما قال أحمد بن حنبل في علي عليه السلام: كتم أصحابه فضله خوفا، وكتمه أعداؤه حسدا، حتى شاع من بين ذا وذاك ما طبّق الخافقين"[1].

ولقد أنجز الباحث العراقي الشيخ عبد الجبار الرفاعي، موسوعة استقصى فيها عناوين المؤلفات والبحوث التي كتبت عن أهل البيت عليهم السلام، عبر أربعة قرنا، قائمة "بيلوغرافيا" تحت عنوان (معجم ماكتب عن الرسول وأهل البيت) [2] طبعت في اثنى عشر مجلدا، وكشفت عن الأرقام التالية لعدد الكتب والمقالات عن كل واحد منهم:

عن فاطمة الزهراء عليها السلام	٥٤٦
عن الإمام علي عليه السلام	٤٩٥٦
عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام	٢٠٥
عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام	٣٢١٥

(١) عبدالعزيز الطباطبائي: أهل البيت في المكتبة العربية، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ص ١٠.

(٢) عبد الجبار الرفاعي: معجم ماكتب عن الرسول وأهل البيت، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ ش، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.

عن الإمام السجاد عليه السلام	٣٩٩
عن الإمام الباقر عليه السلام	٦٩
عن الإمام الصادق عليه السلام	٣٣١
عن الإمام الكاظم عليه السلام	٢١١
عن الإمام الرضا عليه السلام	٦٥١
عن الإمام الجواد عليه السلام	٦٢
عن الإمام الهادي عليه السلام	٧٩
عن الإمام العسكري عليه السلام	٦٦
عن الإمام المهدي عليه السلام	١١٤٥

هذا من ناحية الكتابات أما من ناحية المستوى والنوعية فإن قسما كبيراً من هذه الكتابات لا تتصف بالعمق العلمي، والتحليل الجاد، لسيرة أهل البيت وآرائهم ومواقفهم، بل يغلب عليها السرد التاريخي أو الطرح العاطفي بذكر الفضائل والمصائب.

إن جوانب أساسية كثيرة من سيرة أهل البيت وتراثهم لا تزال مجهولة، ولم تسلط عليها الأضواء الكافية من البحث والتحقيق، لقد اهتم فقهاء الشيعة بدراسة وتمحيص ماورد عن أهل البيت عليهم السلام فيما يرتبط بالمسألة الفقهية، أما سائر الجوانب فلم تحظ بالأهتمام المطلوب.

وقل أن تجد دراسة تاريخية ضمن قواعد البحث العلمي عن حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام والظروف الاجتماعية التي عاصروها، مع ما لذلك من أهمية بالغة لمعرفة آرائهم ومواقفهم، والتي لا يمكن فهمها بالشكل

الصحيح إلا ضمن سياقها الاجتماعي، ومعرفة الملابسات والظروف المحيطة.

وقد خص علماء البحرين وأدبائها وشعراءها بنتاج فكري وأدبي وفير، وكتبوا عن الأئمة المعصومين أدباً بالغ القيمة يُعد من ذخائر التراث الإسلامي على المستوى النثري والشعري، منهم على سبيل المثال الشيخ راشد بن إبراهيم بن إسحق الجزيري البحراني (ت ٥٠٦ هـ / ١١١٢م) من أعلام القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي الذي وضع مصنفه (مختصر في تعريف أحوال سادة الأنام محمد والائمة الاثني عشر الامام) ويعد كتاب الشيخ الجزيري البحراني من أقدم المصادر التاريخية لعلماء البحرين.

وبالطبع كان لشخصية السيدة الزهراء القدح المعلى والنصيب الأوفى من هذا الاهتمام.

وتتخذ أشكال المقاربة النثرية لشخصية السيدة الزهراء عليها السلام عند علماء وأدباء البحرين شكلين أساسيين، الأول: يتمثل في شرح وتحليل نصوص خطب السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، والشكل الثاني هو تأريخ سيرتها واستشهادها عليها السلام.

شرح التراث الفاطمي

واستعرض هنا أنموذجين لعالمين من علماء البحرين المبرزين، وهما:

١- الشيخ يوسف بن أحمد العصفور (ت ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م) من

علماء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، حيث قام بشرح الخطبة الفاطمية، وشرحه عليها موجز ولم يفرد له المؤلف عنواناً مستقلاً بل جاء ضمن كتابه "سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد"، قال عنه مؤلفه: "والرد عليه في شرحه لكتاب نهج البلاغة، الذي رام فيه أن يشرحه على رأي المعتزلة، وأصولهم ومذاهبهم وقواعدهم، وذكرت في أوله مقدمة شافية في الإمامة تصلح أن تكون كتاباً مستقلاً، ثم نقلت من كلامه في الشرح المذكور مايتعلق بالإمامة وأحوال الخلفاء والصحابة ومما يناسب ذلك ويدخل تحته، وبينت مافيه من الخلل والمفاسد الظاهرة لكل طالب وقاصد ..."[(١)] كما في اللؤلؤة، وقد قام أحد الباحثين البحرانيين وهو الشيخ محمد عيسى المكباس[(٢)] بتحقيق وطبع شرحه على خطبة الزهراء مستقلاً.

٢ - الشيخ عبد الله بن نورالدين أو نور الله البحراني، من علماء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، فقد أفرد في موسوعته القيمة (العوالم) ماخصصه لسيدة النساء، وتصل موسوعته هذه لأكثر من مائة مجلد، جمع فيها ما وجد عنه من الاخبار الواردة عن موالينا الاطهار، وهو تلامذة العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م)[(٣)] وله الرواية

(١) يوسف بن أحمد آل عصفور: لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم الحديث، ص٤٤٧.

(٢) يوسف بن أحمد آل عصفور البحراني (٢٠٠٦): الدرة الغرّاء في شرح خطبة الزهراء، تحقيق محمد عيسى ال مكباس، دار العصمة، المنامة.

(٣) محمد علي التاجر: منتظم الدرين في تراجم علماء وأدباء الاحساء والقطيف ←

عنه وكان من جملة من أعانه على تأليف كتابه بحار الانوار، وكتابه الموسوعي العوالم يتضمن أحاديث الزهراء وأحوالها.

في شهادة السيدة الزهراء عليها السلام

لقد دأب أعلام البحرين على تأليف الكتب حول النبي والأئمة عليهم السلام، مما كان له أبلغ الأثر في تثبيت عقيدة الولاء لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وسنستعرض في هذه الفقرة جملة من المؤلفات التي وضعها علماء البحرين في التعريف بهذه الشخصية ذات المكانة العالية في الإسلام، فمن بين من صنف حول شخصية الزهراء من علماء البحرين عبر العصور :

١- الشيخ سلمان بن عبدالله آل عصفور (توفي بعد ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥م) الذي وضع كتاب (مصارع الشهداء ومقاتل السعداء) وانتهى من تصنيفه عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥م، كما وضع كتاب (الرزايا) وكتاب (وفاة أمير المؤمنين) عليه السلام.

و"مصارع الشهداء ومقاتل السعداء" للشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ حسين آل عصفور البحراني"[1] استعرض فيه المصنف مقاتل النبي صلى الله عليه وآله والسيدة الزهراء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

قال المصنف في المقدمة بعد كلام له: "إن الشوق قيّد أقدامي

➔

والبحرين، ج ٢ ص ٤٤٤ — ٤٤٥.

(١) الذريعة الى تصانيف الشيعة، ٢١ / ٩٨.

والحب قد ملك زمامي، والولي قد قادني، والبرّ قد ساقني، الى اقتحام مضمار لست من فرسانه، وولوج عرين ما كنت من أقرانه، والدخول في جملة قومٍ أنا أقل منهم، طمعا مني في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من تشبه بقوم فهو منهم.. وذلك لما رأيت جملة من الشيعة المؤمنين، وجمهور الهداة في الدين، مكبين على إقامة فنون العزاء، على مصاب سيد الشهداء، والأئمة الأتقياء السعداء.

غير أن أكثر مصنفيهم من العرب، وجل مؤلفيهم من ذوي الرتب، قد سلكوا في نظم المراثي نهجاً واضحاً، ونهجوا مسلكاً ملحوباً لائحاً، وأما علماء العجم وفضلاؤهم من أصحاب العلم، فتفرقوا في التصنيف، واختلفوا في التأليف، فمنهم من أطال في المراثي إطنابه، حتى غدى كتابه مثل ديوان الصبابة، فألجأه ضيق المأخذ وطول المساحة إلى الركون لكلمات المؤرخين، وخرافات السالفين، ومنهم من ضيّق رحيب مضماره لشدة اختصاره، وكلاهما لم يصب سهمه الغرض، ولا قام بما إليه نهض.

لكن لما كان مطلبهم الأقصى التقرب لاولئك الكرماء، والوقوف على أرباب العطاء، صوّبت آراءهم في منهجم، وشكرتهم على بذل مهجتهم، ولكل ضيف قرى ولكل عمل كرى.

وهناك دار في قلبي وارتسم بلوح لبي، جمع كتاب وجيز، يزري بعسجد نظمه سبائل الذهب الابريز، وأن أسميه بـ "مصارع الشهداء ومقاتل السعداء" جاعلاً لكل معصوم مقتلاً، مبتدئاً بالنبي المصطفى، مثنياً بفاطمة الزهراء، خاتماً بصاحب العصر والزمان، وخليفة ربنا الملك الديان في هذه

الأزمان.."[1].

وكتاب (الرزايا) كما يقول الشيخ بزرك الطهراني "مقتل في حجم منتخب الطريحي، رأيته عند الشيخ خلف آل عصفور البوشهري المتوفي سنة ١٣٥٣ ه (١٩٣٤م)" وكتاب (منتخب الطريحي) هو للمصنف الشهير الشيخ فخر الدين الطريحي النجفي (ت ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤م) وكتابه المنتخب في جمع المراثي والخطب، ويشتهر أيضاً بالفخري.

١- الشيخ يحيى بن حسين بن عشيرة البحراني: و هو من فقهاء القرن العاشر الهجري وكان له دور ريادي في حركة مرجعية المحقق علي بن حسين الكركي (ت ٩٣٧ هـ / ١٥٣١م) إبان الدولة الصفوية، ويظهر هذا من لقبه "المفتي"، له كتاب (وفاة الزهراء) ذكره الشيخ بزرك الطهراني في (الذريعة الى تصانيف الشيعة)، وذكره الأفندي في (رياض العلماء وحياض الفضلاء) إلاّ أنه ذكر أن من مؤلفاته (كتاب مقتل فاطمة عليها السلام)، ولم يتعرض لذكره الشيخ علي بن حسن البلادي في (أنوار البدرين) لأن ترجمته كانت مقتضبة.

٢- العلامة المحدث السيد هاشم بن السيد سليمان بن السيد إسماعيل التوبلاني البحراني (ت ١١٠٩هـ / ١٦٩٦م)، له كتاب (وفاة الزهراء) وقد وصف هذا الكتاب المحقق الشيخ محمد باقر الكجوري في

---

(١) سليمان بن عبدالله ال عصفور: مصارع الشهداء ومقاتل السعداء، تحقيق علي آل كوثر، مجمع إحياء الثقافة الاسلامية، ص ١٦.

كتابه (الخصائص الفاطمية) بقوله: "فيه مجموعة من الأخبار المفجعة المبكية"، ذكره السيد محسن الأمين في الأعيان[١]، وآغا بزرك في الذريعة[٢] لدى تعديدهما لمؤلفات السيد هاشم. ووثقه الشيخ عباس القمي في الفوائد الرضوية[٣].

٣- العلامة السيد ماجد البحراني، فبحسب مانقله فارس تبريزيان في كتابه (العلامة السيد هاشم البحراني) ضمن حديثه عن تراث السيد هاشم، أشار الى نسخة من مخطوط كتاب عن وفاة الزهراء الموجودة في مكتبة جامعة طهران (مجموعة مشكاة، ذكر في فهرس المكتبة: ٥ /١٢٤١ بأنها وفاة الزهراء للسيد هاشم) وعلق: وبعد مراجعة المخطوطة في المكتبة تبين أنها ليست للسيد هاشم البحراني، والظاهر أنها للسيد ماجد البحراني"[٤].

ولابد من الاشارة الى تردد إسم السيد ماجد البحراني بين شخصيتين؛ الاول : سيد ماجد ابن السيد محمد آل أبي شبانة، عالم جليل القدر وكان قاضيا بشيراز ثم بأصفهان وكان شاعرا أديبا له (شرح نهج البلاغة) بالفارسية، وكان معاصراً للحر العاملي (ت ١١٠٤هـ / ١٦٩٣م) ـ والشخصية

---

(١) أعيان الشيعة: ج ١٠ ص ٢٥٠.

(٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج ٢٥ ص ١١٩.

(٣) عباس القمي: الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذهب الجعفرية، ج ٢ ص ١٠٧٤.

(٤) فارس تبريزيان: العلامة السيد هاشم البحراني، ص ١٦٨.

الثانية هو السيد ماجد بن هاشم الجدحفصي (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٨م)، أول من نشر علم الحديث في دار العلم شيراز وكان له مع علمائها مجالس عديدة ومقامات مشهورة[١].

٤- الشيخ حسين آل عصفور البحراني (ت ١٢١٦هـ / ١٨٠١م)

له كتاب (الدرة الغراء في وفاة الزهراء)[٢] في بدايته : [الحمد لله ابتلى أولياءه في هذه الدار بأجل المصائب والأخطار ...] له بعض المخطوطات في أماكن متفرقة تاريخ نسخ بعضها في ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م ونسخة أخرى مخطوطة في ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م، وقد ذكرها في أنوار البدرين و الأمين في الأعيان في تعدادهما لمؤلفات الشيخ حسين، ولكن أسمياه (الدرة الغراء في وفاة الزهراء) ولكنني لم أجد هذه التسمية في المخطوط على عادة الشيخ حسين في تسمية مؤلفاته في مقدمات الكتب التي ألفها . وذكر الكتاب بنفس المسمى في فهرست مكتبة آل عصفور في بوشهر . جاء ضمن الكلام عنه: [فرغ من تأليفه في شهر ذي الحجة سنة ١٢١١هـ الناسخ عبد النبي بن حسين بن عبدالله الأصبعي البحراني بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٢هـ أوله: "الحمد لله الذي ابتلى أوليائه في هذه الدار بأجل المصائب ولأخطار..." ق٢١عليه السلام٥،١٤سم، ١٥س، الاستفادة وسط "][٣].

---

(١) أنظر: جعفر المهاجر: أعلام الشيعة، ج ٣ ص ١١١٩.

(٢) الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج ٨ ص ١٠٤.

(٣) حبيب آل جميع وزميله: فهرس مخطوطات مكتبة آل عصفور، ص ٨٧.

٥- العلامة الشيخ علي بن الشيخ حسين بن محمد البلادي البحراني المذكور في أنوار البدرين ووصف الكتاب بأنه ينقل عن أسفار الدمستاني قال عنه مانصّه : "العالم الأديب الكامل الشيخ علي ابن الشيخ حسين ابن الشيخ محمد البلادي البحراني، كان فاضلاً أديباً كاملاً، له كتاب (وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام) مجلد حسن الترتيب والتأليف وله فيها بعض الأشعار وينقل فيها كثيراً من أسفار الدمستاني، ولم أقف على شيء من أحواله ولا تأريخ وفاته ضاعف الله حسناته"(١). وهذا المصنف متداول في الكثير من مجالس التعزية، و قد طبع أكثر من مرة. وله فيه إنشاءات وأشعار جيدة، إلا أنها تخلو من ذكر تاريخ وفاته أو الفراغ من تصنيف.

٦- العلامة الشيخ سلمان بن الشيخ أحمد بن ال عصفور، من ذرية الشيخ أحمد أخ الشيخ حسين العلامة، عاش في البحرين، وكان والده فقيهاً وإماما في الجمعة والجماعة وزعيماً عاش في الشاخورة وسكن المنامة ودفن في الشاخورة بجوار ضريح الشيخ حسين آل عصفور (١٣٠٩هـ). له من المؤلفات منها (وفاة الزهراء عليها السلام) وهو مخطوط. وأما تلامذته وهو أستاذ الأديب الشيخ سلمان التاجر (ت ١٩٢٥) الشاعر المعروف، وقد رثى أستاذه بقصيدة نقلها الشيخ حسين بن علي البلادي (ت ١٩٦٧) صاحب (رياض المدح والرثاء) مدحه فيها وأثنى عليه غاية الثناء، كانت وفاته كما في (منتظم الدرين) في العراق، ويذكر أفراد عائلته أنه

(١) علي بن حسن البلادي: أنوار البدرين، ص ١٩٤.

توفي في النجف ودفن فيها وكانت وفاته في ١٣٣٨هـ الموافق ١٩١٩م ولم يكن قد بلغ الأربعين من العمر [1].

٧- العلامة الشيخ علي بن الشيخ حسن البلادي (ت ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م)، صاحب (أنوار البدرين)، له كتاب (وفاة الزهراء)، وقد طبع في النجف الأشرف.

٨- المرحوم الخطيب الشيخ محمد علي الناصري محمد علي الناصري (ت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) الذي وضع كتاب (قصة الزهراء) عُدت ضمن المطبوع من تراثه رحمه الله.

٩- العلامة الخطيب السيد محمد صالح ابن السيد عدنان القاروني البحراني (ت ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م)[2]، له كتاب (ليلة الإسراء في فاطمة الزهراء) يشمل أحوالها ووفاتها صلوات الله عليها وقد طبع مؤخراً ضمن مجموعته في وفيات المعصومين، وهو جمع روايات ولا يخلو من بعض التحقيقات بحسب ذوقه، وله مصنف آخر ضمن كتاب طبع أيضاً تضمن (وفاة الزهراء) ضمن مجموعة وفيات، وله أيضاً كتاب (رياض الإمامة في سيرة فاطمة الزهراء).

---

(١) أعلام الثقافة الاسلامية ج٢ ص ٦٣٧، ماضي البحرين وحاضرها: ٩٠، أنوار البدرين ٢١٥.

(٢) ولد هذا السيد الجليل في الخامس من ربيع الأوّل سنة ١٣٣٩هـ الموافق ٢٩ نوفمبر من العام ١٩١٩م في قرية البلاد القديم. أبوه القاضي المعروف السيد عدنان بن علوي بن علي بن عبدالجبار الثالث القاروني الموسوي.

وهكذا، نرى أن السيدة الزهراء عليها السلام حظيت باهتمام علماء البحرين وأدباءها، وحفلت مصنفاتهم بذكر أهل البيت عليهم السلام مدفوعين في ذلك بولائهم العميق واحساسهم العالي بواجب التصدي لنشر فضائل أهل البيت، وإحياء أمرهم سواءً كان ذلك من خلال تصنيف الكتب، أو خلال العمل على ترسيخ ظاهرة الإحياء الشعائري أو من خلال تخصيص الأوقاف الشرعية التي تعمل على تدعيم حركة الوعي التاريخي بمسيرتهم عليهم السلام.

لقد آن الأوان للنهوض بالتراث العلمي المخطوط لعلماء البحرين الذي لايزال الكثير منه ينتظر من ينتشله من الخزائن المظلمة، ومن أرفف المكتبات القديمة، ونرى ضرورة تحمل هذا الدور المهم وأن تتباه مؤسسات علمية قادرة على التحرك وفق استراتيجيات وخطط مدروسة تستهدف العناية بهذا التراث الذي لايزال المشتغلين به أسرى للرؤى الارتجالية والطموحات الخاصة التي تتعثر في ظل غياب الامكانات المادية والبشرية الكفيلة بالنهوض بهذا الدور على أكمل وجه، من هنا نشيد بالدور الذي يقوم به مركز الإمام الحسين عليه السلام للدراسات والبحوث التابع للمجلس الإسلامي العلمائي في البحرين، والذي أصدر ضمن باكورة إصداراته الجزء الأول من (البيبليوغرافيا الحسينية البحرينية) التي ضمت محصلة التراث الحسيني البحريني المطبوع من عام ١٨٨٧ حتى عام ١٠١٢ أي ما يقارب قرن وربع من الزمان[١]. ويهدف مشروع المركزالحسيني الى:

---

(١) محمد حميد السلمان وآخرون: البيبليوجرافيا الحسينية البحرينية، ص ٧.

١- الحافظ على التراث الحسيني البحريني بجمعه تحت مظلة المركز لفائدة الباحثين والدارسين والجمهور.

٢- رصد وتوثيق كافة الفعاليات الحسينية في الساحة البحرينية السابقة والحالية والمستقبلية عن تطرق إصدار ببيلوجرافيا حسينية كل خمس سنوات لتوثيق كل الفعاليات والإصدارات التي تدخل ضمن سياق تخصص المركز، وإصدار موسوعة في عدة أجزاء بإسم (موسوعة المركز) تحوي كافة النشاطات الثقافية الحسينية السابقة على إنشاء المركز.

٣- إثراء الساحة بالدراسات الحسينية المتعمقة بعدة لغات، وتحديث الرؤى للحركة الحسينية على مر العصور، وذلك عن طريق إعدادا وتأهيل باحثين ومتخصصين في الدراسات الحسينية. والعمل على عقد الملتقيات والمؤتمرات المتخصصة في معالجة قضايا التراث الحسيني العلمي والروحي.

٤- متابعة وتقييم الفعاليات الحسينية وصولاً لوضع أكثر تخطيطاً و منهجية لعرض التراث الحسيني بشكل حضاري إنساني متطور.

٥- العمل على احتضان أي إبداع علمي، من أجل الحفاظ على التراث الحسيني بصيغته العلمية والروحية.

٦- تكوين نواة لمرجعية علمية بإنشاء مكتبة المركز خدمة للعلماء والباحثين.

إننا نرى أن إنشاء هذا المركز يعد خطوة واعدة وشجاعة، ونتطلع الى إنشاء العديد من المراكز المماثلة التي تغطي جوانب أكبر من تاريخ

الإسلام وأهل البيت عليهم السلام، في وقت صار لزاماً على المسلمين أن يؤدوا دورهم ومسئولتهم في إبراز الوجه الحضاري المتسامح والعقلاني للاسلام.

وينبغي في ختام هذا المحور أن نؤكد أنه ورغم الجهود المشكورة التي قام بها العلماء السابقون في جمع ما ورد عنهم من أحاديث و روايات، إلا أنها بحاجة بعد تمحيص أسانيدها الى دراسة و تحليل، من قبل أصحاب التخصصات المختلفة، وعلى ضوء التجارب العلمية المتقدمة في كل اختصاص، لنتعرف على ما قدمه أهل البيت عليهم السلام للبشرية من آراء وأفكار في مختلف المجالات والميادين.

إن تعرف العالم المعاصر على أهل البيت يستلزم تقديم سيرتهم وتراثهم بلغات العالم الحية، اللغات الرسمية لحقول العلوم والتكنلوجية والمعرفة العالمية، كالأنجليزية والفرنسية والألمانية واليابانية وغيرها.

وهنا يظهر العجز الشديد والقصور الواضح، فما هو متوفر من الكتابات عن حياتهم وتراثهم ينحصر في اللغة العربية والفارسية.

وقد أشار المحقق الشيخ جعفر السبحاني الى بعض هذه الجوانب من القصور والتقصير في عرض سيرة أهل البيت وتراثهم، نقتطف من كلامه الفقرة الآتية:

"يجب أن نؤكد بأن حياة الأئمة والأولياء الإلهيين شأنها شأن عالم الطبيعة، فيه جوانب عديدة مهما أكتشفت وكتب عنها، فستظل هناك جوانب مجهولة تحتاج لمن يكتشفها ويميط لثام الغموض عنها .

وفضلاً عن ذلك إن أكثر ما كتب حول الأئمة ينحصر في تجميع فضائلهم ومناقبهم ومعجزاتهم، وبالتالي في نقل أحداث حياتهم بصورة

جافة بعيدة كل البعد عن التحليل، ثـم إن الكتـب التحليليـة التـي يمكـن أن تلبي رغبات الباحثين والمحققين المعاصرين قليلـة جـدا، وإن بعـضا منهـا لا يتمتع من ناحية طريقة كتابتها وبيانها بالمستوى المطلوب. هذا ومن المؤكـد إنه قد ألف وكتـب عـن بعـض الأئمـة مثـل أميـر المـؤمنين وسـيد الـشهداء الحسين بن علي باللغة العربية، وربما الفارسية، بما فيه الكفاية، غير أن هنـاك فراغـا كبيـرا للكتـب التحليليـة العميقـة والجامعـة فيمـا يتعلـق ببقيـة الأئمـة وحياتهم ويجب – للأسف – الإعتراف بهذه الحقيقة المرة، وهي إنـه لـيس الناس العاديون هم الذين يجهلون حياة الإمـام الجـواد أو الإمـام الهـادي أو الإمام العـسكري عليهم السلام، الـسياسية والأخلاقيـة والعلميـة فقـط، بـل إن أغلـب الخطباء والكتاب يفتقدون المعرفة الكافية بهم أيضاً.

وثانياً: إن نوع الحياة التي كانوا يعيـشونها، وكيفيـة مـواقفهم الـسياسية الاجتماعية يكون واضحاً أكثر عنـدما نلـم بظـروفهم الاجتماعيـة والـسياسية والثقافية الخاصة التي يعيشون فيهـا، وذلـك أننـا نعـرف بـأن الأئمـة الأطهـار كـانوا يقيمـون طريقـة حيـاتهم الاجتماعيـة، ومـواقفهم الـسياسية، وطبيعـة نضالهم، على أساس من المحاسبات الدقيقة للظروف والأوضاع السائدة في عـصرهم، وتقيـيم الإمكانـات والمقتـضيات والموانـع، وتناسـباً مـع نـوع المواجهـة مـع أعـداء الإسـلام. وعليـه مـا دمنـا لـم نتعـرف علـى الأوضـاع والظروف الخاصة التي كانوا يعيشون فيها آنذاك، فلن يكـون لـسيرة الأئمـة وحياتهم أي مفهوم ومعنى دقيق وواقعي". [١]

---

(١) مهدي البيشوائي: سيرة الأئمـة علـيهم الـسلام، ص٢٣، الطبعـة الأولـى ١٤٢٣هـ، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم.

(٤)

السيدة الزهراء عليها السلام في تراث أهل البحرين الشعري

وردت بعض المأثورات الدينية التي تحث على إنشاد الشعر في أهل البيت عليهم السلام في تهانيهم وتعازيهم، فقد ورد على عن أبي عبدالله:"من قال فينا بيت شعر بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة"[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال:"ما قال فينا قائل بيتاً من الشعر حتى يُؤيد بروح القدس". [2]

ولقد تراكم العطاء الأدبي والشعري عبر العصور الذي اتخذ من مدح ورثاء أهل البيت موضوعاً حيوياً صاغ جانباً كبيراً من نفسية الأمة وشكل وعيها العقائدي.

ولقد عُرف أهل البحرين بالفصاحة والبيان، كما وصفهم معاوية بن

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١ / ٤.

(٢) المصدر نفسه، ١ / ٤.

أبي سفيان بأنهم "مخاريق الكلام"[(١)] وقد وظفوا ذلك البيان لنشر فضال آل البيت عليهم السلام، والتأكيد على أحقيتهم في رعاية أمور الأمة، ومن أبرزهم، بشر بن منفذ الشاعر الكبير المعروف بـ(الأعور الشني)، فله في الإمام علي عليه السلام مدائح.

وفي عصر الامام جعفر الصادق عليه السلام نبغ شاعر بحراني من العبديين، أرغ جهده في نظم مناقب آل البيت عليهم السلام والإعراب عن خالص ولائه لهم، حتى قال الإمام الصادق لشيعته "علموا أولادكم شعر العبدي فإنه على دين الله" ذلك هو سفيان بن مصعب العبدي[(٢)].

وسنحاول هنا الوقوف على إسهام شعراء وأدباء البحرين في مدح ورثاء السيدة الزهراء عليها السلام، وذلك عبر تقسيم التراث الشعري الى عطاء شعري فصيح، وعطاء شعري صيغ باللهجة الدارجة.

التراث الشعري الفصيح:

شكل الرثاء أحد سمات الشعر العربي، وقد قاله العرب في جاهليتهم للتعزية وهم يتحاضون عند المصيبة على الصبر حزما وحلما ومروءة، وقاله شعراء العرب في الإسلام وهم يتحاضون على الصبر رضاء بقضاء الله وقدره

---

(١) ابن حجر: الاصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، د . ت، ج ٧، ص ١٠١.

(٢) محمد بحر العلوم: رجال السيد بحر العلوم، مكتبة الصادق، طهران، ط ١، ج ٢، ص٩٢.

طلبا لما وعد الله الصابرين من حسن الثواب.

ويذكر المبرد أن هناك تعازي ومراثي لكبار شعراء الجاهلية والمخضرمين من أمثال متمم بن نويرة، ودريد بن الصمة، وكعب بن سعد الغنوي، وأعشى باهلة، وأوس بن حجر وغيرهم، ومن النساء ليلى الأخيلية، والخنساء. وهناك تعاز ومراثٍ لشعراء آخرين أمثال مسلم بن الوليد، وإبراهيم بن المهدي، وأبي العتاهية، والبعلي، وأبن أبي حفصة، وغيرهم مما جادت به القريحة المكلومة، كما أن حسان بن ثابت كانت له قصائد يرثي بها القادة الثلاثة الذين استشهدوا في غزوة مؤنة.

لقد عرفت البحرين على امتداد تاريخها في العصر الجاهلي والإسلامي والحديث بوجود شعراء لهم تعاز ومراث متباينة، البعض منها جاء على شكل أبيات محدودة، والبعض الآخر جاء على شكل قصائد طويلة، ففي العصر الجاهلي رثت خرنق أخيها طرفة بن العبد الذي مات وهو في ريعان شبابه قائلة:

عددنا له ستة وعشرين حجـــة	فلما توفاها استوى سيدا ضخما
فجعنا به لما رجونا إيـابـــه	على خير حال لا وليدا ولا قحما[1]

(١) أنظر: ديوان طرفه بن العبد: شرح الأعلم الشنتمري، إدارة الثقافة والفنون، البحرين، وأيضاً: ديوان الخرنق: تحقيق حسين نصار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.

وفي أوائل العصر الإسلامي رثى صعصة بن صوحان علي بن أبي طالب عليه السلام قائلاً:

بكيتك ياعلي بدر عيني فلم يغني البكاء عليك شيئا
كفى حزنا بدفنك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظاة وأنت اليوم أوعظ منك حيا[1]

ولقد كان رثاء شعراء القرن الحادي عشر الهجري في البحرين شبيه برثاء شعراء العصر الجاهلي والإسلامي من حيث النمطية واختيار الكلمات وجزالة الألفاظ، ومن بين شعراء ذلك القرن أبو البحر جعفر بن محمد الخطي (ت ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م)، الذي كتب العديد من قصائد الرثاء مبثوثة في ديوانه الذي خضع لاكثر من عمل تحقيقي، أبرزه تحقيق الاستاذ عدنان السيد محمد العوامي.

تطورت المراثي إلى أن وصلت أوجها على شكل ملحمة كما هو الحال في ملحمة (أحرم الحجاج) وهي ملحمة خاصة بموقعة كربلاء ومقتل الحسين بن علي عليه السلام، من تأليف الشيخ حسن الدمستاني (ت ١٢٨١هـ/ ١٨٦١م)، ويبلغ عدد أبياتها ١٤٢ بيتاً.

وقد امتازت القصيدة بصدق العاطفة وقوة التعبير، كما امتازت بقوة

(١) أنظر : بحار الأنوار، ج ٤٢ ص ٢٤٢، المناقب، ج ٣ ص ٣١٤ فصل مقتله، أعيان الشيعة، ج٧ ص ٣٨٨، روضة الواعظين عن الامام الصادق (ع)، الدر النظيم، لابن حاتم العاملي، موسوعة شهادة المعصومين.

الألفاظ وجزالتها، وتأثر المحسنات البديعية والصور البيانية، وفي ذلك يذكر الدكتور عبد علي حبيل الذي شرح وعلق على هذه الملحمة قائلا :" وأستطيع القول لو لم يكن للدمستاني غير هذه الملحمة لكفى. وهي قصيدة مربعة يتألف كل مقطع منها من أربعة أبيات، ينتهي كل بيت من أبياتها الثلاثة الأولى بقافية وينتهي البيت الرابع بقافية القصيدة."

يقول الدمستاني في هذه الملحمة:

أحرم الحجاج عن لذاتهم بعض الشهور	وأنا المحرم عن لذاته كل الدهور
كيف لا أحرم دأباً ناحراً هدي السرور	وأنا في مشعر الحزن على رزء الحسين
حق للشارب من زمزم حب المصطفى	أن يرى حق بنيه حرماً معتكفا
ويواسيهم وإلاّ حاد عن باب الصفا	وهو من أكبر حوب عند رب الحرمين

ويلاحظ أن شعر الرثاء في البحرين بدأ بالفصحى منذ العصر الجاهلي والإسلامي وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت هناك قصائد قصيرة وأخرى طويلة. أما الظاهرة الجديدة في القرن العشرين هي بروز دواوين الرثاء التي تجمع الشعر العامي والفصيح لدرجة أنه يصعب فرز هذه الدواوين وتصنيفها في خانة الشعر العمودي أو الشعر العامي، مما حدا بنا إلى تخصيص هذه المساحة من الكتاب لشعر الرثاء منفردا. ومما شجعنا على فصله عن بقية أنواع الشعر كثرة الدواوين الصادرة منه والتي بلغت ٥٠ ديواناً، خصصت جميعها لرثاء الرسول وأهل بيته عليهم السلام.

ويتقدم شعراء البحرين في شعر الرثاء الفاطمي الشيخ سلمان التاجر (ت ١٩٢٥) بقصيدته التي لم تزل تتردد في المحافل عند ذكرى استشهاد مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وهي القصيدة المشهورة والتي مطلعها:

قف على قبر فاطمٍ في البقيعِ بعد مزق الحشا وسكب الدموعِ
والثم الترب من حواليه وانشق من شذاه نعيم زهر الربيعِ
وابلغنها السلام عني فإني فيها بخطب مريعِ
وتذكر أذية القوم فيه وابك حزناً وعج بقبر الشفيعِ[(١)]

وهي من روائع الأدب الرثائي البحراني للسيدة الزهراء. وقد وصف الشيخ حسين القديحي البلادي الشيخ سلمان التاجر بـ:"الأديب الكامل الزكي الذكي.. وذكر له عدة قصائد تربو على الألف والخمسمائة بيت، في مراثي آل البيت عليهم السلام ومدائحهم تصلح أن تكون قطعة من ديوان[(٢)]".

ويلاحظ الدكتور علوي الهاشمي[(٣)] أن الشيخ سلمان التاجر لم يحظ باهتمام الباحثين بسبب "تركيز الشاعر المساحة الكبرى من تجربته الشعرية على المواضيع المذهبية الخاصة بالشيعة. فقد عثرنا له على أربعة وثلاثين قصيدة طويلة في مدح أهل البيت ورثائهم، خاصة الامام الحسين، إضافة إلى قصيدة أخرى في رثاء أستاذه الشيخ سلمان العصفوري"؛ وذلك ضمن كتاب (رياض المدح والرثاء) الذي يعد مصدراً رئيساً لشعر الشيخ التاجر.

ورغم انهماك تجربة الشيخ التاجر الشعرية في بحر المناسبات الدينية والمذهبية إلا أن الشاعر كان أحياناً يتخذ من تلك المناسبات إطاراً للدعوة

(١) رياض المدح والرثاء، ص ٢١٦.
(٢) رياض المدح والرثاء، ص ٢٨٠.
(٣) علوي الهاشمي: شعراء البحرين المعاصرون، ص ٢٤.

إلى الإصلاح والحثّ على العلم وسوى ذلك من مظاهر الصحوة والإحياء، كما كان في الوقت نفسه شديد التمسك بمحاكاة النموذج الشعري العربي الأصيل من حيث الشكل التعبيري، لذا عدّ بحق "أحد رواد المدرسة الاحيائية في البحرين ومنطقة الخليج"[(١)].

لقد عرف الجمهور الأدبي في البحرين ما يسمى بالتخميس الشعري الذي كتب فيه التاجر. ويتكون المخمس من خمسة أشطر تتحد الأربعة الأولى في القافية، ويكون للشطر الأخير قافية أخرى، تتحد مع القافية في الشطر الأخير من المخمس التالي، وهكذا.

وفي شعر التاجر[(٢)]، نموذج آخر في تنويع القوافي، وهو ما يطلق عليه "المربعة"، وهي تختلف عن التخميس في أن الأبيات في المربعة جميعها من نظم الشاعر، والمقطع المربع يتكون من أربعة أشطر، تتحد الثلاثة الأولى في القافية، وتكون للشطر الرابع قافية أخرى تتحد بدورها مع نظائرها في المربعات التالية وهكذا.

التراث الشعري الدارج:

تأثر شعر الرثاء البحراني الدارج بشكل كبير باللهجة العراقية، فنجد

---

(١) علوي الهاشمي، المصدر نفسة.

(٢) لابد من التنويه بأهمية الدراسة القيمة التي قدمها الدكتور سالم النويدري لتراث الشيخ سلمان التاجر الشعري، ونشرت في مجلة الموسم، العدد ١٢ (١٩٩١م - ١٤١٢هـ).

أن حصة كبيرة من القصائد التي كتبت بلهجة عامية دارجة تميل ميلا شديدا للهجة العراقية الدارجة. فمثلا صدر ديوان رثاء للشيخ عباس الريس الدرازي في عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م بعنوان (درر المدح والرثاء) ضمنه قصائد عامية تميل إلى اللهجة العراقية، ومنها قصيدة "رؤيا الأعرابي" التي يقول فيها:

عن رؤيتك يعرابي جيت المدينة أتسايل	بالليل شفت الرؤيا وأصبحت عنها ذاهل
أما القمر بو فاضل وأنا الشمس يعرابي	وذيك النجوم المزهرة هاي اخوتي واحبابي

وأبرز شعراء الرثاء في البحرين على الاطلاق هو الشاعر الأديب ملا عطية الجمري (ت ١٩٨١) صاحب ديوان (الجمرات الودية) الذي تعد قصائده محور اهتمام خطباء المنبر الحسيني في البحرين والمنطقة الخليجية، والعراق وخوزستان.

لقد طبعت قصائد الجمرات الودية في ستة أجزاء، أربعة منها في حياة الشاعر، واثنين بعده، ويعود الفضل في جمعه وحفظه لتلميذه البار الخطيب الشاعر الملا محمد علي الناصري (ت ١٩٩٩) الذي جهد في سبيل إعداده والتعليق عليه.

ومن نماذج شعر ملا عطية الجمري في الزهراء عليها السلام، شعره على لسانها وهي تشكو عند قبر أبيها صلى الله عليه وآله:

وقفت على قبر النبي والقلب مشعوب	تشكي هظمها ودمعها على القبر مصبوب
صاحت يبو ابراهيم قوم من القبر شوف	خانت الأمة عهودنا ونسيت المعروف
بالسوط ضربوني وعلي قادوه مكتوب	مغدور حقه والورث يابوي مغصوب
دقعد وعاين ساعدي ولطمة عيوني	وسوط العبد ورّم يبو القاسم متوني

هجموا علي داري ومحّد وقف دونـي بعدك يبو ابراهيم قلبـي شـلون ميـذوب[١]

وقد صدر للشاعر محمد علي الناصري (ت ١٩٩٩) ستة دواوين رثاء منها (ديوان غديريات الناصري) الصادر سنة ١٩٨٧. ومن دواوين الرثاء الأخرى (اللآلئ الزاهرة في رثاء النبي وعترته الطاهرة) للشيخ محمد علي حميدان – ١٩٦٠م، و (ديوان فواز الفائز) لملا علي بن فايز- ١٩٦٤م، و(نفحات الشهاب في رثاء محمد وآله الأطياب) للشاعر عباس الحاج أحمد شهاب – ١٩٨٠م، و(الدموع المؤمنة) لفاطمة بنت الحاج جاسم إبراهيم آل إسماعيل – ١٩٩٠م، و(لهبات الأسى في رثاء خامس أصحاب الكساء) لملا عبد الرسول بن ملا حسن السهلاوي – ١٩٩٠م، و(وفيات الأطهار) و(ديوان مصارع العبرة في فجايع العترة) وكلاهما للسيد محمد صالح السيد عدنان الموسوي البحراني- ١٩٨٦م، و(رياض المدح والرثاء) للشيخ حسين بن الشيخ علي البلادي – ١٩٩١م، و(ديوان صدح البلابل) لأحمد بن رمل – ١٩٩١م، و(الجوهر الثمين في رثاء العترة الطاهرة) لنجمة حسن العسلي – ١٩٩١م، و(النبع المعين في رثاء الحسين عليهم السلام) للسيد هاشم السيد حسن الموسوي القدمي – ١٩٩٢م، و(ديوان لآلئ الدموع) لثريا ملا عطية الجمري- ١٩٩٣م.

(١) عطية بن علي الجمري. الجمرات الودية في المودة الجمرية، ص ٢١

الخاتمة

وبعد هذا العرض نستطيع أن نختم هذه الدراسة بالتأكيد على نتائج عدة منها:

●أن المجتمع البحراني دأب على إحياء شعائر أهل البيت عليهم السلام منذ بواكير التاريخ الإسلامي، وقد ساهم رسوخ التشيع في البحرين وعراقته على استمرار التقاليد الثقافية المرتبطة بأهل البيت الأمر الذي انعكس على التراث الأدبي والشعري، وتجلى بصورة واضحة في الأدب النثري والمصنفات العلمية التي خلفها علماء البحرين وأدباؤها.

●حفل التراث الشعبي البحراني بالعديد من الرموز والإشارات الدينية التي أفردت مساحة واسعة لشخصيات أهل البيت وهو ما انعكس في الأهازيج والألعاب الشعبية وغير ذلك من مظاهر الأدب الشعبي لأهل البحرين، وكان للسيدة الزهراء عليها السلام كما أوضح البحث حضور بارز لذكرها في هذا التراث الشعبي الخصب.

●أن شعراء البحرين وأدباءها شاركوا في إحداث نهضة أدبية اهتمت بشكل خاص بشعر المدح والرثاء لأهل البيت، فقد برع الشعراء في نظم تراث شعري هائل باللغة الفصيحة واللهجة الدارجة حفظته الأجيال وقُرأ ولا

يزال يّردد الكثير منه على أعواد منابر سيد الشهداء، وكان لموضوع مكانة السيدة الزهراء ومقامها وظلامتها حصة كبرى من هذا الإهتمام الشعري.

●أن هناك حاجة وضرورة لإخراج التراث العلمي والأدبي البحراني المخطوط، وضرورة إنشاء مؤسسات علمية ترعى هذا التراث وتعمل على إخراجه بصورة حديثة وتخصيص الدراسات العلمية التي تعنى بهذا التراث وتحقيقه والعناية به.

عاشوراء في الوجدان الاسلامي*

مقدمة

عندما كنت في تايلند الصيف قبل الماضي أدهشني العدد الهائل لتماثيل «بوذا» المنتشرة في الطرقات وعند مداخل المباني، وفي الحدائق والأماكن المفتوحة.

كنت أجد في كل زاوية وزقاق المظاهر الدينية ماثلة كجزء من ثقافة البلد وتقليده، ولم يكن مستغرباً أن تجد حسناء تايلندية تقف بوقار في طريق عام وهي تضم كلتا يديها إلى نحرها أمام التمثال المقدس. شعب يقدر عدد سكانه بنحو ٦٦ مليون نسمة، ويضم خليطاً متنوعاً من الأديان والمذاهب يعيشون في تسامح «حقيقي»، ويتحوّل كل مواطن فيه بوذياً كان أو مسلماً أو مسيحياً أو هندوسياً إلى «حارس أمين» لأصغر تمثال لبوذا موضوعاً في أصغر زقاق في هذا البلد الذي يقع في المرتبة العشرين في العالم من حيث عدد السكان.

---

* ورقة عمل مقدمة لمؤتمر عاشوراء ٨ تحت شعار "عاشوراء والوحده الاسلامية" الذي يقيمه بشكل سنوي المجلس الاسلامي العلمائي في البحرين.

في تايلند لا تجد بوذياً يستفزه وجود المسجد، ولا تجد مسلماً يبدي تبرماً من هذا العدد الهائل من التماثيل التي تملأ البلاد طولاً وعرضاً. الرموز الدينية هناك مقدسة وعابرة للخصوصيات المذهبية والدينية، فهي على اختلافها تمثل «الهوية» الجامعة لشعب قرّر أن يعيش بسلام، شاقاً طريقه في سبيل نهضة اقتصادية وتجربة سياسية واعدة.

في التاريخ البشري نماذج عديدة لشخصيات تصل في دلالتها الى حد الرمز المعبر عن حضور خاص لجماعة ما في التاريخ. هناك شخصيات دينية، مثلا لها حضور متواصل عند الجماعات التي ترى في هذه الشخصيات تعبيراً عن حضورها في التاريخ. والنماذج من هذا القبيل لاتعد ولاتحصى، فالتاريخ الديني للانسانية حافل بشخصيات تعبر عن الهوية الدينية لجماعة ما. فالنبي محمد صلى الله عليه وآله هو الرمز الأعلى للهوية الاسلامية بكل طوائفها في العالم أجمع، الامر نفسه على السيد المسيح بالنسبة للمسيحية وموسى بالنسبة لليهودية وكذلك بوذا في التراث الهندوسي[1]. يستوى في ذلك كل جماعة بشرية قد تستعير رمزها من من تاريخها السحيق، أو قد يصادف أن تعاصره متخذةً منه بطلاً قومياً وزعيماً سياسياً له القدرة على التحريك والتعبئة والتحشيد الجماهيري.

---

(١) سلوى العمد: الامام الشهيد في التاريخ والآيديولوجيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٠، ص ١٧. والكتاب أطروحة ماجستير تقدمت بها الباحثة لقسم الدراسات العربية ودراسات الشرق الأدنى في الجامعة الامريكية - بيروت في العام ١٩٨٧.

وفي الغالب فإن الجماعات الدينية، تلجأ لانتخاب رمزها القومي المعاصر بما يتلائم مع قيم وأهداف رموز أسلافها الغابرة ويتوافق مع تاريخها، لتمحضه الولاء العميق والانتماء الصادق.

من هنا لا غرو أن يجد سُنة العالم الاسلامي اليوم في شخصية جمال عبد الناصر (ت ١٩٧٠) استمراراً لدور صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، في حين يرى الشيعة في شخصية زعيم المقاومة الاسلامية في لبنان السيد حسن نصر الله أبرز مصاديق النهج الحسيني في روحية الاستشهاد وجرأة الخيارات الشجاعة، والاستعداد الدائم للتضحية.

هناك من الباحثين من حاول قراءة الحدث الكربلائي ضمن سياق مذهبي، وهي محاولات نعتقد أنها جاءت متأخرة جداً عن زمن الفاجعة و أوان حدوثها، عندما كان المسلمون يرون أن هذه المجزرة الدامية التي حدثت في عرصات الطفوف في يوم العاشر من المحرم من عام ٦١ ه / ٦٨٠م، شكلت أوضح مصاديق ابتعاد البيت الأموي عن روح الاسلام ليس بقتل إبن بنت رسول الله وريحانته فحسب، بل تمثلت في تلك الاجراءات الانتقامية البالغة الوحشية بسبي عائلات الشهداء وفيهن العلويات، وسوق قافلة السبايا من كربلاء الى الكوفة، ومن الكوفة الى الشام، تصحبها رؤوس الشهداء محمولة على أسنة المراح أو معلقة في أعناق الخيل وفيها رأس الامام الحسين عليه السلام.

والصحيح أن "طقوس" الإحياء العاشورائي، وليس "مكانة" الامام الشهيد الخالدة، هو ما يميز شيعة أهل البيت عن غيرهم من الفرق

الاسلامية، ففي حين اعتبر الشيعة حدث عاشوراء محطة فاصلة من تاريخ مسلسل الاضطهاد الذي لاقاه أئمتهم من السلطات الزمنية، فإن بقية الفرق الاسلامية، تعتبر الحدث مأساوياً بما يحتم ضرورة تناسيه.

الفرق بين النهجين، أن حدث عاشوراء تم توظيفه في الذهنية الشيعية لتعميق الهوية و الحفاظ على الخصوصية المذهبية، ترسيخ حالة الانتماء للمذهب في ظل ظروف سياسية واجتماعية خانقة مرّ بها أتباع أهل البيتعليهم السلام عبر العصور، في ظل حكم مركزي مباين للتشيع ولايبدي في الغالب ارتياحاً لهذه الشعائر، التي استمرت بدءاً من عهد الامام محمد الباقر (ت ١١٤ هـ / ٧٣٢م)تأخذ شكل المؤسسة الهادفة التي تنشيء بمرور الوقت تقاليدها ومصطلحاتها وأساليبها.

من هنا، تأتي هذه الورقة لتناقش (مكانة عاشوراء في الوجدان الاسلامي)، ولتشكل مدخلاً من مداخل فهم الحدث الكربلائي بوصفه حدثاً إنسانياً قبل أن يكون إسلامياً، وإسلامياً قبل أن يكون فصلاً من فصول كتاب محنة الشيعة في موكب التاريخ.

مكانة عاشوراء في مجتمع البحرين

يبدأ الشيعة عامهم الهجري بعشرة أيام من العزاء يقوم خلالها خطباء محترفون بتذكيرهم بما حدث في كربلاء منذ قرون. بالنسبة الى بعض الشيعة هذه النشاطات الاجتماعية التي تعبر بعاشرواء هي تعبير عن المواساة لاهل البيت النبي، وبالنسبة الى آخرين هي إشارة الى الاستعداد للتضحية من أجل الدين، بوالنسبة الى الجميع، هي الطريقة التي اعتاد المجتمع الشيعية ان يصون بها تمايزه الثقافي على مر العصور.

كانت مدينة كربلاء الواقعة على بعد ٦٠ ميلاً جنوب بغداد مسرحاً لمعركة دموية قتل خلاها عشرات من اعضاء العائلة النبوية على يد الجيش الاموي عام ٦١ هـ / ٦٨٠م وقد بقي تأثير المذبحة محورياً وحاضراً في أذهان الشيعة وقلوبهم، متجاوزاً من حيث العمق، العديد من المآسي التي تعرضو لها خلال التاريخ، يقول المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن Julius Wellhausen (ت ١٩١٨) ثمة أحداث تترك آثاراً مدهشة ليس بسبب الحادثة نفسها وما تتخلله بالضرورة من نتائج، بل بسبب الصورة الرمزية التي ترسمها في ذاكرة الناس وقلوبهم[١].

وليس من شك في أن عاشوراء كانت من هذا النوع من الأحداث، فقد جرى ترميزها كأسطورة للبطولة والصفاء والتضحية بالذات من أجل

---

(١) يوليوس فلهاوزن: الخوارج والشيعة، (تر: عبدالرحمن بدوي)، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨، ص ١٣٧.

الاهـداف الخيـرة. سياسـياً أعيـد إنتـاج عاشـوراء كأسـاس ثقـافي لانكـار مشروعية كل أشكال السلطة الزمنية.

لم يكن فلهاوزن مبالغاً حين يقـول أن استـشهاد الامـام الحـسين "فـتح عصراً جديداً لدى الشيعة"[١] بما تركه من تداعيات ظلـت فاعلـة فـي العقـل والوجدان الشيعي، حتى أن مـن البـاحثين مـن يعتبـر أن مأسـاة كـربلاء تعـد واحدة من أبرز ثلاث عوامل ساهمت في تشكيل الخطاب السياسي الـشيعي وتحديد مقوماته الرئيـسية وهمومـه وحـدوده، فـإلى جانـب مأسـاة كـربلاء، هناك فكرة الإمامة المعصومة كما صاغها الامام الصادق عليه السلام وغيبـة الإمـام الثاني عشر محمد المهدي[٢].

وفي البحرين، يكتسب شهر محرم مكانة عظيمة لـدى المـواطنين، إذ تتكثف فيها مراسم الاحياء في "عاشوراء" وهي الأيام العشر الأولى من شهر محرم منذ سماعهم بمقتل الأمام الحسين عليه السلام من الحجاج الذين زاروا مكة والمدينة آن ذاك، وكـانوا يقيمـون مـأتم العـزاء فـي البيـوت ثـم خصـصت أماكن سميت "مأتم" أو حسينيات نسبة للحسين عليه السلام واليوم قد وصـل عـدد لمآتم المرخصة كا يزيد عن ٦٠٠ حسينية ومأتم في المنـاطق المختلفـة مـن المملكـة[٣]. وبينـت الاحـصاءات أن مـا نـسبته ٥٢٪ مـن تلـك المـآتم

(١) فلهاوزن: م. ن، ص ١٣٧.

(٢) توفيق السيف: حدود الديمقراطية الدينية، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨، ص ٢٥.

(٣) منبر الأوقاف، دورية تـصدر عـن إدارة الأوقـاف الجعفريـة، العـدد الثالـث، يوليـو ٢٠٠٧.

والحسينيات للرجال ومانسبته ٤٨٪ للنساء وأن ما يربوا على ٢٠٠ من تلك المآتم والحسينيات تأخذ من البيوت مقراً لها في إحياء فعالياتها.

ويرتفع البعض بعدد المآتم الموجودة في البحرين مؤكداً أنها تزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة حسينية للرجال، ثلث هذا العدد فقط له أوقاف مسجلة لدى إدارة الأوقاف الجعفرية، والثلثان الباقيان بلا أوقاف حيث تعتمد في تمويل مصروفاتها على أموال المؤسسين الخاصة، وكذلك القائمين عليها ومن التبرعات والنذور التي ترد من الآخرين[1]. وأياً يكن الاختلاف في عدد المآتم الموجودة في البحرين، حيث ان بعضها غير مقيد بشكل رسمي، فهي بلا شك تعكس مبلغ اهتمامهم المواطنين الشيعة في البحرين وعنايتهم بهذه المؤسسات والنشاطات الدينية التي ترعاها.

ما أن يهل هلال المحرم، تتشح الطرقات والشوارع بالرايات السوداء وتعلق على المباني والبيوت وجدران "المآتم والحسينيات" إعلانا لموسم الحزن على مأساة المسلمين بمقتل الامام الحسين، يسمى ذلك اليوم بيوم "تركيب السواد". كما يحرص شيعة البحرين على تقديم الموائد لجميع الطوائف والأديان في مشهد يعكس مدى قدرة هذه المناسبة على جمع الاديان على قيم الخير والفضيلة، فتجد مشاركة فاعلة وواضحة الى الاشقاء السنة والمسيحيين واليهود والبوذيين خصوصاً في مراسم الإحياء الحاشدة التي تجري في العاصمة المنامة، و التي يتواجد فيها جالية أجنبية كبيرة

---

(١) عبدالله سيف: المأتم في البحرين، ص ٢٥.

متعـددة المـذاهب والأديـان، ولهـذا سـرى مثـل شـعبي بـين البحـرانيين يقول:"اللي ينوح واللي ماينوح يأكل عيش الحسين" في إشارة دالّة على كرم أهالي البحرين الذي ليس له حدود، حيث توضع الموائد على حب أهل البيت عليهم السلام.

وعندما التقيت ذات نهار بالمؤرخ البحريني الراحل مبارك الخاطر (ت ٢٠٠١) ودار بيننا حديث عابر تحدث فيه بزهو ملفت عن مواسم عاشوراء في البحرين القديمة، وكيف كانو منذ طفولتهم يقضون أيام عشرة المحرم يجوبون مآتم جزيرة المحرق التي عرفت بتسامحها الديني العجيب بحكم التركيبة الكوزموبوليتية للمدينة ويشاركون إخوتهم الشيعة في طقوس وشعائر العزاء الحسينية التي كانت تمثل فرصة ومحطة تلاقي جميل وعفوي بين أبناء البحرين بصرف النظر عن مذاهبهم، وأتذكر أنه قال "كنا ياولدي لانكاد نرجع لبيوتنا إلا في آخر النهار بعد أن ننتهي من التطواف على مآتم أخوتنا الشيعة مالئين بطوننا من عيش الحسين، كانت بيوتنا لاتوقد ناراً لوجبة طعام، طعامنا كان من بركات الحسين". ولا أكتم القاريء إن كلمات الخاطر تلك لم تفاجئني، وكان ردي بابتسامة رضا خرساء على ما كان واقعا كنا نعرفه كبحرينيين ونتعايش معه الى الدرجة التي لم يكن يستدعي منا كل هذا التأمل[1]. علماً بان مبارك الخاطر كان أحد قيادات

---

(١) من مقال للباحث بعنوان (أنا أكره الطائفية)، صحيفة الوسط البحرينية (الثلثاء ٣١ يوليو ٢٠١٢م).

حركة الاخوان المسلمين فرع البحرين.

مثال آخر، نستعرضه على ما يؤكد مركزية ومكانة أهل البيت في نفوس المسلمين بمختلف انتماءاتهم المذهبية، ما نقله لي سماحة الشيخ الدكتور جعفر المهاجر[1] من كبار علماء لبنان، أنه في منتصف الخمسينيات، في الوقت الذي كان يدرس في النجف الاشرف، كان في احدى المرات مع مجموعة من الطلبة في زيارة لبيت الامام علي بن ابي طالب في الكوفة، وقد لاحظ أن هناك امرأة تبكي بكاء مراً، وتنشج بصوت مسموع بحيث كان جسدها يهتز بكامله وهي تستند في مشيتها على كتف رجل يمشي بجانبها، وكان يلوح من لباسهما انهما غير عراقيين، فخشيتُ أنا ومن معي أنهما قد يكونا قد تعرضا لاعتداء أو سلب في طريقهم، لان بكاء السيدة كان شديداً وملفتاً، وعندما اقتربنا منهما سألناهما، هل بالامكان تقديم مساعدة لكما ؟ فتحدث الرجل الذي كان بجوارها: وقال: أنا أمين الخولي وهذه زوجتي بنت الشاطيء، ونحن بخير، والامر لايدعوا للقلق، فزوجتي ما أن رأت البيت الذي ضم الحسن والحسين وهم أطفال، وضم الزهراء البتول وعلي ابن ابي طالب حتى أجهشت بالبكاء.. اتركوها حتى

(١) تجدر الاشارة الى الشيخ المهاجر قدم دراسات تاريخية مهمة عن واقعة كربلاء، بدأئها بكتابه (موكب الأحزان: سبايا كربلاء) و (موكب الشهادة: من المدينة الى كربلاء) وهو يعمل على استكمال مشروعه التاريخي عبر تغطية جوانب وفصول الحدث الكربلائي بكتاب ثالث يعمل على كتابته حاليا.

تهدأ لوحدها[1].

ومن المعروف أن عائشة عبد الرحمن المعروفة بـ"بنت الشاطئ" (ت ١٩٩٨) هي مفكرة وكاتبة مصرية، وأستاذة جامعية وباحثة، وهي أول امرأة تحاضر بالازهر الشريف، ومن اوليات من اشتغلن بالصحافة في مصر وبالخصوص في جريدة الاهرام، وهي أول امرأة عربية تنال جائزة الملك فيصل في الاداب والدراسات الإسلامية. وهي زوجة الاديب المصري الشيخ أمين الخولي (ت ١٩٦٦). وهذه القصة تدل دلالة بالغة على ما لمكانة أهل البيت عليهم السلام من حب في نفوس المسلمين، بمختلف مذاهبهم الدينية.

تاريخياً، عرفت البحرين إقامة المجالس الحسينية منذ زمن مبكر، قد يرجع الى السنين الأولى من مصرع الامام الحسين عليه السلام وأهل بيته في كربلاء، وكان أهالي البحرين يقومون بعقد المجالس الحسينية – كما أشرنا – في بيوتهم ومجالسهم الخاصة أو في بساتينهم ومساجدهم منذ سمعوا باستشهاد الإمام الحسين في كربلاء، وكلما شهد الأهالي إنفراجاً أمنياً من الحكام توسعوا في إقامة هذه المجالس علناً، وكلما شعرو بالتضييق والإضطهاد إنكمشوا في إحياء هذه الذكرى وأقاموا هذه المجالسَ في الخفاء.

غير أن الحسينية كمؤسسة أهلية قائمة بذاتها كبناء له كيان مستقل لم

---

(١) لقاء خاص.

يعرفه المجتمع البحراني إلا في العصر الحديث وربما منذ حوالى أربعمائة عام، أما بالنسبة للمواكب الحسينية المنظمة؛ فالمظنون أن المجتمع البحراني لم يعرفها إلا في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة (ت ١٩٣٢) الذي تولى حكم البلاد في الفترة ما بين عام ١٨٦٩ وعام ١٩٢٢[١].

وقد تطورت الشعائر الحسينية منذ ذلك التاريخ من شكلها العفوي البسيط، و اصبحت على ما نراه اليوم من تنظيم وإعداد واسع، مؤسسةٌ لها برامجها وموازنتها وفنونها وأنشطتها الاجتماعية والإنمائية، ودخلت فيها عناصر جديدة، صارت فيها التقنية أظهرها وأكثرها بروزاً.

والى جانب كون هذه التقاليد المرتبطة بإحياء ذكرى شهادة الإمام الحسين بن علي عليه السلام مناسبة إسلامية، فإنها تعبّر عن ثقافة مجتمع لها من العراقة والرسوخ التاريخي ما يؤهلها للتحول إلى "تقليد وطني" تتضافر فيه كل الجهود الأهلية والرسمية لحراسته والمساهمة في دعم عملية إحيائه بالشكل الملائم.

لقد اختُزلت المراسم الدينية لمناسبة عاشوراء في فترات الاضطهاد السياسي وكانت تمارس بشكل خاص ضمن المنازل، في حين أن هذه المراسم شهدت تطوراً وتوسعاً مكانياً ضمن المجال العام في الفترات التي حظيت بها المجتمعات الشيعية بدعم الدولة أو تجاهلها؛ حيث أضحت مراسم جماهيرية تتفاعل مع المجال العام. وكان من نتيجة التطور الحاصل

---

(١) عبدالله سيف: مصدر سابق، ص ٢٦.

في عملية الإحياء اتساع وتنوع واضح في طرق الإحياء ما أدى لظهور فنون بصرية هائلة، فنشأ المسرح الملحمي الديني، وتطوّر كماً ونوعاً "أدب النعي" الحسيني الذي يحمل في الكثير من مضامينه مدلولات سياسية واجتماعية تعكس أوضاع الحالة الجماعية للمعزين.

ومن ضمن أبرز الحالات التي أخذت تفرض نفسها في الآونة الاخيرة، احتدام الجدل المذهبي / الطائفي بين السنة والشيعة، صحيح أن هذا الجدل قديم جداً، الا ان فصوله المعاصرة ترتبط بصعود الشيعة في النظام الاقليمي لمنطقة المشرق الأوسط، فهو من هذه الزاوية تحديداً انعكاس لتغير الخريطة السياسية للشرق الأوسط منذ انتصار الثورة الاسلامية في إيران عام ١٩٧٩، ثم سقوط نظام صدام حسين في العراق منتصف ٢٠٠٣، وصولاً الى هزيمة الجيش الاسرائيلي على يد حزب الله في جنوب لبنان عام ٢٠٠٦.

ولم تشهد المنطقة تصاعداً في التنافرات الطائفية مثلما حصل خلال هذه الحقبة، ولا شك أن الصعود السياسي للشيعة، الذي تجلى خلال تلك الحوادث، يقف وراء معظم الجدالات التي اجتاحت البلدان التي يشكل الشيعة جزءً مؤثراً من سكانها، ولم تقف عند حدود المجتمعات التي يسكنها أقلية صغيرة منهم فحسب مثل المغرب ومصر وتونس وغيرها. وكما هو المتوقع، فقد لبس الجدل الثوب الديني، فتناول أسئلة مذهبية بحته، عقدية أو فقهية، لكنه استهدف في المقام الاول قضايا مجتمعية، تتخذ من المذهب أو الطائفة وسيلة لتصوير الحدود المكانية للمشكلة أو

لتبرير قيامها.

وهـذه مـن أبـرز القـضايا التـي تـدخل ضـمن اهتمامـات الخطـاب العاشـورائي الـذي يتعامـل مع مـشاكل المجتمع بواقعيـة ويرصـدها ضـمن الهموم الاصلاحية الكبرى الذي يحاول تلمس طريقـة الامـام الحسين فـي إصلاح واقع الأمة الذي جسدها في قوله : " إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلاَ بَطِراً وَلاَ مُفْسِداً وَلاَ ظَالِماً؛ وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإِصْلاَحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؛ وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي وَسِيرَةِ أَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ، فَاللَّهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ؛ وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ هَذَا ، أَصْبِرُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ بِالْحَقِّ؛ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"[(١)]. وهكذا رأينـا الخطـاب العاشـوراء وهـو اذ يـستوحي من هذه الذكرى السنوية هـذه الفاجعـة الاليمـة، يـسعى ايـضاً الـى اسـتلهام طموح التغيير وهمومه.

---

(١) من وصية كتبها الامام الحسين لاخيه محمد بن الحنفية حين عَزَم على الخروج من المدينـة المنـوّرة إلـى مكّـة المكرّمـة، وقـد أورد المحـدّث القمّـيّ هذه الوصيّة في (نفس المهموم) ص ٤٥ ، عن العلاّمة المجلسيّ في (بحار الانوار) عن محمّد بن أبي طالب الموسويّ ؛ وأوردها كذلك في (ملحقات إحقاق الحقّ) ج ١١ ، ص ٦٠٢ ، عن الخوارزميّ في كتاب (مقتل الحسين) ج ١ ، ص ١٨٨ طبع النجف.

إصلاح الشعائر الحسينية حتى لاتضيع رسالة كربلاء

حاجة الإنسان والمجتمعات الى التجديد هي حاجة تفرضها طبيعة الزمن وتحولاته، فالتجديد هو شكل من أشكال الإبداع الانساني، وهو إفراز للتفكير الحر والذهن المتوقد، والعقل المشكك والباحث دوماً عن آفاق جديدة تسّهل عليه حياته وتمنحه الطمأنينة وتُشبع فضوله وقلقه المعرفي. والتجربة البشرية تتراكم عبر العصور في مختلف ميادين الحياة، فالعلوم تتسع وتتعمق وتجنح الى التخصص، بل وتظهر علوم جديدة، ومجالات في الحياة لم تكن مألوفة من قبل عند الناس.

من هنا، فإن الحاجة الى التفكير في بعض الأنشطة الاجتماعية والثقافية ذات الدافع الديني، تعتبر ضرورة، في زمن تحول فيه الفكر الديني – مع الأسف – الى بيئة حاضنة للكراهية والشحن الطائفي.

من هنا نحاول أن نقترح محاور للإصلاح في الإحياء العاشورائي بهدف الارتقاء بالوعي والممارسة الحسينية في مجتمعنا بما يساهم في تعميق أواصر الوحده الاسلامية وتحقيق شرط العيش المشترك، أخوةً في دين الله، وشركاء في الوطن والإنسانية.

أولاً : التحقيق التاريخي للحدث الكربلائي

تبدوا الحاجة ماسة لدراسة الحدث الكربلائي دراسة تاريخية وافية تكون أقرب الى واقع حدوثها، ذلك أن وقائع كربلاء دخلت فيها الكثير من التصورات والروايات الدخيلة المشكوك في صحتها، ويشير السيد محسن الأمين (ت ١٩٥١) أن كثيرا من الذاكرين لمصاب أهل البيت في كربلاء :"قد اختلقوا أحاديث في المصائب وغيرها، لم يذكرها مؤرخ ولا مؤلف ومسخوا بعض الاحاديث الصحيحة وزادوا ونقصوا فيها لما يرونه من تأثيرها في نفوس المستمعين الجاهلين بصحة الاخبار وسقمها، حتى حفظت الألسن وأودعت في المجاميع واشتهرت بين الناس ولا رادع، وهي من الاكاذيب التي تغضبهم عليهم السلام وتفتح باب القدح للقادح فإنهم لايرضون بالكذب الذي لايُرضي الله ورسوله صلى الله عليه وآله وقد قالوا لشيعتهم كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا .."[١]. وقد وضع السيد الأمين في كتابه (التحفة السنية في مناقب العترة النبوية)[٢] ما يمكن أن يعدّ منهجاً علمياً رصيناً لخطباء

---

(١) المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية، دار المرتضى، بيروت ٢٠٠٦، ج ١، ص ٨

(٢) وضع السيد الامين سلسلة كتب عن واقعة كربلاء ضمنها آراءه الاصلاحية، فقد وضع كتابه (التنزيه في اعمال الشبيه) وهو رسالة رد فيها على الشيخ عبدالحسين صادق هدف من ورائها إصلاح الشعائر الحسينية، وكتاب (إقناع اللائم على إقامة ←

المنبر الحسيني يقوم على السرد الصحيح والموثق لحادثة كربلاء وسيرة الأئمة من أهل البيت من الكتب المعتبرة، كما تضمن مواقف السيد السياسية والاجتماعية، ويقع الكتاب في مجلدين من خمسة أجزاء.

كما يذكر الشيخ مرتضى مطهري (ت ١٩٧٩) "إننا وللاسف الشديد حرّفنا حادثة عاشوراء ألف مرة ومرة أثناء عرضها لنا ونقل وقائعها.. حرفناها لفظياً ومعنوياً"[(١)]. ويذكر المطهري أن الميرزا حسين النوري أستاذ الشيخ عباس القمي، ومن كبار العلماء، كتب كتاباً اسمه (اللؤلؤ والمرجان) تناول فيه وظائف أهل المنبر وقرّاء المآتم الحسينية والخصائص المطلوبه فيهم، وينقل عن الكتاب قول مؤلفه :"كتب لي أحد العلماء من الهند يشكو من كثرة الأكاذيب التي يروج لها قراء التعزية الحسينية في تلك البلاد، وقد رجاني أن أعمل شيئاً بهذا الخصوص كأن أكتب كتاباً يساهم في منع استمرار الخطباء من الكذب على المنابر الحسينية". ولذلك وقف الشيخ المطهري في كتابه (الملحمة الحسينية) فيما يزيد عن ٩٠٠ صفحة أمام

➔

المآتم) الذي يدافع فيه على اقامة المآتم الحسينية، وكتاب (الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد) جمع فيه أفضل أشعار المشاهير معاصرين ومتقدمين في رثاء الامام الحسين، وكتاب (لواعج الاشجان) عن مأساة كربلاء وفيه أبرز دور المرأة من خلال مواقف النساء اللواتي رافقن معسكر الإمام الى كربلاء، وأخيراً (أصدق الاخبار في قصة الاخذ بالثأر) الذي أورد فيه أخبار ما بعد مقتل الحسين.

(١) الملحمة الحسينية، المركز العالمي للدراسات الاسلامية، قم ١٩٩٢ ج ١، ص ١٢.

بعض ما اعتبرها تحريفات ضارة بالقضية الحسينية، بل دعى الى وجوب التصدي إلى هذه الأكاذيب ويقرر:"من يعرف بأن ما يقال على المنابر كذب وافتراء؛ فإن من واجبه عدم الجلوس في مثل هذه المجالس لأنه عمل حرام والواجب يتطلب منه مقاومة الكذب وفضحة"[١].

كما كرس الفقيه الشيخ محمد مهدي شمس الدين (ت ٢٠٠١) جزءاً كبيراً من نشاطه الفكري والخطابي لواقعة كربلاء، شارحاً ظروفها المختلفة موضحاً حجم الأثر الذي تركته مظلومية الامام الحسين عليه السلام في الوجدان الشيعي والاسلامي[٢] من آثار على الاحداث التالية لها، برغم خسارة المعركة العسكرية واستشهاد جميع الثوار تقريباً.

ولقد ولدّت هذه المتابعة العلمية رؤية متكاملة عند شمس الدين حول ظروف نشأة خطاب عاشوراء وكيفية نمو مساراته، ومسار الإصلاح المطلوب بعد ظهور ثغرات في الشكل والممارسة أو في المضمون، طرأت

(١) الملحمة الحسينية، مصدر سابق، ج١، ص ١٤.

(٢) وضع الشيخ محمد مهدي شمس الدين ما يمكن اعتباره أول مشروع توثيقي شامل وأكاديمي للقضية الحسينية من خلال كتبه التي عدّت في حينها فتحاً في معالجة تاريخ الحدث الكربلائي بطريقة منهجية وتحليلة حديثة، فكتب (أنصار الحسين: دراسة عن شهداء ثورة الحسين)، و(ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الانسانية)، و(ثورة الحسين في الوجدان الشعبي) والكتاب الاخير (عاشوراء) والاخير الذي يقع في جزئين، وهو عبارة عن محاضراته رحمة الله عليه التي القاها في مواسم عاشوراء.

بمرور الزمن، وتضافر المعطيات الاجتماعية والسياسية والمعرفية التي تركت آثارها على الخطاب حول عاشوراء في المجتمعات الاسلامية الشيعية.

ولقد رصد شمس الدين مفارقات التداخل الاجتماعي والمبالغات الادبية والعاطفية، التي تأخذ بسياق النص التاريخي الى خارج حدوده المعرفية. فتعود دفة ملاحظاته الى الاصل لتحرره من ضغوط التاريخ والذاكرة والمشاعر. من هنا يرى الشيخ في بعض كتب المقتل والنصوص التي كتبت في بعض المراحل عدم صلاحيتها لبقية العصور والادوار. خصوصاً العصر الحالي ويستثني من النقد بعض التي عرفت بدقتها التاريخية ككتب السيد محسن الأمين[١]. كما يشير الى ممارسات دخلت مجال الاحياء العاشورائي بسبب التوسع الجغرافي للتشيع أو دخول أقوام جدد اليه، فتفاعل هؤلاء مع ذكرى الثورة بسلوكيات أرادوا منها إظهار التعاطف الشديد والمحبة الجياشة مثل ما حدث في دخول "اللطم" في العهد البويهي، أو سلوكيات أخرى على هامش الاحياء المختلفة تتضمن إيإذء للنفس. وهو ما وجد فيه الشيخ شمس الدين مجالاً للترشيد والاصلاح الضروريين، بما يتناسب مع أهداف الثورة ونبل مقاصدها.

وفي هذا الإطار كان لافتاً دعوته الى الاستعاضة عن ممارسات ذات طابع استعراضي أو إيذائي كضرب الرؤوس بالسيوف وإدمائها "التطبير"

---

(١) شمس الدين: ثورة الحسين في الوجدان الشعبي، ص ٢٨٩.

بممارسات أخرى أكثر رمزية وذات فائدة مثل تأسيس بنوك للدم باسم الامام الحسين عليه السلام ودفع الراغبين الى التبرع بدمائهم الى المرضى والمحتاجين[١]. علماً بأن هذا النص كتبه الشيخ شمس الدين في أواخر سبعينيات القرن الماضي.

"لقد تأثر الماتم الحسيني كأية مؤسسة ثقافية — إجتماعية بالتغيرات والطوارئ التي شهدها المجتمع الاسلامي في الفترة الواقعة بين سقوط بغداد وبدايات العصر الحديث (...) ولقد تأثر المأتم الحسيني بما حلّ بالانسان المسلم ومجتمعه في هذه الفترة والانحلال السياسي والتخلف الاقتصادي والحروب الاهلية، والمجاعات والأوبئة"[٢].

كذلك يلمح الى التأثير الاجتماعي ويتعلق بالتوجه المعرفي الذي سرى في البلدان العربية والاسلامية في ظروف الانحطاط الحضاري، حيث دفعت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية الى سريان تيار نفسي — اجتماعي ينحو الى الزهد والتصوف والهروب من الواقع رداً على إنعدام الفاعلية الحضارية للمجتمع الاسلامي. وهو إتجاه تبريري، إنهزامي وليس اتجاهاً تفاعلياً.

"وقد نما في التاريخ الحافل بأسباب بؤس الإنسان وبؤس المجتمع تيار ثقافي فلسف هذا البؤس، وهو تيار التصوف المرضي الذي قدم

(١) شمس الدين، م . ن، ص ٢٠٤.

(٢) شمس الدين، م . ن، ص ٢٨٤.

للانسان المسلم فلسفة تستمد قوة تأثيرها وفاعليتها من دعوى أنها دينية ترتكز على نصوص من الكتاب والسنة وممارسات ممثلي الاسلامي الكبار، وهي دعوة لا أساس لها من الصحة على الاطلاق (...) هذه الفلسفة تجعل من البؤس الحاضر قدراً ثابتاً من صنع الله تعالى، جعلت هذه الفلسفة من الذكرى الحسينية عملاً من أعمال الموت لا عملاً من أعمال الحياة، جعلتها طقساً يفيد الانسان في القبر لا حافزاً يحمله على تغيير واقع حياته البائسة المنحطة"[(١)].

ثانياً: إصلاح خطاب المنبر الحسيني

لعل من أبرز ما يمكن رصده من سلبيات يعيشه واقع المنبر الحسيني رغم أهمية دوره التوعوي في الأمة يتمثل في تسطيح الوعي العقائدي، واختلاق او تحريف الوقائع التاريخية اعتماداً على مصادر لاتحظى بوجاهة علمية، ويدخل في باب التحريف، ما يطلق عليه الشهيد المطهري بالتحريف المعنوي لوقائع عاشوراء، يقول الشيخ أحمد الوائلي (ت ٢٠٠٣):"هناك وعاءان لاثالث لهما يمكن أن نضع الحسين عليه السلام في أحدهما، الوعاء الأول: وعاء الارتزاق ولهذا الوعاء مواصفات معروفة لاتخرج بواقعة الطف عن صورة ذليلة ونساء حاسرة ومواقف لا مكان للرجولة فيها ولا ملامح للأهداف، وإنما كل ما فيها نساء يندبون أجساداً ممزقة ويتامى يستبدّ بهم الرعب ومجموعة من القتلة تمثل بالاجساد وتعبر

(١) شمس الدين، م . ن، ص ٢٨٤ — ٢٨٥.

عن ذلك كله بألفاظ لاتناسب مكانة الشهادة والشهداء، ولست أريد أن أنفي وقوع هذه الصورة المأساوية فقد وقعت بالفعل، ولكنها وقعت لتسفر عن نتائج معينة، هي ثمرة التضحية فهي تمثل جانباً من الصورة لاينبغي أن يستبد بالصورة كلها وتحاط بمبالغات تذهب بالملامح الصحيحة المعبرة والتي تدين الأمويين وتفضح نواياهم. أما الوعاء الثاني – يقول الوائلي – الذي يفترض أن يوضع الحسين فيه هو وعاء الرسالة الذي يبتعد عن المزايدات والمبالغات ويستشف من وراء كل تحرك وكل مفردة واقعة الطف الهدف الكبير والسر الكامن وفي الوقت ذاته استجلاء محتويات هذه الواقعة وتقديمها دروساً نستلهمها في مسيرة الحياة، ان الحياة الكريمة محتاجة دائماً لان نستلهم مواقف رموزها وقادتها، فإن سيرة القادة طعام النفس الجائعة.."[1].

ومن هنا، تبرز الحاجة الى ضرورة إنشاء معاهد ومراكز متخصصة لإعداد الخطباء الذين هم "سفراء الحسين الى العصر الحديث"، قادرون على إنتاج خطاب إسلامي متوازن يقرأ التاريخ قراءة صحيحة، في الوقت الذي يتقن فن الكلام في المسائل المستحدثة بلغة حية ومتجددة.

---

(١) تجاربي مع المنبر، دار الزهراء، بيروت ١٩٩٨، ص ٧.

ثالثاً: ترشيد الشعائر الحسينية

لقد تصدى علماء الدين المخلصون للظواهر السلبية التي دخلت الى الشعائر الحسينية، وكان المرجع الديني الأعلى في زمانه أول السيد أبوالحسن الاصفهاني من حرّم ضرب الرؤوس بالسيوف، وضرب الظهور بالسلاسل ودق الطبول والصنوج، والمزامير وما يجري عادة في أيام عاشوراء[1].

مواجهة بعض الظواهر الدخيلة بكل جرأة من قبل العلماء والخطباء وأهل الرأي من خلال المسلك النبوي القائم على الكلمة الناصحة والدعوة بالتي هي أحسن، وبيان خطر هذه الممارسات على الدين وتشويه صورة المذهب،

المقلق هو بروز بعض الظواهر السلبية في عملية الإحياء العاشورائي؛ أبرزها ما وفد على مجتمعنا من ممارسات خاطئة يتم استنساخها من بيئات اجتماعية تختلف كل الاختلاف عن أعراف وثقافة المجتمع المحلي، لعل أبرزها رواج ما يعرف بـ "ركضة طويريج" التي وفدت من العراق، و "المشي على الجمر" التي وفدت من شبه القارة الهندية، ناهيك عن "ضرب القامة" وهي ظواهر نتمنى من علماء الدين أن يتصدّوا لها بشجاعة وحكمة لما لها من ضرر كبير على الصورة الحضارية والسمحة للإسلام.

---

(١) جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم، منشورات الشريف الرضي، قم، ج ١ ، ص ١٠٦.

ويجدر هنا رد هذه الظواهر الى ظروف نشأتها التاريخية حتى نفهم كيف تسربت هذه الثقافة الدخيلة الى مراسم إحياء عاشوراء لدينا؛ ففكرة التطبير أو ما يعرف ب "ضرب القامة" يرد فيها روايتان، الأولى تقول أن أحد الموالين للإمام الحسين جاء زائراً يوماً مرقده من بلاد القفقاز، وكان يحمل سيفه معه كسلاح شخصي في ذلك السفر الطويل.. ولما استقر به المقام عند المرقد المقدس وراح يستمع يوماً بتأمل وامعان الى تفاصيل مقتل الامام الحسين، لم يستطع أن يتمالك نفسه، فأخذ سيفه وراح يضرب رأسه بلا شعور حتى مات.. ثم شيّع الرجل في جنازة مهيبة باعتباره زائراً وغريباً، فصارت هذه الحكاية بابا لاجتهاد أحد مسئولي المواكب لمواساة هذا الزائر الغريب في مصيبته وكذلك مواساة سيد الشهداء وأصحابه.

أما الرواية الثانية وهي أضعف، خلاصتها أن مجموعة وليس واحداً هم الذين فقدوا سيطرتهم على مشاعرهم عند سماعهم قصة مقتل الحسين عليه السلام وراحوا يضربون رؤسهم بسيوفهم فمات اثنا عشر شخصاً منهم في الحال، وهكذا راحت "مواكب التطبير" تترى باجتهادات لا يعبر بعضها إلا عن استعراض لا طائل وراءه[1].

وأما موكب عزاء / ركضة طويريج، فقد تأسس متأخراً في العقد الاخير من القرن الثالث عشر الهجري (١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م)، وينسب تأسيسه

(١) محمود الغريفي: الشعائر الحسينية بين الوعي والخرافة، تقديم السيد كامل الهاشمي، ص ٨٥ – ٨٦.

للسيد صالح الحسيني القزويني (ت ١٨٨٧) الذي كان يحيي في بلدة طويريج (تصغير طريق) مواسم عاشوراء من كل عام بالمأتم الذي يقام في داره، فيتوافد أهالي البلدة للاجتماع عاماً بعد عام. وفي صبيحة يوم العاشر من المحرم كان يقرأ بنفسه "مقتل الامام الحسين" في الكتاب المنسوب الى السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦م) وكان عدد الحاضرين يناهز العشرة آلاف شخص من الرجال فقط، وبعد تناول الغداء يذهب المجتمعون مشياً على الاقدام الى كربلاء، وهي لا تبعد عن طويريج إلا بمسافة يسيرة، فيدخلونها بعد وقت الظهيرة بساعة واحدة، وهو الوقت الذي قيل ان الامام الحسين عليه السلام قتل فيه، أما السيد صالح القزويني فكان يمتطي صهوة جواده، محاطاً بالجموع . وقد استمر هذا التقليد بعد وفاة السيد صالح الى أبناءه وبقي متوارثاً بينهم، فلا يقود موكب طويريج الا من تحدّر من نسل السيد صالح فقط[١].

إن واجب إظهار عاشوراء بالمظهر اللائق يقع على عاتق علماء الدين، والمجتمع أفراداً وهيئات، وحيث يدرك كل طرف مسئوليته الأخلاقية والشرعية فإننا سنتمكن من جعل هذه الفعاليات مراسم حضارية بكل المقاييس، تجتمع حولها كل الأديان ويتمسك بها البشر بمختلف مذاهبهم.

---

(١) جودت القزويني: موكب عزاء طويريج، مجلة الأرشيف، العدد الثالث، السنة الاولى ١٤٣١ – ٢٠١٠.

خاتمة

تناولت هذه الورقة (مكانة عاشوراء في الوجدان الاسلامي)، معتبرةً أن فعل الاستشهاد الحسيني بكل أبعاده الانسانية يمكن استغلاله في ترسيخ فكرة التعايش المشترك بين الطوائف، وترسيخ الوحدة الاسلامية في المجتمع المسلم، واستثمار هذه الذكرى السنوية الخالدة في بلورة خطاب وطني جامع، يؤكد على ثوابت الأمة، ويتمسك بأسباب عزتها ومنعتها.

ولقد تبنت الورقة الدعوة لاصلاح المراسيم الدينية المرتبطة بإحياء شعائر عاشوراء. ضمن ثلاث محاور:

١. التحقيق التاريخي للحدث الكربلائي.
٢. إصلاح خطاب المنبر الحسيني.
٣. ترشيد الشعائر الحسينية.

واستعرضت الورقة بعض مواقف المصلحين من رجال الدين كموقف السيد محسن الأمين الجريء والشجاع في مواجهة بعض هذه المظاهر السلبية التي ارتبطت بطقوس عاشوراء، حيث واجه السيد الأمين هذا الأمر بمشروع إصلاحي يستهدف "إصلاح" المنبر الحسيني ما علق به من أحداث تاريخية مشكوك في دقتها، ثم "تخليص" الشعائر الحسينية من بعض المظاهر السلبية والتي كان أبرزها "ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات

وبعض الأفعال المستنكرة، وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها ولاسيما أنها ملبسة بلباس الدين".

وانتهت الى أن واجب إظهار عاشوراء بالمظهر اللائق يقع على عاتق علماء الدين والباحثين واصحاب الرأي، والمجتمع أفراداً وهيئات، وحيث يدرك كل طرف مسئوليته الأخلاقية والشرعية فإننا سنتمكن من جعل هذه الفعاليات مراسم حضارية بكل المقاييس، تجتمع حولها كل الأديان ويتمسك بها البشر بمختلف مذاهبهم.

المصادر

١. ابن المجاور الشيباني (١٩٩٦): **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز**؛ القاهرة.

٢. بزرك الطهراني (١٩٨٣): **الذريعة الى تصانيف الشيعة**، دار الاضواء، بيروت.

٣. جعفر المهاجر (٢٠١٠): **أعلام الشيعة**، دار المؤرخ العربي، بيروت.

٤. حبيب آل جميع و أحمد المرهون (١٩٩٨) : **فهرس مخطوطات مكتبة آل عصفور**، دار حفظ التراث البحراني، قم المقدسة.

٥. حسن موسى الصفار (٢٠٠٦): **الأوقاف وتطوير الاستفادة منها**، أطياف للنشر والتوزيع. القطيف.

٦. **ديوان طرفه بن العبد** (٢٠٠٠): شرح الاعلم الشنتمري، تحقيق ريه الخطيب ولطفي الصقال، ادارة الثقافة والفنون، البحرين.

٧. سالم النويدري (١٩٩٢): **أعلام الثقافة الاسلامية في البحرين**، مؤسسة العارف، بيروت.

٨. سلمان رامس (٢٠٠٩): **صعصعة بن صوحان العبدي**، مؤسسة طيبة

لاحياء التراث، قم المقدسة.

٩. سليمان بن عبدالله ال عصفور (٢٠٠١): **مصارع الشهداء ومقاتل السعداء**، تحقيق علي آل كوثر، مجمع إحياء الثقافة الاسلامية، قم المقدسة.

١٠. عباس القمي (د. ت): **الفوائد الرضوية في أحوال علماء المذهب الجعفرية**، تحقيق ناصر باقري بيدهندي، مؤسسة باستان كتاب، قم المقدسة.

١١. عبد الجبار الرفاعي (١٣٧١هـ ش): **معجم ماكتب عن الرسول وأهل البيت**، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.

١٢. عبدالله سيف (١٩٩٥): **المأتم في البحرين**، مؤسسة الايام للطباعة والنشر، المنامة.

١٣. عبدالعزيز الطباطبائي (د. ت): **أهل البيت في المكتبة العربية**، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، قم المقدسة.

١٤. عطية بن علي الجمري (٢٠٠٤): **الجمرات الودية في المودة الجمرية**، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٥. عدنان الموسوي (٢٠٠٦): **سجل السيد عدنان الموسوي**، إدارة الاوقاف الجعفرية، النسخة الالكترونية.

١٦. علوي الهاشمي (١٩٨٨): **شعراء البحرين المعاصرون**، المؤلف، البحرين.

١٧. علي بن حسن البلادي (١٩٩٤): **أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والاحساء والبحرين**، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت.
١٨. فارس تبريزيان (١٩٩٥): **العلامة السيد هاشم البحراني**، دار المعروف للطباعة والنشر، قم المقدسة.
١٩. محسن الامين العاملي (١٩٨٦): **أعيان الشيعة**، دار التعارف، بيروت.
٢٠. محمد علي التاجر (٢٠٠٩): **منتظم الدرين في تراجم علماء وأدباء الاحساء والقطيف والبحرين**، مؤسسة طيبة لإحياء التراث. بيروت.
٢١. محمد حميد السلمان (٢٠١٢): **الببليوغرافيا الحسينية البحرينية**، المجلس الاسلامي العلمائي – مركز الامام الحسين للدراسات والبحوث. المنامة.
٢٢. محمد علي التاجر (١٩٩٤): **عقد اللال في تاريخ أوال**، مؤسسة الايام للطباعة والنشر، المنامة.
٢٣. محمد بن علي بن الحسين الصدوق (١٩٨٤): **عيون أخبار الرضا**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٢٤. **منبر الأوقاف**، دورية تصدر عن إدارة الأوقاف الجعفرية، العدد الثالث، يوليو ٢٠٠٧.
٢٥. مي محمد الخليفة (١٩٩٩): **محمد بن خليفة الاسطورة والتاريخ الموازي**، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، بيروت.
٢٦. نبيلة ابراهيم (د. ت): **أشكال التعبير في الادب الشعبي**، دار غريب

للطباعة والنشر، القاهرة.

٢٧. يوسف بن أحمد آل عصفور (٢٠٠٦): **الدرة الغرّاء في شرح خطبة الزهراء**، تحقيق محمد عيسى ال مكباس، دار العصمة، المنامة.

٢٨. يوسف بن أحمد آل عصفور (١٩٨٦): **لؤلؤة البحرين**، تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم، ط ٢، دار الاضواء، بيروت.

الفهرس

إضاءات حول مكانة السيدة الزهراء عليها السلام في التراث البحراني
.... ٢٥٠



المؤلف:

- وسام عباس محمد السبع.
- كاتب وإعلامي بحريني مهتم بالفكر والتاريخ الثقافي الاسلامي.
- ماجستير إعلام وعلاقات عامة - الجامعة الاهلية (٢٠١٠).

المؤلفات:

- الإسلام الحركي في البحرين: من أوراق الحركة الاسلامية.
- العلامة السيد جواد الوداعي: السيرة والمسيرة.
- سيرة العباءة: صفحات من حياة الشيخ سلمان المدني.
- محاسن أهل البحرين من سلافة العصر لابن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ)، (إعداد وتعليق).
- مآذن ونخيل (بين يديك).

التنسيق والإخراج الفني: الكليم للتصميم:
نقال: 36778827 973+
البريد الإلكتروني: mohd.he@gmail.com